الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان-
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص: القرآن الكريم والدراسات الأدبية

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القرآن والدراسات الأدبية

الموضوع:

جماليات الخطاب في سورة النور

من إعداد الطالب :
نواصر سعيد

تحت إشراف الدكتور:
كريب رمضان

095
2008

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.د: رضوان النجار، أستاذ التعليم العالي ..... جامعة تلمسان..... رئيسا
د: كريب رمضان، أستاذ محاضر .....جامعة تلمسان..... مشرفا
أ.د: طول محمد، أستاذ التعليم العالي ..... جامعة تلمسان..... عضوا
أ.د: زين الدين مختاري، أستاذ التعليم العالي ....جامعة تلمسان..... عضوا

الموسم الجامعي: 1427هـ-1428هـ/ 2006-2007

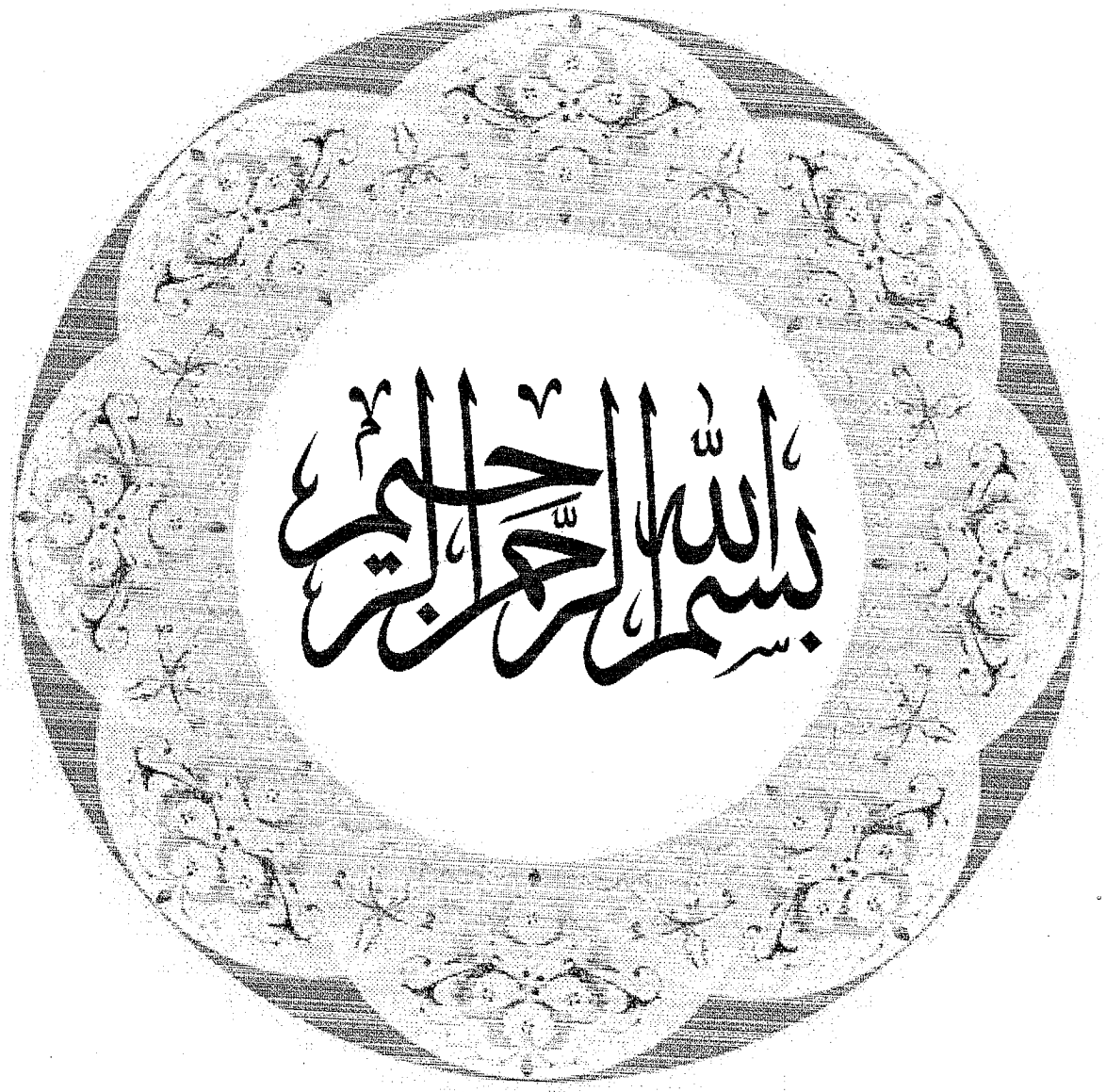
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء وتشكرات

إهداء:

أهدي ثمرة عملي هذا، إلى:

- الذي قال فيه رب البرية: "وإنك لعلى خلق عظيم"
- من قال فيهما المولى عز وجل: "وبالوالدين إحسانا"
- الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء"
- التي قال فيها روح الوجود صلى الله عليه وسلم: "الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة"...
- زهرة الحياة الدنيا وفتنتها، قال تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ " .
- من قدم روحه فداء للوطن، إلى مجاهدي الأوراس الصغرى متليلي الشعانبة
- أولياء الله الصالحين في جزائرنا الحبيبة، في كل مكان من ربوعها الطيبة
- أهل توات وتلمسان، وكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث...
- الخلان: الإخوة سي عمارة، سي بوزيان، سي عبد الرزاق...
- كل الأهل والأحباب والإخوة والأخوات من عائلة نواصر...
- أبنائي محمد بلخير، محمد ياسين، دلال، فاطمة الزهراء، وأمهم خديجة.

وأرجو من الله القبول الحسن، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

تشكرات:

أتقدم بخالص الشكر والإمتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور كريبع رمضان الذي أخذ بيدي وأنار لي السبيل لإنجاز هذا البحث العلمي .

كما أقر بعظيم العرفان وجزيل الشكر بما أسداه إلي الأستاذ الدكتور: طول محمد، رئيس المشروع على وقوفه ومجهوده المتواصل معي من أجل تتمة هذه الرسالة، فجزاه الله عنا كل خير، كما أتقدم بالعرفان وصادق المودة والشكر إلى أساتذتي الذين لم يبخلوا بتوجيههم وإرشاداتهم، والشكر موصول إلى لجنة المناقشة التي تجشمت عناء القراءة والتصويب.

نواصر سعيد

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا المحمود في السماء، صاحب العز والصفاء إمام المرسلين وخاتم الأنبياء، بحر الأنوار ومعدن الأسرار، صلى عليه الله ما طلعت شمس النهار، وعلى الآل والصحب الأخيار، وبعد، فالحمد لله الذي جعل القرآن نورا، يهتدي به الحائرون، وينهل منه العارفون،قال الله تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾فصلت الآية (03)

إن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، نزل به الروح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، منجما مقسطا في ثلاث وعشرين سنة، حتى تستعد القوة البشرية لتلقي هذا الفيض الإلهي، وهو معجزة الإسلام الكبرى، إذ لم يبلغ أي كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان ومس المشاعر وأسر القلوب، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله، أو حين يشرع للناس ما فيه صلاح دنياهم وآخرهم، أوحين يصور لهم الثواب والفردوس والجحيم، أو يقص عليهم من أنباء الرسل الأولين ما فيه عبرة ومزدجر.

فقد نزل في أسلوب لا يُبارى في قوة إقناعه وبلاغة تركيبه، وها هو الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم يقر بعجزه حين أسرته روعة الجمال وقوة البيان "والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس أو الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق"، ويلاحظ الوليد

ملاحظة صادقة، هي أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذي كان يجري على ألسنة كهانهم فهو طراز متفرد، له سحره البياني، بل له إعجازه الذي انقطعت آمال العرب دونه في محاكاته، أو الإتيان بشيء من مثله، وقد تحدّاهم جلّ وعزّ أن يجمعوا أمرهـــــم وكيدهم فيأتوا بجزء من مثله، فعجزوا وذلوا، قال تعالى:﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾**سورة الإسراء الآية (88)**.

وكان من الطبيعي أن يستكين العرب أهل الفصاحة و البيان أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة، ذروة جعلت العرب يقفون مشدوهين حيارى أمام صرحه الشامخ، يخرّون ركعا وسجدا مبهورين بجماله، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ **سورة الزمر الآية** (23) وقال أيضا: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾**سورة الحشر الآية** (21).

ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختلج في صدور العرب الأولين، تخفق به القلوب في كـــل عصر، لما يفتح من آفاق العالم العلوي والسفلي، ولما يؤثر به في صميـــم الوجدان الروحي، وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعرا ولا نثرا مسجوعا، وإنما هو نظم بديع، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس وتستكين لها الروح، وتتنوع هذه الفواصل بين- طوال وقصار ومتوسطة- بتنوع موضوعاته و التي تناسب حال المخَاطَبين،

فقد كان يغلب عليه الإيجاز، و الإشارة في بداية الدعوة قبل الهجرة، حينما كان الإسلام يدعو إلى عبادة الله و نبذ الفكرة الوثنية والحث على الإيمان بالبعث والنشور، فلما انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، غلب عليه البسط والإطناب لبيان نظم الشريعة، وما تقتضيه مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة، فقد نهل أهل العلم من كنوز عرفانيته ولا يزالون، إنه البحر المتجدد الذي لا ساحل له، والمستمع لآيات القرآن ينجذب لمقاطعه وفواصله، فيتذوق نغما لا عهد للآذان بمثله، ناهيك عن سحر بيانه، فكم كنا نرتل آياته ولا نزال، لكن منذ الصغر تولدت في مكامني و جوانحي رغبة ملحة، وأمنية جذبتني وهي أن يكرمني الله بالبحث في سر حلاوة هذا الكلام الرباني وذوقيته العجيبة، وخطابه الذي يأسر القلوب و العقول، وكبرت معي الفكرة وكان ميدانها الدراسات العليا، فوقع اختياري على جوهرة نفيسة من سور كلام رب العالمين، وكان الغرض من ذلك تلمّس مكامن الجمال المقنع الممتع وتحقيقا لتلك الرغبة القديمة، عساني أجد تفسيرا لهذه الروعة الباهرة أَشفي وأَروي بها عطشي، خاصة أن القرآن الكريم كتاب جامع مانع فهو بالإضافة إلى أنه كتاب تعبد وتقرب من الله عز وجل، نجده يحوي مظاهر الجمال في لغته وخطابه، فما هي هذه المستويات الجمالية ؟ وكيف يمكن الوصول إليها ؟.ولعل الوقوف عند هذا الطود الشامخ يجعل من بصري خاسئا حسيرا، لكن البصيرة بعون الله تمد البصر، وما توفيقي إلا بالله.

ولقد حاولت في هذا البحث التنقيب عن مكامن الفتنة الجمالية الذوقية للقرآن الكريم محاولا تبرير ذلك بما فتح الله علي، و بالإستعانة من أمداد علوم من سبقوني في هذا الميدان أمثال أصحاب المدونات التفسيرية، كالزمخشري صاحب الكشاف، و الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير، وسيد قطب صاحب الظلال، و الشعراوي في تفسيره وغيرهم كثير...، إضافة إلى كتب الإعجاز

كالباقلاني صاحب إعجاز القرآن، والرماني صاحب النكت في إعجاز القرآن، والجرجاني صاحب دلائل الإعجاز، وغيرهم ممّن تحدثوا في علوم القرآن كالزركشي صاحب البرهان، و السيوطي صاحب الإتقان، مع الاستعانة بدراسات المحدَثين في هذا الميدان كبكري شيخ أمين صاحب التعبير الفني في القرآن، وأمين الخولي صاحب فن القول، وأحمد الشايب وسِفره الأسلوب.

ولقد نهجتُ في هذه الدراسة، منهجا تحليليا وصفيا، يتماشى مع الخطة المرسومة، التي اشتملت على:

مدخل: عرّفت فيه الجمال مشرقا و مغربا، وبحثت في فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية، وعلاقة الجمال بالخطاب، ثم عرّجت على الجمال والقرآن.

أما الفصل الأول: فكان محطة للوقوف على جماليات الأسلوب الأدبي وذلك بتعريف الأسلوب عند علماء الغرب والشرق و النقاد العرب المحدثين، وخلصت إلى خصائص الأسلوب القرآني مع إبراز بعض النكت الأسلوبية الجمالية في هذه الخصائص.

أما الفصل الثاني: فكان عبارة عن دراسة تطبيقية، لسورة النور، التي حاولت من خلالها تتبع جوانب الخطاب الجمالي في هذه الجوهرة القرآنية المملوءة بالأحكام والتشريعات التربوية التي تخص بناء الفرد والأسرة المسلمة، حتى يتكامل صلاح الأمة لتسير بنور الله وتتلقى خطاب المولى بحسن إفادة و متعة دنيوية وأخروية، ولكي تتم المعالجة الجمالية والأسلوبية للموضوع، كان من الضروري تقسيم السورة إلى محاور كبرى، تنطوي تحتها عناصر فرعية وذلك ليسهل تناول

السورة و التحكم في موضوعاتها، إذ أن كل مـــوضوع يبتغي أسلوبا وذوقا معينا، فغاية آيات كتاب الله الكريم تهيئة النفوس لحسن التلقي عن الله.

ومن النتائج التي استشرفتها في هذه الرحلة البحثية:

- أن ذائقة القرآن الكريم تتسع كلما توغلتَ عقلا ووجدانا في مجالِي الخطاب الرباني، ولو تسلّحتَ بشتى العلوم وركبتَ كل المناهج، تجد الأسرار تغمركَ من كل جانب وتبقى مبهورا بالحسن والجمال.
- يعتبر اللسان العربي خير ترجمان لهذه الأنوار والأسرار، فهل من مذّكر؟، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ **سورة محمد الآية (24)**وقال أيضا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ **سورة الكهف الآية (109)**، إنه القرآن الذي لا تنقضي عجائبه.
- القرآن الكريم كخطاب تشريعي مؤثر مقنع جذاب، لأنه يصدر عن رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى.

ومن باب الاعتراف بالجميل وشـــكر النعمة، أقدّم خـــالص العرفان و الشـــكر الجـــزيل إلى أستاذي المشرف كريب رمضان، الذي أخـــذ بيدي لإنجاز هـــذه المهمة، وأقـــرّ من حنايا الوجدان وخالص الضمير بعظيم التشكرات لرئيس المشـــروع، أستاذي طول محمد الذي لم يبخل بتـــوجيهه وتـــصويبه لإنجاح هذا المشروع وخدمة للعلم وكتـــاب الله عز وجـــل، كما أهيب بجليل العرفان لأساتذتي الذين أناروا لي سبيل الرشاد، فما عساني أقول لورثتة الأنبياء؟ جزى الله سعيكم وأمدّكم بموفور الصحة والعافية.

المدخل

المدخـــــــــــــل:

مفهوم الجمال

1- ماهية الجمال بين الغرب والشرق

2- فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية

3- التجـربـــة الجماليـــة في الأدب

4- بيـــن الجـمـــال والخطـــــاب

5- الجـمـــــال و القـــــــرآن

- **ماهية الجمال بين الغرب و الشرق :**

إن النظرة المعجمية للجمال ترتكز في أغلبها على أنـــه الحُســـــنُ و الروعة في المحسوسات و المجردات ، إذ نجد صاحب لسان العرب يذهب إلى أن : "الجَمَال مصدر الجَمِيل و الفعل جَمُل ، و قوله عز وجل : (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[1] ، أي بهـــاء و حسن، ابن سيده الجَمَال الحسن يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجُل بالضم جَمَالاً فهو جَمِيل و الجُمَّال بالضم و التشديد أجمل من الجَمِيـــــل وجَمَّله أي زَيَّنه و التَّجَمُّل تَكَلُّف الجَمِيل و امرأة جَمْلاء وجَمِيلة و هو أحد ما جاءَ من فَعْلاء لا أَفْعَل لها قال وَهَبْتُه من أَمَةٍ سوداء ليست بِحَسْنـــاء ولا جَمْلاء .

و في حديث الإسراءِ ثم عَرَضَتْ له امرأة حَسْناء جَمْلاء أي جَمِيلة مليحة ولا أَفعل لها من لفظها كدِيمة هَطْلاء و في الحديث جاءَ بناقة حَسْناء جَمْلاء قـــــال ابن الأَثير: و الجَمَال يقع على الصُّوَر والمعاني ومنه الحديث إِن الله جَمِيل يحب الجَمَال أَي حَسَن الأَفعال كامل الأَوصاف ... "[2]

"و الجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم أستعمل في الصور، وأصل الجمال في العربية العظم، و منه قيل الجملة لأنها أعظم من التفاريق، والجمل الحبل الغليظ و الجمل سمي جملا لعظم خلقته ، و منه قيل للشحم جميل لعظم نفعه."[3]

و جاء الخبر نفسه في أساس البلاغة للزمخشري" أن جمل فلان يعامل الناس بالجميل، وجامل صاحبه مجاملة، وعليك بالمداراة و المجاملة مع الناس، ونقـــــول: إذا لـــــم يجمـــــــّلك مالك، لَمْ يُجِدْ عَلَيْكَ جمالك ، و أجمل في الطلب إذا لم يحرض ، و إذا أصبت بنائبة فتجمل أي اصبر. و جمل الشحم أذابه و اجتمل

---

1 ــ النحل: الآية 06.

2– ابن منظور: لسان العرب، مادة (جمل)، ج1، إعداد ،يوسف خياط،دار الجيل ، بيروت، د،ط، 1988، ص 503.

3– أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ج1، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991، ص 166.

وتجمـــل : أكـــــــل الجميل وهو الودك ، و ناقة جمالية : في خلق الجمل ألا ترى إلى قوله: كأنها جمل وهم ضخم ورجل جُماليٌّ : فطيم الخلق ضخم"[1].

أما في كتاب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة فقد وردت كلمة "جمل" و جمع أجمال ، و جَامل و جُملٌ بالضمّ و جِمال – بالكسر – و جمالة – و جميلات مثلثين و جمائل ، و أجامل و الجامل: القطيع منها بِرعاته وأربابـــه : أو القطيع من النوق... و الجميلُ: الشحم الذائب، و استجمل البعير: صار جملا، و الجمالـــة مشـــددة: أصحابهـــا و ناقـــة جُمالية بالضمّ : وثيقة.

و الجمـــــال: الحســـن في الخلـــق و الخلـــق و الجملاء : الجميلة التامة الجسم من كل حيـــوان و تجمـــل : تزيـــن – و أكل الشحم المذاب[2].

إذن فمـــدار الجمـــــــال معجميا سواء في لسان العرب أو أساس البلاغة أو تـــرتيب قامـــوس المحـــيط و غيره على أنه الحسن في المدركات بعين البصر ، أو المدركات بعين البصيرة .

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع الجمال قد حظي باهتمام الفلاسفـــة و المفكرين و الشعراء و أرباب الفنون منذ القدم ؛ و ذلك لارتباطه بأعمق الأحاسيس الإنسانية ، و لتأثيره الكبير على رؤى و أفكار الإنسان ، و تبعا لذلك فإن تحديـــــد ماهية الجمال وتشريحه ــ إن صح التعبير ــ يحتاج إلى دراسة عميقة و متأنية تتجاوز غرض هذه الأطروحة.

و إذا أردنا الاستئناس بآراء القدامى لتحديد ماهية الجمال نبدأ بالغرب لأنه كان سباقا لإثارة مثل هذه المواضيع و الإشكالات ؛ فيطالعنا أفلاطون بوجهة نظر محلقة في عالم المُثل إذ " يفترض وجود مثال للجمال أو يرى أن العمل الفنّي نقل ومحاكاة، وأن الجمال في المثال جمال مطلق، أما في الأشياء فهو نسبي – و تكون الأشياء جميلة عندما تكون في موضعها ، و قبيحة عندما تكون في غير موضعها،

---

1 ــ الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة، ط5، 1973، ص 64.

2 ــ ينظر الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، ج1 ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، (د،ت) ط1979، ص 531.

ولكن الأشياء لا تنقسم إلى قسمين جميلة وقبيحة ، بمعنى أن ما ليس جميلا لا يكون قبيحا حتما، إنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء عن كلا الوضعين ، و مثال ذلك غير العالم لا يكون حتما جاهلا، وإنما هو وسيط بين طرفين متناقضين "[1] ، فالنظرة الأفلاطونية ترى في عالم المثل الجمال المطلق الذي ينبغي لكل ناشد للجمال أن يحاكيه ، فالجمال و القبح في هذه الرؤية يحدده عالم المثل، فبقدر اقتراب المحسوس و اللامحسوس إلى المثال بقدر ما يكون جميلا و العكس بالعكس .

أما أرسطو فيرجع جمال العمل الفني إلى قدرته على جعل المتلقي يشعر بعمق أنه أمام عين الحقيقة و ليس مجرد تقليد للمثال فـــ " السبب في أن الناس يستمتعون برؤية الشبيه هو أنهم بتأملهم فيه يجدون أنفسهم يتعلمون و يستنبطون الأفكار، وربما يقولون آه هذا هو؛ ذلك لأنه إذا حدث أنك لم تر الأصل فإن المتعة لن يكون سببها التقليد وإنما هي ترجع إلى الإتقان أو اللون. " [2]

فأرسطو يرى في مهارة الفنان و قدرته على الصياغة و التشكيل و إنزال المثال إلى أرض الواقع أساس الإنتاج الجميل لدى الفنان ، فالاختلاف بين أفلاطون و تلميذه أرسطو ، هو أن أرسطو أنزل عالم المثل إلى الأرض فخلق بذلك جدليـــــــة بين الإنسان والطبيعة أساسها التأثير و التأثر ، فالمنطق الأرسطي يقول : " كل شيء في الوجود هو محاكاة لمثال لا تقع عليه العين ، و كل عمل فني هو محاكاة لعمل جميل موجود ، أو متصور تقـــع عليه العيـــن، أو يجلوه له الفكر أو يصوره له خياله وليس جمال الحياة قائما على جمال الموضوع ، فالجمال والقبح من مظاهر الطبيعة والحياة ، يمكن أن يمُدا أهل الفنّ بموضوعاتهم حتى يكون هناك جمال الجمال، أو جمال القبح، فيبدو الجميل أجمل مما هو، والقبيح أشد إثارة واشمئزاز "[3].

---

1 ــ عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر، ط 3 ، 1974 ، ص 37 .

2 ــ عز الدين إسماعيل :الأسس الجمالية في النقد العربي ، المرجع نفسه ، ص 58 .

3 ــ مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر 1988 ، ص 59 .

ومهما يكن من شيء فإن الفنان يصور الشيء إما من أجل ترغيب المتلقي فيه و ذلك هو الجميل و الخيّر ، و إما من أجل التنفير منه و ذلك القبح و الشر [1] .

و من قبل أفلاطون و أرسطو نجد أن سقراط أخضع الجمال لمبدأ الغائية، وبات الـــشيء الجميل عنده ما كان له فائدة للإنسان ، والرائع في الفن ما كان نافعا " ... وأن موقع حسن الشيء من الروعـــة ما تناسب غاياته مع غاية النفـــع التي تصيب الإنسان ، على حين أن القبيح و الرديء هما لا جدوى منهما ولا نفع " [2].

و إذا تركنا أرض الإغريق جنوبا باتجاه منبع التراث العربي فنجد في كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب " بأن الجمال إحساس سار ، كل ما يسر النفس من طريق الحواس الخمس ، ولا سيما العين و الأذن هو جميل ، و الجمال خصال مدركة بالحواس ، و بخاصة هاتين الحاستين معا أو منفردتين من شأنها أن تسرّا النفس " [3].

و قد ارتبط الجمال عند الجاحظ بالمنفعة إذ يصف حسن النار بالقول : "... وكيف حال النَّار في حسنها ، فإنّه ليس في الأرض جسمٌ لم يصبغ أحسن منْه ، ولَوْلاَ معرفتهُمْ بقتْلها و إحْراقِها وإتلافها ، و الألم و الحُرْقةِ المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْن عِنْدَهُمْ ، و إنَّهم ليَرَوْنَها في الشِّتاءِ بغير العُيونِ التي يرونَها بها في الصَّيف ، ليس ذلك إلاَّ بقدْر ما حدَثَ من الاستغناءِ عنها "[4] فنظرة الجمال في التراث العربي نظرة موضوعية يلعب البصر و السمع ركيزتا استشعاره ، لهذا كان التركيز في القرآن الكريم ــ المنزل بلسان عربي مبين ــ على عرض الطبيعة بمختلف مظاهرها عرضا يشبع السمع و البصر ، فقد نفخ الله تعالى في الكلمة

---

1 ــ ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، السنة الجامعية : 1993 – 1994 ، ص 39 .

2 ــ كريب رمضان : بذور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، الجزائر ، د.ت ، د.ط،ص16.

3 ــ عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت د.ت ، د.ط ، ص 487 .

4 ــ الجاحظ : الحيوان ، تح :عبد السلام هارون ، ج4 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1 ، 1952 ، ص96.

القرآنية من روحه كما نفخ من قبل في آدم و عيسى عليهما السلام ، فإذا الكلمة حية تسعى .

و يضيف الغزالي إلى بعد المنفعة بعدا آخر ، إذ يرى أن " ... كل جمال محبوب عند مدرك الجمال و ذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمـــال فيه عيـــن اللـــذة ، و اللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها، ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، و إدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته ، و كيف ينكر ذلك و الخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب المـــاء و تؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ " [1] .

و لاشك أنه حين تقضى الحاجات المادية يتكون الإحساس بالجمال لذاته .

و إذا كان أفلاطون يرى في عالم المثل المعيار المطلق لكل جمال ، فإن الرؤيا العربية الإسلامية تذهب إلى أن الله عز و جل هو مصدر كل جمال و حسن يقول أبو حيان التوحيـــدي في معرض حديثه عن صفات الله تعالى " ... هي من الحسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنها هي سبب حسن كل حسن وهي التي تفيض بالحسن على غيرها ، إذ كانت معدنه ومبدأه ، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن و الجمال والبهاء منها وبها" [2] .

و ينحو الغزالي نفس النحو حين يقـــول " ... بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول و الأبصار و الأسماع و ستائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه و من ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته و لمعة من أنوار حضرته. " [3] فالجمال إذا هو الجمال الإلهي، وهو من صفات الله الأزلية ، و العالم كله كمرآة انعكس على صفحتها هذا الجمال السرمدي .

---

1 ــ الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1986 ، ص306 .

2 ــ التوحيدي: الهوا مل و الشوامل ، تح: أحمد أمين و أحمد صقر، لجنة التأليف و النشر و الترجمة، القاهرة ، ط1،1952، ص43.

3 ــ الغزالي :إحياء علوم الدين ، المرجع السابق ، ج2 ، ص117 .

و إذا اتجهنا إلى الدراسات الحديثة التي عنيت بالجمال نجد اتجاهات شتى وآراء متعددة ، فويكلمان (Wikelman) يرى " أن الجمال صفة تطلق على كل ما يعطي لذة منزهة عن الغرض، فهو كالمياه الصافية المستقاة من عين صافية ، و هي تكون صالحة للشرب كلما كانت خالية من الطعم ." و قريب من هذا ما قاله شارل لالو (Charles Lalo) " الجمال هو إشباع منزه عن الغرض، هو لعب حرّ واتفاق لملكاتنا أي توافق بين خيالنا الحسي ، و بين عقلنا"، فالنشوة المنزهة عن الغرض هي عين الجمال، و ثمة من يرى أن الجمال ينشأ من داخل المحسوسات أو المجردات ، إذ يعزف كانط (Kant) على هذا الوتر فنجده : " يلح على أن تشكل العمـــل الجمالي بقوانينه الداخلية الخالصة ، هو العامل الوحيد في الحكم عليه بالجمال و القبح ، و عنده أن الجميـــل هو الذي يكون ممتعا بالضـــرورة وبصورة كلية و شاملة ، دون مفهوم ، و هذه المتعة مقطوعة الصلة بأية فائدة مهما كانت" [1]، بينما نجد من يجعل الشعور بالرضى هو الحَكَم بين الجمال و القبح نجد ذلك مثلا عند وليام – ك ، م (William) فيرى : "أن الشعور بالرضى في حضرة الجمال هو شعور بالاتحاد و بالتفاعل المتناغم بين الإحساس و العقل و هو التحرر الكامل من الضرورة العملية والنفعية"[2]. و يتفق معه هيوم (Hyoum) في ذلك إذ يرى " أن الجمال هو انتظام الأجزاء و تناسقها إما بفعل طبيعتها الأصلية أو بفعل التعود ، أو بفعل الرغبة و بشكل يعطي لذة ورضا نفسيا "[3] .

و قريبا من ذلك يذهب رتشاردز(Richardz) بالقول : " إن الجمال تجربة أو حال في الجمهور و انه ليس " شيئاً " غامضاً كامنا في العمل الفني نفسه"[4].

من خلال ما سبق ذكره نلحظ صعوبة الاتفاق على معنى موحد لماهية الجمال و ذلك الشأن في كل ما يتعلق بأعمق مشاعر الإنسان كالحـــــب و البغض

---

1 ــ مجلة عالم الفكر : العدد 1 ، وزارة الإعلام ، الكويت ، سبتمبر ، 1998 ، ص 110 .

2 ــ وليام ك،م : تاريخ موجز النقد الأدبي، تر: حسام الخطيب ، ج3 ، ط1 ، 1975 ، ص 539 .

3 ــ نونكس : النظريات الجمالية – تح: محمد شفيق ، بيروت ، ط1 ، 1985 ص46 .

4 – ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر: إحسان عباس، ج2، دار الثقافة، بيروت ، ط1، 195، ص119 .

وغيرها، فالجمال مرتبط بالجانب الذاتي بمعنى أن كل فرد يقوم بتحديد مقاييس الجمال الخاصة به و بالتالي فهو يستمتع بالجمال من وجهة نظره التي تختلف مع غيره ، بمعنى أن الجمال ليس صفة مطلقة بل هو نسبي، وبالتالي فلا يمكن تحديده.

- فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية :

جاء لفظ الجمال في القرآن في مواضيع كثيرة نذكر منها:

قـــال تعالـــى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ) "[1].

وقال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) "[2] .

وقال تعالى : (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)[3].

وقال تعالى: (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)[4].

وقال تعالى : (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا)[5]

وقال تعالى : (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا)[6].

وقال تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا)[7].

نجـــد في كتاب فروق اللغة لأبي هلال العسكري : " إن الجمال هو ما يشتهر و يرتفع به الإنسان من الأفعال و الأخلاق و من كثرة المال و الجسم "[8].

و في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي "ورد أن لفظ الجمال بمعنى الحسن و ما اشتق منه ، ذلك أن الجمال يستعمل في موضع الحسن فيقال : وجه

---

1 ــ سورة يوســـف : الآية 18.

2ــ سورة النحـــل : الآية 6.

3 ــ سورة الحجـــر : الآية 85.

4 ــ سورة الأحـــزاب : الآية 28.

5 ــ سورة الأحـــزاب : الآية 49.

6 ــ سورة المعـــراج : الآية 5.

7 ــ سورة المزمـــل : الآية 10.

8 ــ أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة ، المصدر السابق ، ج1، ص 257 .

جميل ووجه حسن و أن فلانا حسن أو جميل ولا تراد صورته ، و إنما يعني جميل الأخلاق"[1].

و يتجلى لنا من خلال ذلك أن لفظة الجمال من الجانـــــــب الإسلامي تعني حسن الشيء أو الخلق أو ما اتصف بالصفات الحسنة و منه قوله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) ، "[2]. و اقترنت لفظة الجمال بمعنى الخلق في قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) "[3].

و من ثم يتضح لنا مفهوم الجمال في القرآن الكريم بمعنى الشيء الظاهر للعيان و المثير للإحساس ، و الذات الإنسانية تجد في خالقها ما يرضيها و يجتذبها إليـــــــه و يحسن إليهـــا ، و الفلاسفة القدمـــاء تعرضوا في نظرياتهم الشعرية إلى فن الشعر الموسيقي كأرسطو و سقراط و أفلاطون ، حيث أضافوا فيها نظرية المحاكاة اليونانية إضافات مهمة إلا أنهم لم ينصرفوا إلى نظرية الجمال عند العرب[4].

نطالع في كتاب إخـــوان الصفا و خلان الوفـــاء " أن المهـــــارة في أي عمـــل – ما هي إلا محاولة التشبه بالخالق الكريم"[5].

ونحاول عرض مفهوم الجمال عند مفكري و علماء الإسلام الذيـــن أعطوا مفاهيـــم مختلفـــة و تصورات للجمال ، حيث ذهب كريب رمضان إلى أن الجمال لم يبلور في نظرية عند العرب ولم يتخذ أبعادا حقيقية من شأنها أن تجليه و تعمقه ، فقد ظل مفهوما بسيطا ، إذا لم نقل ساذجا، أما جهود الفلاسفة في دراسة نظرية المحاكاة و إضافاتهم فتكاد تكون شروحا و هوامش لا تمس جوهر الأشياء إلا في النادر[6].

---

1 ــ مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر ، 1988 ، ص74.

2 ــ سورة السجدة : الآية 7.

3 ــ سورة النحل : الآية 6.

4 ــ ينظر مجلة الوحدة : المرجع السابق، ص74 .

5 ــ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، ج1 مطبعة موفم ، الجزائر ، 1992 ، ص 350 – 377 .

6 ــ ينظر كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص 50 .

وأبو حامد الغزالي يؤكد تفاعل الحواس مع القلب والعقل بقوله:" يدرك الجمال الحسّي بالبصر و السمع و سائر الحواس أما الجمال الأسمى فيدرك بالعقل و القلب أما إن كان الجمال يتناسب مع الخلقة و صفاء اللون فإنه يدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال و العظمة و علو الرتبة ، و حسن الصفات و الأخلاق ، وإرادة الخيرات لكافة الخلق و إفاضتها عليهم على الدوام فيدرك بحاسة القلب"[1]. ويرى أن القلب أشد إدراكا من العين ، فالقلب يدرك الأمور الشريفة الإلهية و أن المثل الأعلى للجمال هو الله ، و جمال الله سبحانه أكمل الجمال[2].

فـــالملاحظ أن إدراك الجمال عند أبي حامد الغزالي يتجلى عن طريق الحواس ، إذا ارتقـــى يدرك عن طريق القلب و إذا اشتمل على عناصر موضوعية يدرك عن طريق العقل .

أمـــا تصور الفرابي للجمال فيتجلى من خلال قوله:" الجمال و البهاء والزينة فـــي كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ، و يبلغ استكماله الأخير ، و إذا كان الأول وجـــوده أفضل الوجود فجماله إذن فائق لجمال كل ذي جمال ، و كذلك زينته وبهاؤه و جماله بجوهره و ذاته و ذلك في نفسه و بما يعقله من ذاته"[3].

فالفرابي يوضح بإجلال بأن الخالق هو الأول و جماله فوق كل جمال و هو لا يمايز بين لفظ الجمال و البهاء و الزينة فالكل في نظره واحد .

و الغزالي يؤكد " أن لا خير ولا جمال و لا محبوب في العالم إلا و هو حسنة من حسنات الله و إلا آثار من آثار كرمه ، و غرفة من بحر جوده، سواء أُدرك هذا الجمـــال بالعـــقـــــــول أو بالحواس ، و جماله تعالى لا يتصور له ثان ، لا في المكان و لا في الوجود"[4].

---

1 ــ علي شلق : الفن والجمال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د.ت، د. ط ، 1974 ص 74 – 75 .

2 ــ ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع نفسه، ص 75.

3 ــ الفرابي : كتاب السياسة ، تح : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، د.ط ، 1964 ، ص 46

4 ــ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ،ج 4 ، المصدرالسابق ، ص 254 .

و هذا القول يلتقي مع ما جاء به القديس أوغسطين في قوله:" أن الله هو الفنان العظيم الذي يعطي الشكل و الجمال و النظام كل شيء بحسب قوانينه الخاصة إن الله حقيقة كل جمال بل أعظمه"[1].

فجمال الله في نظر هؤلاء جمال نقي صافي ، و لا تصور له ، و أن الله هو الذي يعطي الشكل و النظام ، و الجمال.

إن فلسفة الصوفيين المسلمين رأت أن الإنسان في إمكانه أن يتقرب إلى الله روحيا عن طريق الحياة المتقشفة و النسك و تنقية الروح من كل الشوائب الدنيوية ، و تقرب الإنسان من الله تقربا يجعله يعرف الجمال الأصيل المتمثل بالجمال الأعلى معرفة حقا ، و يكتشف أن جمال العالم المادي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي[2].

و من هنا تظهر أوجه التشابه بين الفلسفة الإسلامية الصوفية و الفلسفة الأفلاطونية اليونانية في فهم الجمال التي ترى أن الجمال الحقيقي ما هو إلا انعكاس للجمال الإلهي، فهم يركزون على الجانب الحسي في فهم الأشياء وتأويلها إلى خالقها كما كان يراها أفلاطون وغيره.

و النتيجة العامة التي نستخلصها من النصوص السابقة هو أن نظرة الفلاسفة المسلمين للجمال تمثل موقفا دينيا ، و الجمال عندهم يدرك بالحواس و يقع في المحسوسات ، و الجمال يرى بالعين و يدرك بالعقل و القلب و يدعون إلى السمو والرفعة عن الأشياء المادية و التعلق بما هو أعلى و أعظم وهو الواحد الأحد الأزلي، و يتجردون من كل ماله علاقة بالمادة أو ملذات الحياة الدنيوية .

- التجربة الجمالية في الأدب :

إن ثمة علاقة جوهرية بين الجمال و الأدب - باعتباره أحد الفنون - حتى إن بعض الدارسين يعرفون الأدب بأنه نشاط لغوي يستهدف توكيد الحياة التي تحدث متعة جميلة ، " ربما متأثرين بنظرة كانط (Kant) المتوفى سنة (1804م) الذي قرر أن الفن عمل يهدف إلى المتعة الجمالية الخالصة ، أي أنه حر لا غاية وراءه

---

1 ــ نيكون أوفسيا : موجز تاريخ النظريات الجمالية ، ترجمة: باسم السقا ، دار الفرابي ، بيروت ، ط 2 ، 1979 ، ص 76 .

2 ــ ينظر علي شلق : الفن والجمال ، المرجع السابق ، ص 94- 95 .

سوى اللذة الفنية ، و ربما كان هذا هو المعنى الذي خلص إليه بعض أدباء العرب حين قالوا :" إن الشعر أنفذ من السحر" و كان الرسول ﷺ قد قال : (إن من البيان لسحرا)[1]*.

" و إننا نكاد نجد اتفاقا على أن التجربة الجمالية لا يمكن أن تكون جمالية ، حتى تتحرر من الشواغل المادية و الإيديولوجية الملحة ، أي توفر صفة اللانفعية التي تقضي أن تتوجه الذات إلى موضوعها دون رغبة في استهلاكه المادي أو تخديمه العملي أو الإيديولوجي"[2].

غير أن الجمال لا يتناقض مع المنفعة ما دامت المنفعة مشروعة ، إذ يمكن أن تساهم التجربة الجمالية في الأدب الراقي في توجيـــه النـــاس نحـــو المنافـــع المشتركة فيقضى بذلك على الأثرة و الأنانية التي شوهت وجه العالم .

" إن التجربة الجمالية ، عالم قائم بذاته و تصدر من موقف حسي انفعالي مصوغ بشكل مجازي تخييلي ، و من وعي جمالي يتعامل مع الواقع من خلال المثـــل الأعلى للجمال في الفرد و المجتمع "[3].

" و في التجربة الأدبية تتجلى ثلاث مستويات :

1- مستوى مادي ، لأن بها مكونات حسية مدركة .

2- مستوى نفسي و يتصل بها مكونات حسية .

3- مستوى واعي وهو الخاص بعملية التنظيم و التحديد و الحصر" [4].

---

1 ــ أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، دار النهضة العربية ، بيروت، د ط، 1981، ص 76 .

* (رواه الترمذي وأبو داود)، أنظر "موسوعة الحديث الشريف" الإصدار الثاني، شركة صخر لبرامج الحاسب، 1997 السعودية.

2 ــ سعد الدين كليب: مجلة الموقف الأدبي شهرية يصدرها إتحاد الكتاب العرب ، العدد294، دمشق ، تشرين الأول ، 1995 ، ص 71 .

3 ــ المرجع نفسه : ص 78 .

4 ــ سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، سنة 1984 ، ط 1، ص 56 ــ57 .

و يضيف إلى ذلك ريني ويليك (René Wilik) شيئا آخر " ليست المسألة أن تعرف أية عناصر بل و كيف وضع بعضها مع بعض ، ولأية وظيفة – لأن هذا يحدد ما إذا كان عمل من الأعمال أدبيا – أم ليس أدبا " [1].

فعلاقة الأدب بالجمال تبرز من خلال التوازن الصوتي و الإيقاعي الخلاق ، وبالتركيز على الصور البلاغية التي ترسم خلجات النفس و صدى الطبيعة ، فالأديب في تجربته الفنية يستخرج أجمل ما في الطبيعة من محاسن ، و أفضل ما في النفس من مشاعر .

" وأما الشاعرية فهي فنيات التحول الأسلوبي وهي استعارة النص لتطور الاستعارة الجميلة، حيث ينحرف النص عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي وهذه سمة لأي تعبير بياني، وأما القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها فإنها لا تشكل القيمة الحقيقية للتجربة الأدبية " [2].

و يؤكد كانط (Kant) " أن الذوق هو دائما مادة الشعور بكل ما نبصره أو نسمعه أو نتخيله، وهو يصدر حكمـــــه بالرضى أو بعدم الرضى على موضوع ما مبتعدا ما وسعه عن الهوى ، و متفتحا في الوقـــت نفسه على الكمال و المثال دون أية محاولة لجعل الجميل كاملا أو مثاليا ، و إنما حسبه أن يكون سبيلا إلى تصور مثال الكمال على أي حال ، و على هذا النحو يكون أمامنا متذوق و موضوع له مادته و متعته الفنيـــة ، و كلها تتعاون على إصدار الحكـــم الجمالي الذي لا يمكن أن يكون متعسفا ، و الذي لا يتحرر فقط من موضوع العمل الأدبي " [3].

" فالتجـــربة الأدبـــيـــة تجـــربة لغة ، و عند الأديب تصبح اللغة وسيلة للتعبير والخلق بموسيقاه و ألوانه و فكره ، و مادته التي سوى منها كائنا ذا ملامح وسمات، كائنا ذا نبض و حركة " [4].

---

1 ــ محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط، 1975 ، ص 31 .

2 ــ محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 32 .

3 ــ أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ،المرجع السابق، ص 78–79 .

4 ــ عبد الله الغذامي : الخطيئة و التكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة السعودية ، ط1، 1985 ، ص 24.

و من تم نجد أن الخطـــاب اللغوي صنع من فضاء التشبيه و الاستعارة فضاءا للصورة المكثفة ، بينما كانت الاستعارة تقوم على التشابه المنطقي بين شيئين ، فقد أخذت الصورة الآن تدور في فلك المجاز الذي يتجاوز المنطق و الخضوع للعقل ويدخل في ملكة الغرابة و الغموض، فيصير أصابع سحرية يراقص الأشياء ويلتقطها و يحولها كما يشاء فيبعث الحياة في النفوس الجامدة ، و يؤجج العواطف الميتة ، و ذهب أدونيس للقول : " و في الإبداع الشعري يصل غنى هذه اللغة إلى أوجه و تصبح غاية شاسعة كثيفة في الإيقاع والإيحاء و التوهج لا حد لأبعادها"[1].

" ففي التجربة الجمالية لا يمكن أن تظهر الذات بدون موضوع و لا الموضوع بدون ذات ما دام الشيء واحدا ، هذا التوحد ، بينهما يعد ملمحا أساسا في التجربة الأدبية ، حيث يحدث تفاعل بينهما نتيجة التأمل العميق ، و كل هذا يتم بواسطة المخيلة " [2].

" فالشاعر في تجربته يعبر عن رؤية شمولية للحياة ، و مفاهيم محددة عن الإنسان و موقفه من الحياة و الواقع ، و أما الذوق فهو في الأصل ملكة تدرك بها طعوم الأشياء ، و اصطلاحا أداة الإدراكات التي تثير في نفس المتذوق لذة فنية ، وقد تحدث عنه ابن خلدون في المقدمة ، فقرر أنه حصول ملكة البلاغة للسان فكما أنه حسيا علاج الأشياء باللسان للتعرف على طعمها تعالج الأشياء فنيا ، بالنفس للتعرف على ما فيها من جمال ، فهو بإيجاز القوة التي يقدر بها الأدب من حيث هو فن " [3].

و مهما تغيرت أفكار العصر و قيمه فلن تتغير القيم الأساسية للعمل الفني ، فقد نرى الأدباء في عصرنا الحاضر يهتمون بعالم الفن و السياسة و يشاركون في أحداث العصر ، و يدعون إلى توجيه الأدباء نحو المجتمع ، و إلى المساهمة بجهودهم في تغيير الواقع الذي هم عليه ، و لكن هذا كله لا يعني أن اختيار

---

1 ــ أدو نيس: مقدمة الشعر العربي ، دار القلم ، بيروت ، ط5 ، 1986 ، ص 108.

2 ــ كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، المرجع السابق ، ص93 .

3 ــ أحمد كمال زكي :النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، المرجع السابق ، ص 77.

موضوع معين يتصل بالسياسة أو المجتمع أو قضية من قضايا الوطن يبتعد عن كونه عملا فنيا .

" فاللغة هي وسيلة الأديب للتعبير و الخلق ، و هي موسيقاه و ألوانه و فكره ، و المادة الخام التي سوى منها كائنا ذا نبض و حركة و حياة و ملامح و سمات ، كائنا أبدعه الشاعر أو القصاص أو المسرحي من ذاته كائنا يحمل صورة حية ، كما يحمل الحجر صورة نابضة لتمثال بارع، فكذلك اللغة في يد الأديب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية ، ذلك هو معنى الإبداع الأدبي ، إنه سيطرة الأديب على اللغة بما يضفيه عليها من ذاته وروحه " [1].

فالتجربة الجمالية في الأدب خلق و إبداع ، و تفجير لطاقات النص من أجل خلق وعي جمالي منسجم مع الكون و الحياة و الإنسان ، ذلك الانسجام الذي نجده في حنايا الكون و قلب الطبيعة .

- بين الجمال و الخطاب :

إن الكلام عن علم الجمال يعني أيضا الحديث عن موقف الإنسانية من خالقهـــا، و من ذاتهـــا و من الكون المحيط بها ، فغاية علم الجمال هو إعادة بناء العلاقات بناءا جماليا ، ينسجم مع الجمال المطلق ، و حينها يكون علم الجمال " مجموعة الأدوات المعرفية التي تمكن صاحبها من دراسة المواقف التي يتخذها الإنسان من مظاهـــر الكـــون و المجتمع في إطار العقيـــدة الدينية ، و يعبر عنها في أشكال متعددة تمتد من سلوكه اليومي البسيط إلى أنواع الفنون في إطار المجتمع و التراث"[2].

فعلم الجمال مرتبط بالجانب الذاتي عند الإنسان و لكل فنان أدواته التي يبرز بها تجربته الجمالية التي ما هي في الحقيقة إلا نشدان للكمال في عالم الفن ، والتذوق الجمالي كما رأينا سابقا فعل منعكس ، يصدر عن النفس التي تستجيب للمثيرات الجمالية بما فيها من جمالات فطر الله الناس عليها .

---

1 ــ المرجع نفسه ، ص 56 .

2 ــ حسين الصديق : فلسفة الجمال رسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط1 ، 2003 ، ص22 .

و إذا عدنا إلى موضوع الرسالة و ركزنا على الجماليات الفنية في القرآن الكريم " فالخطاب القرآني يعد سلطة فنية من حيث تساميه الأدبي المباين للمألوف من الأجناس الأدبية و هو سلطة روحية أيضا بتصديه تقريرا و جدلا ، لتخرصاتهم الاعتقادية و المعرفية الشركية ، و احتوائه المجال الفكري ، و الروحي الذي تصدر عنه ذهنية الكفر ، و هذا لاعتماده معطى الإيمان بالتوحيد ، و بالغيب ، واقعا فكريا ماثلا للحس ممازجا للوجدان "[1].

لقد اقترن الخطاب بالجمال في العمل الأدبي و قد وردت مادة خطب في لسان العرب " أن الخطـــاب و المخاطبة مراجعة الكلام ، و قد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا ، و هما يتخاطبان ، و المخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك و المشاركة في فعل ذي شأن ، قال الليث : إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر، قال بعض المفسرين في قوله تعالى "و فصل الخطاب" قال : هو أن يحكم بالبينة أو اليمين و قيل: معناه أن يفصل بين الحق و الباطل ، و يميـــز بين الحكم و ضده ، وقيل فصل الخطاب : الفقه في القضاء "[2].

و يرى الزمخشري أنه يجوز أن يراد بمعنى الخطاب في الآية :" القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ، و لا إشباع ممل ، و يقول خطبه أحسن الخطب و هو المواجهة بالكلام"[3]. فالخطاب من المخاطبة على وزن المفاعلة فهو يقتضي التفاعل بين شخصين أو أكثر ، بين مرسل و متلقي ، و هذا التفاعل إما أن يخلق إحساسا بالمتعة و الجمال و القبول ، و إما أن يولد شعورا بالسأم و القبح و النفور ، وكثيرا ما ارتبط الخطـــــاب بالخطابة كجنس أدبي تتجلى فيه البلاغة و القدرة على التأثير في المخاطبين .

---

1 ــ سليمان عشراتي : الخطاب القرآني ، مقاربة توصيفيه لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، ط1 ، 1998 ، ص5.

2 ــ ابن منظور : لسان العرب ، مادة (خَطَبَ) ، المصدر السابق ، ج2 ،ص 856 .

3 ــ الزمخشري : الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج 1، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ط،د.ت،ص 125 .

كما يرتبط المفهوم الرابط بين الخطاب والخطابة عند أرسطو طاليس في حديثه عن مكوناتها فيقول: " أما التي ينبغي القول فيها على مجرى الصناعة فثلاث: إحداهن الأخبار من أي الأشياء تكون التصديقات و الثانية ذكر التي تستعمل في الألفاظ ، و الثالثة هو أنه كيف ينبغي أن ننظم أو ننسق بين أجزاء القول"[1]

و قد عدها الجاحظ جنسا من البلاغة فالخطابة تركز على عملية الإقناع التي يختص بها الباث إزاء المتلقي أو السامع قصد إثارة عواطفه ، أما ما يستمد منه الخطاب في جانبه النظري في كونه اليوم يطرح كآلية فعالة في الفكر الإنساني أمام أي طرح أو نقاش و هو الآن الآليـــــــة و الرهان الذي بادر و يبادر النقد الأدبي الحديث و المعاصر في عرضه التحليلي أو هو نقطة تقاطع و تلاقي بين تحليل النصوص و الإجراءات التطبيقية التي تهتم كثيرا بالمعني في شكلـــــه و بنائه ، وفي تجاوز ما يقوم النص بطرحه إلى الكيفية التي يتبعها النص في المعنى الذي يطرحه .

أما في الدراسات اللغوية و اللسانية في الغرب فقد عرف هذا النوع "الخطاب" تفاعلات لاسيما بعد ظهور كتاب فرديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) محاضرات في اللسانيات العامة متضمنا المبادئ الأساسية التي جاء بها هذا الأخير و أهمها :

1- التفريق بين الدال و المدلول .

2- اللغة ظاهرة اجتماعية .

3- الكلام ظاهرة فردية . و بلورته لمفهوم "النسق" أو "النظام" الذي تطور فيما بعد إلى بنية ، و قد تعددت مفاهيم الخطاب ومدلولاته نورد بعضها :

الخطاب مرادف للكلام عند فريديناند دوسوسير (Fredinand de saussire) وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية[2]. أما حسب "بينفينيست"(Binnifinnist):

---

1 ــ أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1، 1983، ص 181.

2 ــ ينظر سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ، ط2، 1993 ، ص12 .

" هو كل مقول يفترض متكلما و مستمعا و عند الأول هدفه التأثير على القارئ بطريقة ما "[1].

والخطاب حسب ميشال فوكو " نظام تعبير متقن ومضبوط"[2]

و بعضهم يعطي للخطاب معاني أخرى لما يجعل منه مرادفا " للنص" أو " المقول" ومن هؤلاء " جوليان قريماس" (Jullian Grimasse) على أن استعمال هذا الأخير للنص كمرادف للخطاب ليس من باب التبسيط، كما يرى بعض الدارسين أن قريماس ، " إذ يفعل ذلك إنما يستند إلى الاشتراك الفعلي للفظتين في أداء المعنى ذاته (ترادف) فبعض اللغات الأوربية لا تتوفر على لفظ يقابل لفظتي"Discours" الفرنسية و"Discourse" الإنجليزية ، و يشير إلى أن "خطاب" و"نص" تستعملان تبعا لذلك للدلالة على ممارسة خطابية غير لغوية ، كالطقوس المختلفـــــــة والقصص المرسومة"[3] .

وثمة علاقة وطيدة بين الخطاب و الأدب الجمالي ، و الخطاب له مقاييس تميزه أي هناك شروط وخصائص و مقاييس تجعل منه خطابا أدبيا ، و هو ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون بأن هدف "علم الأدب ليس دراسة الأدب ، بل دراسة أدبية الأدب"[4]

و في السياق نفسه يقول " بوريس ايخمباوم " (Bouriss Eikhenbaoum)" لقـــــد اعتبرنا و لا نزال نعتبر أن الشرط الأساسي لموضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي يميزها من كل مادة

---

1 ــ المرجع نفسه ، ص 19 .

2– فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث ،دراسة في تحليل الخطاب ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ،ط1,2003 ،ص40.

3- Grimas (AJ) et courtés (j) ; sémiotique , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed , Hachette , Paris , 1979.voir discours p102.

4- Todorov Tzeventan , les catégories du récit littéraire inco-uniqtion 8, coll. Ed du seuil , Paris 1981, p 131 .

أخرى و هذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بوساطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبررا لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد "[1] .

و يعرف "عبد السلام المسدي" الخطاب الأدبي بأنه : "خلق لغة من لغة" أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة فيبعث فيها لغة وليدة ، و هي لغة الخطاب الأدبي و يمكن أن نقول : "إن الخطاب الأدبي هو تحويل لغة عن لغة موجودة سلفا، و تخليصها من القيود التي يكبلها بها الاستعمال و الممارسة ، فالخطـــــاب الأدبي بهذا المعنى : كيان عضوي يحدده انسجام نوعي ، و علاقة تناسب قائمة بين أجزائه"[2] ، و الخطاب الأدبي نظام إشاري معقد و مركب ، و ليس بسيطا ، كما هو الحال في نظام إشارات المرور الضوئية مثلا ، فالنظام الأدبي معقد بالنظر إلى تعقد تكوينه و العوامل المؤدية إليه معا ، " فمن حيث التكوين يتشكل النص الأدبي من مجموعة من الأنظمة الفرعية الداخلية المرتبطة تماما بمجموعة من الأنظمة الكلية والفرعية الخارجية هناك في التشكيل اللغـــوي للنـــص ، و هناك النظام الصوتي بفروعه و هناك النظام المعجمي ، و هناك النظام النحوي و النظام المجازي و هي كلها أنظمة تشكل رؤية الكاتب ، و منها جميعا تتشكل دلالة النص الكلية "[3].

أما مفهوم الخطاب الأدبي كما يراه محمد مفتاح فهو :

1) " مدونة كلامية : يعني أنه مؤلف من كلام ، و ليس صورة فوتوغرافية أو رسما أو عمارة أو أزياء ، و إن كان الدارس يستعين برسم الكتابة و فضائلها و هندستها في التحليل .

2) حدث : إن كان خطابا ، هو حدث يقع في زمان و مكان معينين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي .

3) تواصلي : يهدف إلى توصيل معلومات و معارف و نقل تجاربه إلى الملتقي .

---

1 ــ سعيد يقطين : تحليل الخطاب الروائي ، المرجع السابق ، ص22.

2 ــ عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب، تونس، ط 2، 1984 ، ص 107.

3 ــ المرجع نفسه ، ص11.

4) تفاعلي : على أن الوظيفة التواصلية في اللغة، ليست هي كل شيء فهناك وظائف أخرى للخطاب اللغوي ، أهمها الوظيفة التفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع و تحافظ عليه .

5) مغلق : و نقصد به انغلاق سمته الكتابية الأيقونة التي لها بداية و نهاية و لكنه من الناحية المعنوية هو :

6) تداولي : إن الحدث اللغوي ليس منبثقا من العدم ، و إنما هو متولد من أحداث تاريخيـــــــة و نفسانية و اجتماعية و لغوية... و تتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له ، فالخطاب إذن مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة "[1].

و يرى"بياجرو" (Piagero) أن الخطاب " يفرز أنماطه الذاتية و سننه العلامية و الدلالية فيكون سياقه الداخلي هو المرجع ، ليقيم دلالاته حتى لكأن الخطاب هو معجم لذاته"[2] .

كما ينحو " ر. ل. فاغنر" (Fagner) المذهب نفسه ، " فيرى أن الخطاب الأدبي صياغة مقصودة لذاتها ، و لغته تتميز عن لغة الخطاب العادي أو النفعي بمعطى جوهري لأنه مرتبط بأصل نشأة الحدث اللساني في كلتا الحالتين ، فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات مكتسبة بالمران و الملكة نرى الخطاب الأدبي صيغ للغة عن وعي و إدراك. "[3].

فليس في الأشكال الأدبية كالسرد مثلا أو الوصف و التشبيه ما يجعلها أدبية محضة ، فقد تصادفها في أنواع أخرى من الخطاب ، مما يؤدي إلى استحالة وجود قوانين خاصة بالخطاب الأدبي ، و بالتالي تجريد مصطلح الأدبية من معناه السابق ، وتعويضه بالإيحاء الاجتماعي الذي يختلف باختلاف الثقافات و العصور.

و حسب عبد السلام المسدي فإن" الخطاب الأدبي ينتمي إلى صاحبه من حيث أنه كلام مبثوث ، أما أدبيته فهي بالأساس وليدة تركيبة الألسنة ، أي وليدة ما ينشأ بين العناصر اللغوية من أنسجة متنوعة متميزة ... و من هنا يمكن الإقرار بأن سمة

---

1 ــ محمد مفتاح :تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، دار التنوير، بيروت، ط1 ، 1985، ص 120.

2 ــ عبد السلام المسدي :الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 16.

3 ــ المرجع نفسه ، ص 11.

الأدبية في الفن لم تعد محصورة في بعض أجزائه دون الأخرى ، و لا فيما يتولد عن بعضها من صور أو انزياحات ، و إنما هي ثمرة لكل بناء خطابي حتى و لو تجلت ظاهريا في شكل مقطع محدد منه ... فأدبية الخطاب وليدة التركيبية الكلية لجهازها اللغوي انطلاقا من الروابط القائمة فيه الضابطة لخصائصه البنيوية "[1].

و الذي يهمنا أن ثمة علاقة بين الجمال و الخطاب ، لأن عملية التذوق تقتضي وجود طرفين، الطرف الأول هو الإنسان و الطرف الثاني هو الموضوع الجمالي فإن ثمة فعلا منعكسا يصدر عن الإنسان يعبر عن تفاعل الذات الإنسانية مع الموضوع الجمالي ، حيث تتعطل ملكاتها العاديـــة و تتوقف عن التفكير ، فالتذوق الجمالي يبدأ أولا بالحس ، و يعبر عنه بالانفعال ثم ينتقل ثانيا إلى العقل في عملية الإدراك و التقويم الجماليين .

و يرى " حسن الصديق" : على الأديب ألا يكتفي بالثقافة التي تغني فكره ، وتوسع دائرة تجاربه ، و تفيده في مضمون فنه ، و إنما عليه أيضا أن يهتم بجمال أداته اللغوية فيتجنب في كتابته الكلمات الممجوجة الثقيلة على السمع ، و يبتعد عن التكليف أو يهرب من أسلـــوب أصحاب الآراء و المتكلمين الذين يتخذون من العمل الفني منبرا للوعظ و الإرشاد ، أو يشرح عقائدهـــــم و مذاهبهم ، و على الأديب أن يكون مهتما بأدبه و فنه ، و لا يفتأ يسعى نحو الأفضل و إن كلفه ذلك جهدا كبيرا من سعى إلى الجمال في الفن الأدبي و ذلك بعد الخضوع لسحر اللفظ على حساب المعنى ، و بالتوفيق بين الشكل والمضمون توفيقا متكاملا يـــؤدي ما يراد من غايـــة ساميـــــة و أخلاقية"[2].

و الذي يثير الاهتمام و يلفت النظر ما يعرف بالتصوير القرآني و هو " التناسق القائم على تقنية توزيع المشاهد ، و الظلال و الأجواء و وسيلته في كل ذلك الألفاظ و الموسيقى الكامنة في التركيب "[3] و بذلك يسمو الإعجاز فيه . " و ارتكزت أدبية الخطاب القرآني على فنية التصوير بأبعادها اللونية و الإيقاعية ، و الحركية ،

---

1 ــ عبد السلام المسدي :الأسلوبية و الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 88-89.

2 ــ حسين الصديق : فلسفة الجمال ومسائل الفن ، المرجع السابق ، ص 266 – 267 .

3 ــ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط7 ، 1983 ، ص96-97 .

انسجاما مع منزعها التوصيلي الفطري الذي يعرض المعنى صورة ، و الأثر حركة و الحالة مشهدا شاخصا للخيال "[1] ، فأدبية الخطاب القرآني تستولي على الوجدان لانسجامها التام مع الفطرة الإنسانية ، و لاستفزازها لبؤرة الشعور بما في الخطاب من دلائل و إيحاءات .

لقد ربط سيد قطب أدبية الخطاب القرآني بمباحث ، كانت في حيز الدراسات الأدبية الوضعية، فالقصة القرآنية بطابعها الفني و بعناصرها الأدائيـــــة من شخوص ، و مواقف ، و سرد ، وغيرها كانت من جملة المباحث التي وقف عندها سيد ، و حاول تأصيل الرؤيا فيها على ضوء الإنجازات النقدية و التحليلية المعاصرة ، و هو بذلك قد دفع بالدرس الجمالي القرآني في طريق مشوق يجنى منه دون شك كثيرا من الثمار اليانعة التي ستؤكد علو كعب البلاغة القرآنية .

و يرى مالك بن نبي أن أدبية القرآن قد تجسدت في ذلك الإنجاز الرائع الذي حققه الخطاب القرآني على مستوى التعبيرية ، و الذي تجاوز به الأنماط القولية التي كان العرب يألفونها ، لقد أحدث الخطاب القرآني كما يقول مالك بن نبي : انقلابا في الأدب العربي بتغييره الأداة الفنية في التعبير ، فهو من ناحية قد جعل الجملة المنظمة في موضع البيت الموزون ، وجاء من ناحية أخرى بفكرة جديدة أدخل بها مفاهيم أو موضوعات جديدة لكي يصل العقلية الجاهلية بتيار التوحيد"[2].

لقد تخطى القرآن بتفرّد و تميّز نسيجه البنائي الإمكانيات الجمالية الأدبية التي أسستها اللغة العربية لنفسها طيلة قرون ، حتى أنه يمكن اعتبار الخطاب القرآني ثورة تجديدية في الأطر الجمالية و البلاغية التي كانت قبله ، ثورة لا تقل أهمية عن الانقلاب الجذري الذي أحدثه القرآن في المجتمع العربي الجاهلي و في العالم كله ، مؤكدا أن الخطاب هو أقوى مرجعيـــــات التغيير و البناء .

---

1 ــ سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت، م3، ط 12، 1986 ، ص 1011 .

2 ــ مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط4 ، 1984 ، ص 185 .

" و الخطاب القرآني يتمتع بقدرة كبيرة على استيعاب المفاهيم ، والأنماط اللفظية غير العربية و تكيفها مع ما ينسجم وروح اللغة العربية "[1] ، يظهر ذلك على مستوى الأسماء الأعجمية خاصة (أسماء الرسل من بني إسرائيل) .

و نجد الأدبية القرآنية مع " محمد أركون" تنحو منحى فكريا ، فصوت العاطفة فيه لا يخبو تماما ، و لكنه يتذرع بالعقل ، فهما للظاهرة القرآنية و تعريفا لها ، وتفكيكا للخطاب القرآني بأدوات معرفية جديدة كخطوة توسع فيها الصلات الجدلية بين الديانات الكتابية في العالم .

و أركون يحدد المرتكزات النوعية التي تقوم عليها أدبية الخطاب القرآني ويجملها في كونه :

1- " صادقا : إذ هو فعال في النفس البشرية التي بقيت بمنأى عن خطاب آخر يفتح لها منظورا مشابهـــا .

2- فعالا : إذ هو يربط الإنسان بالزمن البدائي و يخلق بنفسه زمنا مثاليا ، هو زمن الوحي ، زمن السلف الصالح الذي يستقطب إليه وعي الأمة، سعيا إلى تحقيق واقع الهداية .

3- تلقائيا : إذ هو انسياب متتال لتقنيات لا نحتاج في التدليل عليها إلى برهان ، وإنما نحتاج إلى التماس أوجه ملاءمتها لتطلعات الفطرة البشرية ، فهي قد جاءت لمخاطبتها ، فحداثية القرآن حداثية جمالية و أدبية ... أمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض و الخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول أو من نجم من بعدهم من الطاعنين ، بل لقد تأتى لخطابية القرآن أن تجب أضربا بيانية ترتبط بثقافة العرب الشركية ، كانت مناط تجلة و تفخيم "[2] ، فالخطاب القرآني كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر ضمير المتلقي برسالة متكاملة لا تغفل منزعا من منازع الحياة ، و الوجود ، تحريرا للفرد و الجماعة ، من نير الأسطورة و اللامعقول الخرافي ، لقد استوعبت المؤلفات حول القرآن الكريم

---

1 - **Mohammed Arkoun ; lectures du coran, édition maison neuve , 1982, p23 .PARIS.**

2 ــ سليمان عشيراتي : الخطاب القرآني ، المرجع السابق ، ص 07

(التفاسير ، و شرح المتون مثلا) جهدا تواجديا كان في أساسه نشاطا جماليا وروحيا يستنفذه المسلم في إطار جمالي قد أقــر لها النص و الزمن بمنزلة السقفية ، لقد ارتبط الخطاب القرآني بجماليات فنية من حيث الأسلوب البلاغي الرائع كما سنرى ذلك في أحد أروع السور القرآنية و هي " سورة النور" .

- الجمال و القرآن :

يتبين لفظ الجمال في القرآن الكريم باشتقاقاته في ثمانية مواضع بأربع صيغ هي:(جميل ، جمال ، الجميل ، جميلا)، قال تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ **جَمِيلٌ** وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)[1]

و قال تعالى: (فَصَبْرٌ **جَمِيلٌ** عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)[2]

وقال تعالى:(وَلَكُمْ فِيهَا **جَمَالٌ** حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[3].

وقال تعالى : (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ **الْجَمِيلَ**)[4].

وقال تعالى: (فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا **جَمِيلًا**)[5].

و قال تعالى : (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا **جَمِيلًا**)"[6]

وقال تعالى : (فَاصْبِرْ صَبْرًا **جَمِيلًا**)"[7].

وقال تعالى : (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا **جَمِيلًا**) "[8].

و الملاحظ هنا اقتران الجمال ثلاثة مرات مع الصبر ، و مرتين مع التسريح ، و مرة واحدة مع كل من الهجر و الصفح و التأمل . حيث نلاحظ أيضا أن ما نسبته سبعة و ثمانون بالمئة جاء متعلقا بمجردات ــ الصبر و الهجر و التسريح ــ و قد

---

1 ــ سورة يوسف : الآية 18 .

2 ــ سورة يوسف : الآية 83.

3 ــ سورة النحل : الآية 6.

4 ــ سورة الحجر : الآية 85.

5 ــ سورة الأحزاب : الآية 28.

6 ــ سورة الأحزاب : الآية 49.

7 ــ سورة المعراج : الآية 5.

8 ــ سورة المزمل : الآية 10.

يقودنا هذا إلى استنتاج يتفق مع روح القرآن و الإسلام وهو أن الجمال جمال الباطن، و أن المعنى هو الذي يفيض بجماله على المبنى.

فمجموع الآيات السابقة تدفع الإنسان إلى إخراج أجمل ما لديه من مشاعر صادقة في أسوا الظروف الحالكة .

و حين يتعلق الجمال بفن القول فإن القـــــرآن هو ذروة سنام الجمال ، ومحط قـــوافـــل الـــروعة و الجلال ، أعي البلغاء ، و أجهد الفصحاء ، و ما تمالك أحد أســـاطيـــــــن البلاغة و أرباب الفصاحة نفسه حين سمعه فقال : " إن لقوله الذي يقوله حلاوة ، و إن عليه لطلاوة و إنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، و إنه ليعلو ولا يعلى ، و إنه ليحطم ما تحته"[1].

يعـــتمد القـــرآن الكـــريـــم فـــي توليـــد الشعور بالجمال و الروعة على الكلمة تـــصويرا و تجسيدا ، و على الموسيقى الداخلية ، في انسجام تكاد معه تسمع خرير المـــاء ، و هزيم الرعد ، و زمجرة الريح ، و حفيف الأوراق ، وزقزقة الطيـــر ، وتكـــاد تـــرى الطبـــيعة ينافس بعض فصولها بعضا، و هو ما يعرف عند النقاد بـــ الأنوماتوبـــيا : " أي محاكاة الوضع اللغوي لمظاهر الطبيعة ... و قد استخدم القرآن مثل هذه المفردات عندما بث الحركة فيها ، و جسم معانيه ، و خاطب الحواس عند تقديم الذهنيات ."[2]

فالكلمة القرآنية وعاء للمعنى الهادي إلى الصراط المستقيم ، و هي مكتنزة بكل مظاهر الجمال و البهاء و الجلال ، بحيث ترفع الوعي الجمالي لدى المتلقي ، فمنتهى القول البليغ أن يجعل قلب السامع ووجدانه و عقله وجها لوجه أمام المراد من الإقناع ، أمام الحقيقة البالغـــــة ، و الحجة الساطعة ، و لم يعرف التاريخ البشري برمته مثل هذا لغير القرآن الكريم ، الذي استل من طباع العرب الجافية طباعا أخرى راقية ، فإذا بهم ينقلبون ذلك الانقلاب الكبير من رعاة غنم يعيشون على ضفاف التاريخ إلى رعاة أمم يصنعون التاريخ .

---

1 ــ ابن كثير : السيرة النبوية ، ج1، تح : مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، د.ط ، 1971 ، ص 499 .

2 ــ أحمد ياسوف : جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، سورية ، ط1 ، 1994 ، ص33 .

و مـــن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذاك النظام الصوتي ، أنهما كما كانا دلـــيل إعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى ، وذلك أن مـــن شـــأن الجمـــال اللغـــــوي و النظام الصوتي ، أن يسترعي الأسماع ، و يثير الانتباه و يحرك داعية الإقبال في كل إنسان ، إلى هذا القرآن الكريم ، و بذلك يبقى أبد الدهر سائدا على ألسنة الخلق و في آذانهم ، و يعرف بذاته و مزاياه بينهم ، فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله ، مصداقا لقوله سبحانه : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1]، و لقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو داخل في القـــرآن شـــيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه و اختل نظامه في آذان سامعيه ![2].

فالموســـيقى الداخلـــية للقـــرآن الكـــريم أشـــبه بسيمفونية متكاملة متناغمة ، لو اضطربت منها نوتة واحدة لسقط البناء الموسيقي كله " ثم انظر فيه آية آية ، و كلمة كلمـــة : هل تجدها كما وصفنا : من عجيب النظم ، و بديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفـــردت كانـــت فـــي الجمال غاية ، وفى الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها ، وضـــامتها ذواتهـــا مما تجرى في الحسن مجراها ،و تأخذ في معناها ؟ ثم من قصة إلـــى قـــصة ، ومـــن بـــاب إلـــى بـــاب ، من غير خلل يقع في نظم الفصـــل إلى الفصـــــل، و حتى يصور لك الفصل وصلا ، ببديع التأليف ، و بليغ التنزيل. "[3]

فالجمـــال هو معدن القرآن الكريم و جوهره ، و إذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات الـــنقدية الجمالية " نجد ما يسمى بالروعة التي يولدها هذا الأدب في النفوس ، حيث يـــذهب "لونجيـــنوس " ...إلـــى أن الروعة إنما هي صدى روح عظيمة، وقد حاول لونجيـــنوس(Longinos)- رغم ذلك - أن يضع للروعة مصادر خمسة هي: (*) القـــدرة على تكوين فكرة عظيمة (*) العاطفة الجياشة (*) استخدام ضروب المجاز (*) اســـتخدام الألفـــاظ الـــرفيعة (*) التأليف السامي الجليل ... و واضح من هذه العناصـــر الخمـــسة أن الاثنين الأولين منها يتصلان اتصلاً وثيقاً بنفسية الشاعر بينا

---

1 ــ الحجر : الآية 09 .

2 – ينظر الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ج 2، بيروت ، د. ط ، 1981 ، ص312 .

3– الباقلاني : إعجاز القرآن ، تح: أحمد صقر دار المعارف ، مصر ، ط3، 1970 ، ص 190

تـــتعلق الـــثلاثة الأخـــرى بالأثر الأدبي نفسه ، فإذا نقلنا فكرة " الرائع " خطوة ابعد وســـميناه " المعجز " – وخصصنا به القرآن – سقط العنصران الأولان ، و لم يبق في مجال البحث إلا الثلاثة الأخرى "[1]

فهذه الدراسات تؤكد على أن الأدب الرفيع الممتاز يصدر عن روح عظيمة ، وأنه أدب قائم على دقة اختيار الكلمة ، و دقة التأليف بين الكلمات ، فما عسى أن نقول عن القرآن وهو من لدن حكيم عليم ، و قد جسمت المباني معانيها حتى كأنـــــك و أنت تقرأ كتاب الله المسطور جالس في قلب كتاب الله المنظور، وصورت الكلمة القرآنية الحالـــة النفسيـــة بأدق تفاصيلها فيما يعـــرف بالأنوماتوبيا و جرس و إيقاع الكلمة ، و قد شكلت الموسيقى الداخلية للقرآن الكريم فلسفة متكاملة كتمهيد قوي للتأثير في الوجدان و العقل و كمثال عن دقة اختيار الكلمات ما جاء في سورة النور محل هذه الدراسة نختار ثلاثة كلمات كشاهد : (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)"[2] لقائـــــل أن يقول : و لا ترأفوا بهما في دين الله لكن مع التأمل نجـــد أن الموقف القاســـي تجاه جريمة الزنا يستثير الشفقة و لا يعبر عن ذلك إلا الأخذ حقيقة هو الاستيلاء و هو هنا مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين لئلا يضعفوا عند إقامة الحد .

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِـــيمٌ)"[3] استعمال كلمة أفضتم في هذا الموقع لا يضارعها شيء ، فالإفك قد فشا في المدينة و أصبح حديث الناس في المجالس و التعبير بالفيض هو الأنسب لوصف تلك الحالة .

﴿ يَعْلَـــمُ اللَّـــهُ الَّـــذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾"4 لا تصلح يذهبون أو يخرجون لأن المنافقين يريدون الخروج بخفاء ودون أن يشعر بهم أحد و لا يكون هذا إلا تسللا .

---

1 – إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983 ، ص 339.

2 – سورة النور : الآية 2 .

3 – سورة النور : الآية 14 .

4 – سورة النور: الآية 63 .

و إذا تحدثـــنا عـــن إيقاع الكلمة و ما تحدثه من ظلال نفسية و تشخيص للمعنى نأخذ أيضا مثالا عن ذلك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم ﴾ [1] إذا سرت في الأجواء رائحة منتنة احتُبِس النَّفَس، و بعد أن يتجمع في الصدر يخرج في استرخاء، و نـــسمع غالـــبا لفظـــة " إِف" تدليلا على الرائحة المنتنة ، و كل هذا ترسمه لفظة ﴿ الْإِفْـــكِ ﴾ الكـــسرة و احتباسها بالسكون و الإخراج بالكسرة مجددا ، إنه إذا قرآن عربي غير ذي عوج .

1 ــ سورة النور : الآية 11 .

الفصل الأول

الخصائص الفنية للأسلوب

الخصائص الفنية للأسلوب

مفهوم الأسلوب :

أ- لغة.

ب- إصطلاحا.

1- الأسلوب في التراث العربي

2- الأسلوب عند علماء الغرب

أ- خصائص الأسلوب.

ب- الأسلوب و الإبتكار.

3- مفهموم الأسلوب في النقد العربي الحديث

أ- صفات الأسلوب:

1- وضوح الأسلوب 2. قوة الأسلوب 3 .جمال الأسلوب

ب- تداخل الصفات و تعادلها .

4.خصائص الأسلوب القرآني

1- المرونة و المطاوعة .

2- إقناع العقل و إمتاع العاطفة .

3- القصد في اللفظ و الوفاء بحق المعنى.

4- ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

5- الفاصلة القرآنية .

6- أسلوب التصوير في القرآن الكريم.

7- جودة السبك .

5- الخصائص العامة للأسلوب القرآني.

- **الخصائص الفنية للأسلوب :**

من القضايا التي فرضت نفسها وبقوة على الساحة الأدبية والبلاغية قضية الأسلوب والأسلوبية، هاتان القضيتان اللتان تضافان إلى البحوث اللسانية الحديثة كفرع من تفرعاته المتشابكة الروافد ووفرة المصطلحات وكثرتها، الشيء الذي دفع بالفضوليين من الباحثين إلى التنقيب عن حقيقة هذه المفاهيم المتعلقة بالمعارف الإنسانية وفق ما تتطلبه المناهج العلمية الحديثة، رغم أن العملية تعد شاقة وصعبة على المبتدئين الذين يجدون صعوبة للتمييز بين مصطلح وآخر.

والهدف من وراء هذه البحوث البلاغية واللسانية واللغوية هو ترقية الخطاب الأدبي والتذوق للقيم الجمالية للنصوص، وأساس ذلك تلك المميزات اللغوية والبلاغية التي تحفل بها تلك النصوص والفنون الأدبية الراقية، ولعل السؤال المتبادر إلى ذهن كل قارئ أو متتبع لهذه المفاهيم هو كيفية تحديد هويتها ومعاييرها وأسسها وعناصرها ؟ وما هي المقاصد من وراء كثرة البحوث في هذه المفاهيم ؟،وهذا ما سنلمسه من خلال تتبعنا لمفهوم الأسلوب، انطلاقـاً من مسلمة الاستفسار عن حقيقة الموضوع وجوهره .

في أي قضية علمية مطروحة للدراسة والتحليل، ثمة سؤال عن جوهر القضية هو: ما الأسلوب؟ ،وما معناه؟، وكيف ينظر إليه؟، وما السبل المتبعة في دراسته وتحديد خصائصه؟ ؛ إنه سؤال مركب في ظاهره، صعب في مضمونه، تتطلب الإجابة عنه الوقوف أمام مجموعة من القضايا التي اختلف حولها كثير من علماء اللغة والأسلوب وما زالوا يختلفون، إلى درجة صارت فيها موضع نقاش وجدال بينهم، ولهذا لا بد من البحث في جملة من الحقائق منها:

مفهوم الأسلوب: أ / لغـــــة : الأسلوب معجميا ،كما جاء في لسان العرب لابن منظور: " (سلب) سَلَبَه الشيءَ يَسْلُبُه سَلْباً وسَلَباً واسْتَلَبَه إِياه وسَلَبُوتٌ فَعَلوتٌ رجل سَلَبوتٌ وامرأَةٌ سَلَبوتٌ كالرجل، وكذلك رجلٌ سَلاَّبَةٌ بالهاءِ والأُنثى سَلاَّبة أَيضاً، والاسْتِلابُ الاختِلاس والسَّلَب ما يُسْلَبُ، وفي التهذيب ما يُسْلَبُ به والجمع أَسلابٌ وكل شيءٍ على الإِنسانِ من اللباسِ فهو سَلَبٌ، والفعل سَلَبْتُه أَسْلُبُه

سَلْباً إذا أَخَذْتَ سَلَبَه ... ويقال للسَّطْر من النخيل أُسْلوبٌ وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ فهو أُسلوبٌ، والأُسْلوبُ الطريق والوجهُ والمَذْهَبُ، يقال: أَنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ ويُجمَعُ أَساليبَ، والأُسْلُوبُ الطريقُ تأْخذ فيه، والأُسْلوبُ بالضم الفَنُّ يقال: أَخَذ فلانٌ في أَساليبَ من القول أَي أَفانينَ منه "[1].

و جـــاء عند صاحب أساس البلاغة " (س ل ب) سلبه ثوبه وهو سليب، وأخذ ســـلب القتـــيل وأسلاب القتلى، ولبست الثكلى السلاب وهو الحداد، وتسلبت وسلبت علـــى ميتها فهي مسلب، الإحداد على الزوج، والتسليب عام، وسلكت أسلوب فلان: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة. "[2]

وذكر صاحب" مجمل اللغة" في باب السين واللام وما يثلثهما: "سلب: السلب، مصدر سلبته، أسلبه سلباً، والسلب لحاء الشجر، وبالمدينة سوق يقال لها سوق السلابين، والسلب الثياب البيض، يقال: تسلبت المرأة على بعلها أي أحدت قال لبيد: في السلب السود وفي الأمساح.

والأساليب: الطرق والفنون، وكل شيء امتد على غير امتناع فهو أسلوب، ويقال لعنق الأسد أسلوب لأنها لا تثنى "[3].

أماالفيـــروز أبـــادي فـــي قاموسه المحيط فينتهي إلى تعريفه " سَلَبَهُ سَلْباً وسَلَباً اخْتَلَسَهُ، كاسْتَلَبَهُ. ورجُلٌ وامرأةٌ سَلَبوتٌ وسَلاَّبَةٌ. والسَّلِيبُ المُسْتَلَبُ العَقْلِ، ج سَلْبَى. وناقَـــةٌ وامْرَأةٌ سَالِبٌ وسَلوبٌ وسَليبٌ ومُسَلَّبٌ وسُلُبٌ ماتَ وَلَدُها، أو أَلْقَتْهُ لِغَيْرِ تَمامٍ، ج سُلُبٌ وسَلائِبُ، وقد أَسْلَبَتْ، فهي مُسْلِبٌ، وشَجَرَةٌ سَلِيبٌ سُلِبَتْ ورَقَها وأَغْصانَها، ورَقُها، والْأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ، وعُنُقُ الْأَسَدِ، والشُّمُوخُ في الْأَنْفِ".[4]

---

1 ــ ابن منظور : لسان العرب ، مادة (سَلَبَ) ، المصدر السابق ، ج3 ،ص177.

2ــ الزمخشري : أساس البلاغة ،المصدر السابق ، ص 223 .

3 -. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: مجمل اللغة، تح:زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986، ج1، ص469-470

4 ــ الفيروزأبادي : القاموس المحيط،ج1،الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر ،د.ط،1979، ص83.

فمـــدار الأسلوب في لغة العرب الطريقة أو المذهب أو المنزع ، أو " السطر من النخيل ، أوالطريق الممتد ، أو المنهج المتبع ، أو المثال أو النموذج " .[1]

اصطـــــلاحا :

- **مفهوم الأسلوب في التراث العربي:** و يأتي بمعنى الكيفية التي يصّدر بها المتكلم كلامه و يشكله ، فإن كان مقفى موزون فهو الشعر، و إن كان غير ذلك فهو النثر،وقد تحدث عن الأسلوب أغلب البحاثة و القدامى بحيث "... نجد في الموروث العربي النقدي و البلاغي و في الدراسات القرآنية ملامح الدرس الأسلوبي للخطاب الديني ــ القرآني بخاصة ــ و الخطاب الشعري بعامة ... ونؤكد أن آراء القدماء وإن كانت مبتسرة و لم تؤسس نظرية أسلوبية متكاملة ، فهي إرهاصات في هذا المجال."[2]

راودت فكرة الأسلوب ووجوه الأداء الكلامي أذهان المفسرين والبلاغيين والنقاد مـــنذ القـــرن الثالث الهجري وقد استأثر موضوع الإعجاز القرآني باهتمامهم البالغ، فانصرفوا إلى تحديد وجوهه وتجلياته في القرآن الكريم على اعتبار الإعجاز متصلا بالجانب البياني أساسا، وكان ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هـــ) قد لاحظ أن دراسة الأســـاليب الكلامية في لغة العرب ضرورة لفهم الأسلوب القرآني، فلفت النظر إلى أهمية دراسة تلك الأساليب على اعتبارها أداة لفهم فكرة الإعجاز التي ينطوي عليها الأسلوب القرآني، فذكر: " إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه وفهم مـــذاهب العـــرب وافتنانها في الأساليب"[3]. أما الباقلاني فقد حاول تأكيد فكرة تفرد القـــرآن الكريم من جهة نظمه المعجز بطريقة مقارنة بعض أساليبه بما تعده العرب غايـــة فـــي نظمها، وكان الباقلاني قد رأى ذلك في نصين شعريين أحدهما لامرئ القـــيس علـــى اعتـــباره من القدماء المجيدين في الشعر، وقد سبق الناس إلى أشياء ابـــتدعها والآخـــر للبحتري وهو من أصحاب الديباجة في الشعر وكان يسمي بعض شـــعره بـــسلاسل الـــذهب، مشيرا وهو يعرض هذين النموذجين إلى أهم ملامحهما

---

1 ــ صالح بلعيد : نظرية النظم ، دارهومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، 2002، ص 156 .

2ــ نور الدين السد :الأسلوبية و تحليل الخطاب ، ج1 ، دار هومه ، الجزائر ،د.ط، د ،ت ، ص130 .

3 ــ ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ،د.ط، د.ت ، ص12

البنائـــية في الابتداء والتخلص والانتهاء وتوالي الأجزاء وتماسك الأقسام، منبها لما يمـــتازان به من سمات على نطاق اللغة والأسلوب والمعاني والموضوعات، منتهيا إلى القول :" إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود مـــن نظـــام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابه، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام"[1].

أمـــا الزمخشري فقد دقق النظر في الخواص الأسلوبية لبعض سور القرآن في كتابه الكشاف، كما هو الأمر في سورة الفاتحة : ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ(1)الرَّحْمنِ الـــرَّحِيمِ (2) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ(3) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(4) اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ (5) صِـــرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ(6)غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّالِينَ(7)﴾، فقال : " فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، قلت هذا يسمى الالتفات في علم البـــيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم "[2].

وقد ظل البحث الأسلوبي قائما على وصف وجوه الاستخدام اللغوي، وملاحظة وجود المنبهات الأسلوبية، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني فقدم تصورا دقيقا لمفهوم الأسلوب فذكر أنه : "الضرب من النظم والطريقة فيه"[3]، ثم أشار إلى أن مجالات الأسلوب في النظم لا تخرج عن تركيب الألفاظ في انساق بصورة تتبع ترتيب المعاني في نفس المتكلم، ومن خلال ذلك تنبه لصلة النحو بالمعاني فقال في كلامه على النظم : "هو أن تضع كلامك الوضع الذي يرتضيه النحو وتعمل على قوانينه"[4]، وعلى هذا الأساس غدا النحو متصل بالمستوى الجمالي مثل اتصاله بجانب الاستخدام المثالي، إذ النحو لا يعني بنظره العلم بمواضع الإعراب فهذا كما يشير أمر مشترك بين الناس، وهو ليس مما يستنبط بالفكر والروية وليس لأحد

1ـ الباقلاني : إعجاز القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1954 ، ص 36

2ـ الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الاقاويل في وجوه التاويل، ج 1، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت . د.ط ،ص14.

3 – عبد القاهرالجرجاني : دلائل الاعجاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر،د.ط ،1991،ص418.

4– المصدرنفسه ،ص 430.

فضل على غيره إذا علم أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، فهذه إمكانات متحققة في العلم، وإنما المزية الوصف الموجب للإعراب"[1]، "فهو يرى أن النظم ،هو توخي معاني النحو، وأن إعجاز القرآن يكون في نظمه وسمو بلاغته"[2]، فأدرك نظام اللغة من خلال النحو، وهو نظام يختلف في تراكيبه من جنس في الكلام إلى جنس آخر، وهنا أشار إلى أن خصوصية كل شاعر تظهر من خلال اعتماده على إمكانات محددة من إمكانات النحو، وإن تشابهت المعاني وتداخلت الأغراض، فإن المقارنة تبقى قائمة بين تركيب وتركيب،"يحتاج النظم إلى تتابع الجمل و التراكيب حتى يتضح من خلالها جميعا معناه"،[3] ثم تظهر الفروق بعدئذ في نظم الكلام، من أجل ذلك يغدو نقل المعنى وتأديته بالصورة الموضوع عليها محالا، لأننا سنجد صياغة جديدة يتحول إليها المعنى بمجرد تحويله من سياق إلى سياق، حيث يقول: " ولا يغرنك قول الناس قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه، فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول، حتى لا تعقل ههنا، إلا ما عقلته هناك، وحتى يكون حال الصورتين المشتبهتين في عينيك كالسوارين و الشنفين، ففي غاية المحال"[4].

لقد خلص عبد القاهر في تأييده علاقة النحو بالنظم وبالأسلوب إلى أن النحو بإمكاناته الواسعة يتيح لكل منشئ قدرا من التميز الدال على خصوصية نظمه، إذ الألفاظ في ذاتها لا ينجم عن استعمالها فضل للقائل، لأنها لا تختص بأحد دون آخر وإنما تكون الخصوصية في النظم والتركيب.

إن الألفاظ عند عبد القاهر ما هي إلا رموزا للمعاني، لهذا فهي لا تكتسب صفة الفصاحة في ذاتها، لأن الفصاحة عنده سمة للمتكلم دون واضع اللغة، والمتكلم ليس

1-المصدر نفسه، ص418.

2 - عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجر جاني وابن سينان الخفاجي، دار الجيل ،بيروت ، ط1، 1993، ص 74.

3 - أحمد درويش:دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،د.ط،د.ت.ص110.

4- عبد القاهر الجرجاني :دلائل الاعجاز ،المصدر السابق، ص438.

بمقدوره أن يزيد من عنده باللفظ شيئا ليس هو في اللغة، فإن فعل ذلك خرج على اللغة، وعليه لا يكون المتكلم متكلما إلا إذا استعمل اللغة على ما وضعت له، وفي ذلك دلالة عنده أن الفصاحة لا تتصل باللفظ بمثل اتصالها بالتركيب، وقد ضرب على ذلك مثالا بقوله :" فإذا قلت في لفظ اشتعل من قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾* إنها في أعلى مرتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولا بها الرأس معرفا بالألف واللام ومقرونا إليه الشيب منكرا منصوبا"[1]، وإدراكه خاصة الأسلوب في ضوء النحو على هذه الجهة من الدقة والشمول جعله يلتقي مع علماء اللغة المحدثين في أكثر من موضع[2]، وكما أن ثمة ارتباطا قويا بين النحو والنظم من جهة، وبينهما وبين الأسلوب من جهة ثانية، فهناك علاقة عضوية بين الأسلوب والبلاغة عند عبد القاهر تبدو لنا من خلال اهتمامه بالمعنى والدلالة والغرض والمجاز، ومن استعارة وكناية وتمثيل، إذ الدلالة لا يبعث عليها الكلام العادي، وإنما يكون الباعث عليها المجاز الذي يجري وفق آلة النحو أساسا، يقول الجرجاني : "إن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم، وهي أفراد لم يتوافر فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور هاهنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون ألف مع غيره"[3].

وقد وسع حازم القرطاجني مفهوم الأسلوب ليشمل النتاج الأدبي كله، بما فيه من عناصر داخلة في الصياغة أو في أغراض الشعر خاصة، حيث يقول : " ولما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحدة منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل تقتنى، وكانت للنفس بالاستمرار

---

* – سورة مريم، الآية03.

1ــ الجرجاني : دلائل الإعجاز،المصدر السابق، ص 45.

2ــ ينظر محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية،الشركه المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة،ط1، 1999، ص44.

3ــ عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة،تح،محمد الفاضلي،المكتبة العصرية صيدا،بيروت،ط1، 198،ص28.

علـــى تلك الجهات، والنقلة من بعضها إلى بعض، وبكيفية الاضطرار في المعاني، صورة وهيئة تسمى الأسلوب "[1].

فالقرطاجني يعي "الثالوث" المتحكم في عملية صياغة الأسلوب والمتمثل في المعنى واللفظ والنظم ويعتبرالأسلوب فعالية تركيبية موحدة داخل كلام يستوعب النص بكامله، ومن شروط سلامة الأسلوب عنده أن يكون حسن التناسب متضمنا لحسن التخلص من غرض إلى أخر دون تنافر أو إضطراب. [2]

وقـــد وقف ابن خلدون عند تعريف الأسلوب فذكر أنه :" المنوال الذي تنسج فيه التـــراكيب، أو القالـــب الـــذي تفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنـــى، الـــذي هـــو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التـــركيب الذي هو وظيفة البلاغة، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه، وهو وظـــيفة العروض ... إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنضمة كلية، باعتبار انطـــباقها علـــى تـــركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال "[3].

وعلى هذا النحو تسنى للبلاغيين العرب وضع أساس لدراسة الأسلوب، وهو أساس يتيح للمنشئ استخدام اللغة، على نحو يكشف عن خصوصيتها وجماليتها، ويكسبها فنية القول، يقول أمين الخولي: "القول الفني: هو الكلام المعبر عن إحساس الإنسان بالحسن، وهو كمال تعبيره... فإنما التعبير الكامل أو الفني عن الحسن، هو الذي ينقل إليك الإحساس بهذا الحسن، فتشعر مع قائله بما وجد من حسن موفور أو منقوص، ولاينقل التعبير هذا الإحساس إلا إذا كان في أصله عند القائل إحساسا"[4].

---

1 ــ حازم القرطاجني: منهاج البلغاءوسراج الادباء،تح،محمد بن الخوجة،دار الكتب الشرقية،تونس ، د.ط، 1966، ص 336.

2ــ ينظر محمد إقبال عروي : اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، دار الأمان، الرباط،ط1 ،1996، ص14 ــ بتصرف ــ

3 ــ ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة،تح: علي عبد الواحد وافي،دار نهضة مصر، ط3،د.ت، ص470.

4 - أمين الخولي: فن القول،دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1996، ص253.

الأسلوب عند علماء الغرب:

ولعل " مصطلح أسلوب مرتبط عند الغربيين بطريقة التعبير الكتابي ، فهو مشتق من الأصل الثلاثي لكلمة(stylo) التي تعني القلم "[1] ، هذه الكلمة التي كانت تطلق أصلا على السمة الشخصية لخط اليد، ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على النوعية الخاصة لرسم خطوط الكلمات المكتوبة، وقد كان عند قدماء الإغريق وأهل البلاغة فيهم بمثابة إحدى وسائل الإقناع، فأدرجوه ضمن علم الخطابة واختيار الكلمات المناسبة لمقتضى الحال، الأمر نفسه الذي أشار إليه علماء البلاغة العرب في القرنيين الثالث والرابع الهجريين وعلى رأسهم الجاحظ الذي يرى مدى مطابقة المقال لمقتضى الحال.

يعد أرسطو من المنظرين في الأدب الإغريقي و نظرا للثقل العالمي لهذه الشخصية من المفيد أن نعرف وجهته في مسألة الأسلوب ، لقد ورد الأسلوب في كلام أرسطو عاما وشاملا للشعر والفنون ، وهو يتصل عنده بنظرية المحاكاة وقد أفاض فيه القول في كتابه (الخطابة) ، و المحاكاة عند أرسطو ليست نسخ الطبيعة ، و لكن اعتماد أسلوب قوي لإعادة إخراجها على صورة جديدة تكشف عن تأثر المتفنن بها ، يقول أرسطو " والناس يجدون لذة في المحاكاة، وتؤيد التجربة صدق هذه المسألة، فقد تقع أعيننا على أشياء يؤلمنا أن نراها كجثث الموتى وأشكال أحط الحيوانات وأشدها إثارة للتقزز، ومع ذلك فنحن نسر حين نراها محكية حكاية صادقة في الفن وتزداد متعتنا بها حين تتوفر الإصابة في المحاكاة "[2] فصدق الأسلوب و دقته وراء قدرة الفنان على قوة المحاكاة . إذن الأسلوب غاية الأسلوب عند أرسطو هو الإقناع لذا يتضح بأن وظيفته هي الإقناع وحسن الصياغة ، مركزا على الصوب في القول والتراكيب .

أما عند أهل اللغة في الغرب فقد تبنوا فيه التقسيمات الثلاثية للأسلوب عند أدباء اليونان القدماء ؛ ولعل التعريف المشتهر عندهم هو تعريف الناقد الفرنسي

---

1 ــ مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط1 ، 1974 ، ص 254 .

2 ــ إحسان عباس :تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،دار الثقافة ،بيروت ،ط4، 1983،ص226.

بيفون (Biphone) فيعرفه بقوله (الأسلوب هو الرجل. le style c'est l'homme)"[1]

ووسعت الدراسات اللغوية الحديثة مجالات البحث الأسلوبي لتشمل جوانب متباعدة في مسائل التعبير اللغوي فكانت جهود فريديناند دوسوسير (Ferdinand de Saussire) (1857م-1913م) في نظريته القائمة على علاقة اللغة بالكلام وتحليل الرموز اللغوية ودراسة التركيب العام للنظام اللغوي، ما ينطوي عليه ذلك من صور صوتية ودلالات، تتأسس بينها علاقات اعتباطية في البدء ثم تخضع تلك الصور للنظام حالما تتشكل التراكيب، غير أن تأصيل العلاقة بين الدال والمدلول كما يرى دوسوسير من خلال السياق أو التركيب يحجب إدراك السمة التواصلية للغة، وعليه فإن النظام اللغوي لا يعطي النتيجة المرجوة منه ما لم يرتبط بأنظمة أخرى خارجة عنه[2]، وقد أفاد بالـــــي (Bali) (1865م-1947م) من أفكار دوسوسير في اعتبار اللغة نظاما من العلاقات تبرز الجانب الفكري والانفعالي للمتكلم غير أنه لم يحفل باللغة الأدبية وكان ذلك كما يشير نفر من الدارسين من الأسباب الداعية لتجاوز آرائه في مجال دراسة الأسلوب[3].

أما سبيتزر (spitzer) ، وفوسلر (vosler) ، " فيربطان الأسلوب بشخصية الكاتب وعقليته وتوجهه الفكري " .[4]

ثـــم جـــاء كريسو (Crisso) ليعيد الاعتبار إلى اللغة الأدبية بعدما أبعدها بالي عن المجـــال الأســـلوبي فوجد في الأدب شكلا من أشكال التواصل الجمالي بين المؤلف والمتلقـــي، ونحـــا ماروز (Marouze) نحو كريسو في التركيز على لغة الأدب في

---

1 - أحمد الشايب : الأسلوب، مكتبة النهضة العصرية، بيروت،ط5، د.ت ، ص15.

2-ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 173.

3ـــ المرجع نفسه: ص 175.

4 ـــ هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، تر: محمد عروي ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1999 ، ص 52 .

التحليل الأسلوبي، مستقصيا ظواهرها مثل العلاقة بين المحسوس بالمجرد، والمجمل بالمفصل، والحقيقة بالمجاز، والشعر بالنثر، واللفظ بالتركيب[1].

وبعده أتى أمادو ألونسو (Amado Alanso) ليطابق في دراسته الأسلوبية التي أقامها على شعار بابلو نيرودا (BabloNiroda) بين النقد الأدبي والأسلوبية محاولا التعرف على السمات الأسلوبية لمنشئ من خلال نتاجه، مركزا على علاقة الأديب بالأثر وعلاقة الدال بالمدلول من خلال التركيب وما ينجم عن ذلك من عناصر معنوية وتأثيرية، ويتجاوز ألونسو نظرة دوسوسير إلى اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، لتتحول تلك العلاقة عنده إلى علاقة سببية مما جعل للدراسة الأسلوبية أهدافا تتركز في معظمها حول الغاية التواصلية للغة، ولعل أهم ما نجم عن مباحث ألونسو توضيح لكيفية التي يبنى بها الجسر بين الدال والمدلول وهو في حالة التكوين. ويلاحظ الدارسون أن محاولته تحديد العلاقات المتشابكة داخل العمل الأدبي أوقعته في متاهات غامضة، خصوصا عندما تكلم عن اللحظة الاستشراقية التي تتداخل مع عوالم غامضة من الأفكار والعواطف والتهويمات والذكريات[2].

أما قراي (B.Gray) (1969م) فيرى أن " الأسلوب ليس إلا اختلاقا من اختلاقات العلماء ، الاختلاق الذي لا يقابله شيء في الواقع " [3] ،وبالرغم من هذه العدمية لا يمكن إنكار بعض المظاهر المشتركة بين جميع مجالات الممارسة المذكورة لكلمة أسلوب .

أما الشكلانيون الروس فقد بذلوا جهودا تذكر في باب الدراسات الأسلوبية، إذ تركزت مباحثهم حول الجوانب الفنية للأدب منطلقين من اللغة مركزين على دراسة الأصوات المتكررة، وتمثيل وحدات الدلالة والوقوف عند البنى النحوية، وجزئيات الصورة مبينين كيفية تفاعل هذه المستويات في النتاج على نحو شامل.

وفي ألمانيا ظهر كارل فوسلر (Carl Fosler) الذي أطلق اسم الأسلوبية على الناحية التي تدرس اللغة في علاقتها بالخلق الفردي، ولاحظ في معرض دراسته

---

1 – ينظر محمد عبد المطلب : المرجع السابق : 176.

2– ينظر محمد عبد المطلب: المرجع نفسه: ص 178.

3 ــ هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 51 .

للغة من هذه الجهة أن الذي يتطور ليس الفن وإنما التكنيك أو الجهد الفردي الذي يقدمه المبدع، وقد تبعه أولمان (Olman) فربط بين الأسلوبية والألسنية، أما بيرس (Biers) فقد وضع المباحث الأسلوبية قبالة السميولوجيا فدرس الرموز ودلالتها وعلاقاتها بالموضوعات المتصلة بالطبيعة الإنسان، وهذا ما أسهم في تطور الاتجاهات التحليلية في النقد الأدبي في حين ركز جاكبسون (Jacopson) على اللغة والإنشاء وكان ذلك في محاضرة له بهذا العنوان ألقاها في أمريكا سنة 1960 وكانت الأسلوبية قد أفادت من جهود رينه وليك (Renih Wilik) وأوستن وارين (Oston Warin) خصوصا في مجال النظرية الأدبية التي لا تنظر إلى النتاج الأدبي على اعتباره وثيقة اجتماعية أو تاريخية أو موعظة أو كشفا دينيا أو تأملا فلسفيا وإنما على اعتباره لغة بالمقام الأول[1].

ويعرف رولان بارث (Rolan Barth) الأسلوب ومعه اللغة ، بكونهما " معطيين سـابقين على عملية الكتابة ، فاللغة معطى تاريخي لا اختيار للمؤلف فيها ، ومثلها الأسلوب " [2] فمدار الأسلوب عنده جوهر متعلق بصاحبه بماضيه وطفولته وطقوسه الخاصة ، وبيولوجيته .

الأسلوب كما استقر حديثا اختياراً بين الإمكانات اللغوية الواسعة وتوقف أمام مبدأي التنسيق والانتقاء، جاعلاً الانتقاء شاملاً غير مقتصر على الألفاظ، لاشتراك مستويات اللغة جميعها في بناء الكيان اللغوي المتخذ وسيلة للاتصال، ولم يلبث بعد هذا أن رسم بعض المقاييس مستعيناً بالمحورين التبادلي والتركيبي التجاوري لعرض مبدأ الاختيار بطريقة عملية، فإن لم تنجح اللسانيات في العقود الأخيرة في تطوير تعريف الأسلوب، وكشف نظرية منظمة تخصه، وكشف مناهج مناسبة لتحليله، فالمؤكد أن هذا ينقض الوضع الراهن (للسانيات الأسلوبية) إذا وجدت ، إلا أنه لا ينفي وجود الأسلوب ظاهرة مرافقة للغة (Epiphanomen)، فإن لم يكن

---

1 – ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ،المرجع السابق، ص182.

2 ــ مجلة فصول : المجلد 5 ، ع1 ، أكتوبر 1984 .

المرء قد وجد لهذا مفهوماً ناجعاً منذ ما يزيد على ألفي سنة، فإنه يرى نفسه الآن مضطراً للبحث عن مفهوم آخر أو جديد.[1]

وعلـــيه يمكن فهم هذا العدد الكبير من تصورات معنى الأسلوب فهماً إيجابياً؛ لأنه من الخطأ الكامل ألا يرى في هذا سوى انعدام تخطيط الباحثين، وتعدد اتجاهات الـــبحث الحديثة الذي يظهر في تعاريف الأسلوب الكثيرة والمختلفة يقدم في النهاية الأساس للوصول إلى نظرية أسلوبية شاملة وذلك بعد النظرة الناقدة للآراء المختلفة وما تتضمنه من توجيهات جامعة ومتنوعة.

خصائص الأسلوب:

تتلخص خصائص الأسلوب عند أرسطو في ثلاثة أشكال هي :

أ ــ صحة الأسلوب:

يعني بها أساسا جودة الكلام ، والتي تستلزم صحة استعمال الكلمات التي تربط الكلام بعضه ببعض ؛ مثل متعلقات الاسم والفعل ، بحيث لا يصح أن يدخل فيهما تقديم أو تأخير أو فصل ، حتى لا يضطرب المعنى ، ومما يستلزم صحة الكلام أن تسمي الأشياء بأسمائها، أي لا ينبغي أن يأتي المتكلم بكلام عام يحمل وجوها كثيرة لا تتم الفائدة به ، وذلك ما يدعم صحة التأليف[2] .

يقول الآمدي " فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى "[3]، و تجنب الغموض أو الإبهام ــ لأن ذلك يصعب من تأليف الألفاظ ذات المعاني الحقيقية ــ و يعوض ذلك بالمجاز مع مراعاة قواعد اللغة في ألفاظها مؤنثها ومذكرها مفردها ومثناها وجمعها.

---

1 ــ ينظر محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 183 . (بتصرف) .

2 ــ ينظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ،د.ط، 1973، ص 181 (بتصرف) .

3 ــ الآمدي الموازنة ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب ، القاهرة ،ط4، 1944 ، ص94 .

بـــ ـــ وضوح الأسلوب :

وهو شرط لجودته، فالكلام الذي يعجز عن تأدية المعنى ، ووضوحه يفوت على القارئ أداء الغرض منه، وإنما تكون اللغة واضحة كل الوضوح ، حينما تكون كمن يأخذ بيد الأعمى مباشرة إلى حيث يريد ، و إن كان بعض الغموض لا يؤثر في وضوح المعنى ، بل قد يزده وضوحا ؛ يقول ستانلي (Stanley) : " يكون الغموض محترماً ما دام يسند تعقيد الفكر أو لطافته أو اكتنازه، أو ما دام ندحة يستغلها الأديب ليقول بسرعة ما قد فهمه القارئ. ثم هو لا يستحق الاحترام إن كان وليد ضعف أو ضحالة في الفكر ويبهم الأمر دون داع؟ أو عندما لا تتوقف قيمة العبارة على ذلك الغموض بل يكون مجرد وسيلة لتوجيه المادة وتصريفها وذلك إن كان القارئ لا يفهم الأفكار التي اختلطت، وأنطبع لديه شيء من عدم الاتساق. "[1] ؛ بمعنى ألا يتحول الغموض إلى سفسطائية .

جـــ ـــ دقة الأسلوب:

و هنا كلام نفيس لأبي حيان التوحيدي يورده إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، يقول التوحيدي : " والذي ينبغي أن يهجر رأساً ويرغب عنه جملة التكلف الإغلاق واستعمال الغريب والعويص وما يستهلك المعنى أو يفسده أو يحيله، ويجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم وحلاوة التأليف واحتلاب الرونق ... فخير الكلام – على هذا التصفح والتحصيل – ما أيده العقل بالحقيقة، وساعده اللفظ بالرقة، وكان له سهولة في السمع، ووقع في النفس، وعذوبة في القلب، وروح في الصدر؟ يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام؛ فأما صحته فمن جهة شهادة العقل بالصواب، وأما بهجته فمن جهة جوهر اللفظ واعتدال القسمة، وأما تمامه فمن جهة النظر الذي يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها "[2] ، و إنما تكون دقة الأسلوب بحسن انتقاء الكلام ، و حسن تخير الجميل من المعاني ، التي توافق الحال و تغني عن السؤال يقول ستانلي :" ولهذا كان الأسلوب المعتمد هو ما يوافق

1– محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص 56 .

2ـــ إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب،دار الثقافة ،بيروت،ط4، 1983، ص237.

السامع، وهذه الموافقة تراعي لدى البسيط الأحوال الطيبة السارة، ولدى الرقة الأحوال الشاجية، ولدى الألم الأحوال الفاجعة "[1] و الأمر هنا أشبه بالممثلين على خشبة المسرح ، فأبرعهم من يكون صوته طبيعيا فيمثل حقيقة الشخص المتحدث عادة، وخلاصة القول أن اللغة الدقيقة تلك التي تعبر عن الطبيعة النفسية لصاحبها، فلغة الانفعال والغضب مثلا منبعها الإهانة والاحتقار، ولهجة الضجر منبعها الحماقة أو الفجور ، ولغة الحماسة منبعها المجد والسؤدد، والعلا ولغة الخشوع منبعها التقوى والصلاح، يضاف إلى ذلك أن تلك الخصائص السابقة ثلاثتها يجب أن تتوفر في جميع أنواع الأسلوب بتفاوت يسير ، بين النثر والشعر ، لأن الشعر كما نعلم يزيد عن النثر بالوزن والمجازات[2].

- الأسلوب والابتكار :

و المقصود بالابتكار القدرة على توليد معاني جديدة من رحم اللغة ،"وخير الكلام مانقدر به على الظفر بأفكار جديدة في يسر"[3]،والمجاز والتشبيه والاستعارة من الوسائل المساعدة على ذلك وال و قد يتأتّى ذلك عن الموهبة الطبيعية ، أو كثرة الممارسة ؛ فالقدرة على توليد معاني جديدة لتصوير حقيقة مألوفة أو حقيقة مستحدثة هي غاية لابتكار، ولا يفهم من ذلك الميل إلى اللغة المبتذلة بل الفصيحة المؤدية إلى الغرض والمعنى ، و لا شك أن من وراء القدرة على لابتكار روافد من القوة الذاتية كما يؤكد ستانلي : " ولا بد لكمال الإبداع من عوامل داخلية، وهي توفر ثلاث قوى لدى الشاعر:

(أ) القــوة الحافظــة: وذلك بان تكون خيالات الفكر منتظمة متمايزة، نعرف طبــيعة الموضوع الذي يقبل عليه الشاعر فترفده بالتصور المناسب، دون أن يعتكر خياله فيقع في التخليط وعدم انتظام الصور.

---

1 ــ محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ، المرجع السابق ، ص565 .

2ـ ينظر محمد غنيمي هلال : **النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق،ص121 ،(بتصرف)**

3 – محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع نفسه ،ص125، (بتصرف)

(ب) القـــوة المائزة: وهي التي تعين الشاعر على أن يميز ما يلاءم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلاءم.

(ج) القوة الصانعة: وهي التي تتولى ربط أجزاء الألفاظ والمعاني "[1].

ومن أهم العناصر المساعدة على الابتكار في الأسلوب :

1- المجاز: "ويعرفه أرسطو بأنه نقل اسم دال على شيء آخر، والنقل يتم إما من جـنس إلـى نـوع ، أو من نوع إلى جنس ، أو من نوع إلى نوع بحسب التمثيل مـثل : (تـوقفت السفينة أي أرست) و(قدمنا آلاف الضحايا أي الكثير) وهو ما يعـرف عند أهل البلاغة العرب بالكناية "[2]. و القرآن الذي نزل بلغة العرب حوى مـن المجـاز أبدعـه لاسيما و قد ذهب علماء اللغة على أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة ، فقول الله تعالى : (فيما أفضتم فيه) [3] مجاز عن شدة الخوض في حادثة الإفـك ، و قوله عز وجل : (إذ تلقونه بألسنتكم)[4] مجاز عن التلاســـن في الإفك .

2- التـشبيه: و هـو مـشاركة أمر بآخر في معنى ، أي علاقة استدعائية بين المـشبه و المشبه به ، بعبارة أخرى هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من أوصـاف الـشيء في نفسه ، كالشجاعة في الأسد إذا قلنا زيد كالأسد إذا غضب. وللتشبيه أثر نفسي بالغ في المتلقي ؛ فعندما يقول تعالى : " إذ تلقـونه بألسنتكم " . فهـو سـبحانه يـشبه خبر الإفك بشخص ، و يشبه الراوي للخبر بمن يتهيأ للقائه فـشبهت الألـسن بالأيد المتحفزة للتلقي،" فالتشبيه حسب أرسطوا استعارة ،والفرق بيـنهما طفـيف فإذا قلت (كر على الأعداء أسدا) أخيلوس، كان ذلك تشبيها وإذا تحدثت عنه فقلت (وثب الأسد) كان ا ستعارة"[5] .

1- ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ،تر:إحسان عباس ،ج1،دار الثقافة ،بيروت ط1، 1958،ص 544.

2 ــ محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ، ص125.

3 ــ سورة النور : الآية 14 .

4 ــ سورة النور : الآية 15 .

5 - محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ،ص127.

3- **الاستعارة** : أقوى أثرا من التشبيه، إلا أن أرسطو يشترط فيها ألا تكون بعيدة المنال والمبالغة لتفادي الملل والسأم لدى السامع والابتعاد به عن الغرابة والتصنع كما يجب ألا تكون واضحة كل الوضوح حتى لا يفقد النص قيمته الفنية والبلاغية لأن الناس عادة لا يلقون بالا إلى ما هو غريب بعيد المنال أو إلى ما هو معروف بالبديهة، وإنما يكون اهتمامهم بسماع الأفكار التي يحاط بها بمجرد سماعها وليست معروفة من قبل أو حاضرة في الذهن ومجمل القول في هذا الباب ومن خلال ما ذكرناه لمفهوم الأسلوب وأجزاء القول عند أرسطو، إننا توصلنا إلى تحديد جمالية الأسلوب وأهدافه ووسائله من خلال بحوث اليونانيين القدامى[1].

مفهوم الأسلوب في النقد العربي الحديث:

أما نقادنا العرب المعاصرون فهذا أحمد أمين يسمي الأسلوب (نظم الكلام) حيث يرى أن الفن الحقيقي إنما يقوم على وسائل من غير تقديم الشيء نفسه ليثير مشاعرنا، " فلا نعتمد على العاطفة ولغة المشاعر والأحاسيس وحدها، بل على الأسلوب أو نظم الكلام والمبني أساسا على اختيار الكلمات لا من ناحية معانيها فحسب، بل من ناحيتها الفنية كذلك أي بما توحيه من أفكار ترتبط بها فقد تأتلف كلمة مع كلمة ولا تأتلف مع أخرى، وقد تفعل الكلمة في إثارة العواطف ما لا تفعله مرادفتها ويسوق لذلك أمثلة منها ...

قول المتنبي :

تلذ له المروءة وهي تؤذي *** ومن يعشق يلذ له الغرام[2]

وبين قوله تعالى : (فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم)[3]، فلفظة تؤذي في الآية أجمل منها في بيت المتنبي والحكم في ذلك للأذن الموسيقية.

---

1 ــ ينظر محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، المرجع السابق ، ص128 (بتصرف)

2- هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي المعروف بالمتنبي شاعر وحكيم المتوفى سنة 354هـ.(الأعلام للزركلي) دار العلم للملايين ج1، بيروت لبنان، دت، دط، ص 115.

3- سورة الأحزاب : الآية 53.

و كلمة ضيزى في قوله تعالى : (تلك إذا قسمة ضيزى)[1]، فقد تكون ظالمة أو جائرة أحلى ولكن ضيزى في موضعها أجمل فنيا وبلاغيا لطبيعة أواخر السورة المنتهية بالألف المقصورة ومن فوائد نظم الكلم كذلك اعتماد الألفاظ على بعض الحروف التي تمثل القوة كالقاف أو الرقة كالسين ويشير في ذلك إلى قول ابن الأثير المشهور (هنالك كلمات إذا سمعتها تخيلت رجالا قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وألفاظ أخرى تتخيل عند سماعها كأنها نساء حسان عليهن كلائل مصبغات، وقد تحلين بأصناف الحلي)"[2] .

والناس يختلفون فيما بينهم في التعبير عما في أنفسهم من معاني، بل أن الناس يختلفون في التعبير عن المعنى الواحد، بالرغم من اتفاقهم في المعاني العلمية أو الرياضية، فإن أي اختلاف في التعبير أو نظم الكلام ينتج عنه اختلاف في التأثير، ويرى أحمد أمين أن الأسلوب أو نظم الكلام ليس إلا وسيلة من وسائل نقل المعاني، لأن جودة الأسلوب ترتقي بالمعاني العادية لتخرجها في أشكال فنية، تستوجب الإعجاب وأحيانا تسيطر قوة وجودة الأسلوب على قوة المعنى والتفكير المنطقي، ومما تجدر الإشارة إليه أن اللغة هي وسيلة التفكير الطبيعية عن الأفكار والمعاني، فكل أديب له فكرة و لاحظ حقيقة وأراد التعبير عنها، فإن الألفاظ هي أداة ذلك عنده، وهذا مما دعا إلى العناية بنظم الكلام وطريقة تأليفه للاستعانة على أداء العواطف، من استعمال للمجاز والخيال والبديع المعنوي أو بالإشارات وحرك اليد، أو بتجويد العبارات أي الخط، فقد يكون الأديب قديرا ولكنه ضعيف من حيث نظم الكلام وتأليفه، وهناك من لا تتناسب مقدرة عواطفهم أو تفكيرهم مع مقدرتهم في التعبير[3].

وخلاصة القول عند أحمد أمين فيما يتعلق بالأسلوب أو نظم الكلام، أن الكلام يقاس بالقدرة على نقل الفكرة أو العاطفة نقلا صحيحا صادقا، لأن النظم هو التعبير الخارجي (اللفظ) عن حالة داخلية (المعنى)، فمتى صدق التعبير الخارجي وأدى في

---

1 – سورة النجم : الآية 23.

2 – أحمد أمين : النقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ،القاهرة، د.ط، د.ت، ص 74.

3– ينظر أحمد أمين : النقد الأدبي ، المرجع السابق ، ص 76.

أمانة شرح الحالة الداخلية كان النظم جيدا، كما يجب أن يطابق ذلك أي جمال اللغة والأسـلوب المعاني أو العاطفة، إذ تعد اللغة جميلة وبالغة الأهمية إذا كانت صادقة المعنـي والعواطـف ، ولعل من أهم صفات الكتابة الجيدة قوة الأداء اللغوي ودقة المعاني وهما العنصران الأساسيان لكل نظم كلام جيد وبليغ.

ونجد أحمد حسن الزيات يعرف الأسلوب قائلا :

" إن الأسـلوب ليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة ، تلك العناصر هي الأفكار والصور والعواطف ، ثم الألفاظ المركبة والمحسنات المختلفة " [1]

أما أحمد الشايب الذي وقف عند الأسلوب محددا المقصود منه وأنواعه، وعناصره، ومقوماته، وقد وضع له جملة من التعريفات، أوردها في كتابه "الأسـلوب" عرفه بقـوله :" إذا سمع الناس الأسلوب فهموا منه عنصره اللفظي المؤلف من كلمات فجمل وعبارات وربما اختصوا به الأدب دون سواه"[2]، إلا أنه لا يرى في ذلك تعريفا مدققا للأسلوب بل الأسلوب عنده معان مرتبة قبل أن تكون أفكارا منسقة ويكون في العقل قبل أن ينطق به اللـسان. " غير أن أبرزها ،الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام أو تأليفه لأداء الأفكار"[3].

ويعرف الباحث سعد مصلوح الأسلوب " بأنه اختيار (choice) أو انتقاء (sélection) يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، ويدل هذا الاختيار أوالانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة ومجموعة الاختيارات هي التي تشكل أسلوبه " [4]

---

1 ــ أحمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ، دار الرسالة ، مصر ، د.ط ، 1945 ، ص 125 .

2 – أحمد الشايب: الأسلوب : المرجع السابق ، ص 100.

3 ــ نور الدين السد:الأسلوبية وتحليل الخطاب ،ج1:المرجع السابق ،ص 13.

4 ــ سعد مصلوح : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3 ، 2002 ، ص 38 .

أما الباحث عدنان بن ذريل فيرى أن الأسلوب علم لغوي حديث يبحث في الوسائل اللغوية التي تكسب الخطاب العادي أو الأدبي خصائصه التعبيرية والشعرية فتميزه عن غيره[1].

ومما سبق نخلص إلى صفات وخصائص الأسلوب كما استقرت في المدونات العربية.

أولا- صفات الأسلوب :

الأسـلوب أوصاف شتى منها الموجز أو السهل أو التصويري إلى غير ذلك... من السمات الواضحة في العبارات .

والأساليب أشكال منها الأعم والأعمق، التي تتصل بنفس الأديب ومعارفه، وعواطفه وذوقه وعباراته، وهذا هو صدق التعبير فالإخلاص في تصوير ما في النفس يجعل الأسلوب مثالي، ويصبح مرآة العقل والخلق والمزاج ، وطرق التفكير والتخيل، لأن مصدر ذلك كله هي نفس الكاتب فمنها تنشأ هذه الصفات وهي ثلاثة:

- الوضوح لقصد الإفهام .
- القوة لقصد التأثير .
- الجمال لقصد الإمتاع .

وسنتناول كل صفة بشيء من التفصيل :

1- **وضـوح الأسـلوب** : يسعى الكاتب في كل الأعمال الأدبية إلى الوصول لعقـل القارئ ، ولكي يصل إلى ذلك يجب أن يكون واضحا في تفكيره وتعبيره ، وأن يشمل هذا الوضوح، كل لفظ وكل تركيب ، وبالتالي يكون أسلوبه واضحا ، " ولكـي يكون الكاتب واضحا، يجب عليه أولا أن يكون واثقا من المعنى المحدد المضبوط ، وعليه بعد ذلك أن يعبر عن هذا المعنى وحده ، لا شيء أكثر منه ولا شيء أقل منه"[2]

---

1 ــ ينظر عدنان بن دريل :اللغة والأسلوب ،منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ، د.ط ،1980 ، ص 140.

2 ــ محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، مكتبة القاهرة الحديثه ، ط2 ، 1963 ، ص76 .

وعلى الكاتب أن يكون واضحا، يرمي إلى إفادة قرائه ورفع مستواهم الثقافي ، فلا يقف عند تزويدهم بالمعارف جافة ثقيلة ، بل يحسن به أن يكسب معارفه حياة وروعة شائقة ، فالمصدر الأول للوضوح هو عقل الأديب ، فيجب أن يكون فاهما ما يريد أداءه ، لذا فإن الوضوح صفة عقلية أولا ، ثم يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب ثروة لغوية ، وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات ، لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ؛ ولكن قد تكون الفكرة في ذاتها غامضة[1] ، وقد يكون القراء أنفسهم دون مستوى الأديب وعليه يجب على الأديب أن يكتب لهم باللغة التي يفهمونها تاركا التحرج والاعتزال[2] ولتحقيق الوضوح يستلزم أمرين :- احدها متصل بالأفكار نفسها وهو الدقة والثاني متصل بالقارئ وهو الجلاء ، فكيف يتحققان ؟ [3] : * الدقة أو وضوح الفكرة : يجب أن تؤدى كما هي ممتازة ظاهرة الخواص والمعالم ، سوءا كانت قريبة سهلة مثل قول الطغرائي* :

ومن يستعن بالصبر نال مراده *** ولو بعد حين ؛ إنه خير مسعد.

أو لطيفة دقيقة مخترعة مثل قول أبي تمام** :

وإذا امرؤ مدح أمرأ لنواله *** وأطال فيه فقد أراد هجاءه.

وإذا كانت الكلمات المألوفة تستطيع أداء الأفكار العادية ، فإن المعاني العميقة القائمة على التحليل الدقيق ، والملاحظة البعيدة لا بد لها من ألفاظ وصور أخرى تلائمها ؛ ووضوح الفكرة ودقتها تقوم على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التي يؤثرها ، لأنها أدل من سواها على ما يريد ، ونذكر هنا بعض القوانين التي تساعد في تحقيق الدقة وتحديد الأفكار :

أ- اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان، والتي تدل على الفكرة كاملة.

---

1 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، مكتبة النهضة العصرية ، بيروت ، د.ت ، د.ط ، ص186 .(بتصرف) .

2 - ينظر الجاحظ البيان و التبيين : ج 1 ، نشر وزارة الثقافة السورية، سنة 2001، ص 105.

3 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 187 ، (بتصرف).* هو الحسين بن علي بن محمد مؤيد الدين الأصبهاني شاعر ووزير، توفي سنة 513 هـ، ينظر (الأعلام) للزركلي، مصدر سابق، ج3، ص 223.**هو حبيب بن أوس الطائي كنيته أبو تمام شاعر عباسي، توفي سنة 232 هـ، ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، مصدر سابق، ص 07.

ب- يحسن بالأديب الاستعانة بالعناصر الشارحة، أو المفيدة، أو المخيلة، كالنعت والمضاف إليه، والحال والتمييز والاستثناء ، فذلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدها ، مثل : (نهر النيل من أطول أنهار الدنيا) .

ج- ومما يساعد في وضوح الفكرة ، استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة المعاني، إذ كانت مقابلة الأضداد ، مما يزيد في كل وبيان خواصه ، والشرط عدم الغلو فيه مثل : (طول النهار من قصر الليل) .

د- البعد عن الغريب الوحشي، والعمد إلى لغة الناس ، وما يستطيعون إدراكه ، وهذا يختلف باختلاف الناس وعصورهم .

هـ- ثم المصطلحات العلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية، التي وضعت لمعان خاصة محدودة ، تكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة وروابط عقلية مشتركة.

- الجلاء أو وضوح التراكيب: بعد أن تتوفر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها لابد من مطابقة الأسلوب لإدراك القارئ ، تلك القوة التي تظهر في عدة صور .[1]

ويرى محمد كامل أحمد جمعه أنه لكي يكون التركيب واضحا ، من الضروري المحافظة على التوازن بين الفكرة وكسائها اللفظي [2].

2- قوة الأسلوب : يعتبر الوضوح أهم صفات الأسلوب ، لأنه يحقق الإفهام ،ويمكننا القول بأن التعبير الواضح المفهوم ، باعتباره الهيكل العظمي لكل تأليف يجب أن ينمى ويتطور ، وينبغي أن تمنح الكتابة الإبداعية نصيبا من الحيوية ، أكثر من القدر الذي أردناه معه أن تكون المسألة مجرد فهم وحسب ، ومن ثم تبدو أهمية عنصر القوة في الكتابة وسماتها الحيوية، فالفنون الأدبية المميزة به ، هي القائمة على المعاني العقلية كالقانون أو الفلسفة ... ولا نقتصر فيما يكتب على نشر الحقائق ، إنما علينا إيقاظ العقول وهبتها حياة تسمى القوة، فهي صفة العاطفة قبل الأسلوب ، وتتبع من نفس الأديب ، ويجب عليه الانفعال إذا أراد الحماسة من

---

1 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 188 ومابعدها . (بتصرف) .

2 ــ ينظر : محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 79.

ثانيا : قوة التركيب :

يستطيع المتكلم أن يدل على الكلمات ذات المعاني الهامة، بغيرها في النطق وتكرارها، ولذا يجب على القارئ معرفة أهمية هذه المعاني ، بوضع كلماتها حيث تكتسب عناية وانتباها ، ويتم ذلك بالوسائل التالية:

- بتقديم الكلمة وتأخيرها بالنسبة إلى موضعها ، دلالة على القصر أو التفخيم ، أو الأهمية مطلقا مثل " إياك نستعين " [1]

- من أسباب القوة الطباق البديعي ، لأن المقابلة نوع من التحدي ، وهذه قوة للمعاني ، مثل :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة *** لقد سرني أني خطرت ببالك [2].

ـــ لما كانت القوة تستلزم السرعة في أكثر الأحيان ، كان الإيجاز لازما في العبارة العامة ، وفي التراكيب الخاصة ، لذلك تجد تراكيب الخطابة مقتضبة سريعة ، كأنها أوامر ، ونذر صارمة .

ويرى عمار حلاسة أنه " يشترط في فصاحة التركيب أن يسلم من ضعف التأليف وتنافر الكلمات كقول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر *** وليس قرب قبر حرب قبر " [3].

3 ــ جمال الأسلوب:

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية لا غنى لها عنه ، ما دام الأديب معنيا بإمتاع القراء ؛ فقد نقرأ نصا أدبيا ، واضح الأفكار ، ومع ذلك نحس أنها نابية عن الذوق، لا تمتزج بالنفس ، هذا النقص ناشئ عن سقم التعبير ، ودليل على خمود الشعور والذوق الأدبي ، وهو سبب يكفي للعناية بجمال الأسلوب ، وموسيقى العبارة ، حتى نرضي ذوق القارئ وخياله ، فوق عواطفه وعقله ، ولابد من التنبيه أنه ليس من جمال الأسلوب في شيء ، تلك المحسنات البديعية المصطنعة ،

---

1 - سورة الفاتحة : الآية 4 .

2 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 197 . (بتصرف) .

3 ــ عمار حلاسه : الحديث في المقالة الأدبية وتحليل النصوص ، دار الحديث للكتاب ، الجزائر ، ص 52 .

التـــي يضعها الكتاب مدارين نقصا ذوقيا ، والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأديـــب ، فالخيال المصور يدرك ما في المعاني من عمق ، والذوق يختار أصفى العبارات بهذا الخيال الجميل ؛ ونعني بالذوق ، الذوق المهذب[1] .

فالجمال " هو الميزة التي تلزم كل أنواع الكتابة الأدبية كيفما عولجت ، وهو صفة أساسية لكل أسلوب أدبي ، سواء كان ذلك الأسلوب خاليا من الزينة أو حاليا بها "[2] وتجمـــع هاته الصفات الثلاث (القوة ، الوضوح ، الجمال) ؛ صفة أخرى متمثلة في :

تداخل الصفات وتعادلها :

فـــصفات الأسلوب أشبه بأنغام موسيقية ، وهي بتآلفها تكون نغمة تلاؤم ، كذلك لابد من تآزر هذه الصفات وتناسقها ، حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا ، ليرضي نواحي النفس الإنسانية ، لأن الأسلوب الواضح إذا لم يظهر بالخيال الجميل كان جافا [3].

خصائص الأسلوب القرآني :

الأسلوب القرآني هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ؛ ولقد تواضع العلماء قديما وحديث على أن للقرآن أسلوبا خاصا به مغايرا لأساليب العـــرب فـــي الكتابة والخطابة والتأليف، و قد كان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره . روى مسلم في صحيحه أن أنيسا أخا أبي ذر قـــال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت فما يقول الـــناس. قال : يقولون شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيسا أحد الشعراء قال أنيس : لقد سمعت بقول الكهنة فما هو بقولهم وقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون[4].

وقد أبرز العلماء مميزات الأسلوب القرآني اختص بها دون سائر الكلام منها :

---

1 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 197 ، (بتصرف) .

2 ــ محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 86 .

3 ــ ينظر أحمد الشايب : الأسلوب ، المرجع السابق ، ص 199 .

4 ــ ينظر محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ،دار القلم،الكويت،ط1977,4، ص 111 .

1- المرونة والمطاوعة:

" (مـــرن) مَـــرَنَ يَمْـــرُنُ مَرَانةً ومُرُونةً وهو لِينٌ في صَلابة ومَرَّنْتُه أَلَنْتُه وصَلَّبْتُه ومَرَنَ الشيءُ يَمْرُنُ مُرُوناً إذا استمرّ وهو لَيِّنٌ في صلابة ومَرَنَتْ يَدُ فلانٍ علـــى العمـــل أي صَلُبتْ واستمَرَّتْ، والمَرَانةُ اللِّينُ والتَّمْرِينُ التَّلْيينُ ومَرَنَ الشيءُ يَمْـــرُنُ مُـــرُوناً إذا لانَ..."[1] أما المطاوعة " والمُطاوَعةُ الموافقة والنحويون ربما ســـموا الفعل اللازم مُطاوِعاً، ورجل مِطْواعٌ أي مُطِيعٌ، وفلان حسن الطَّواعِية لك مثل الثمانية أي حسن الطاعة لك، ولسانه لا يَطُوعُ بكذا أي لا يُتابِعُه وأَطاع النَّبْتُ وغيره لم يمتنع على آكله "[2] .

تفرد القرآن في أسلوبه بإقناع العامة والخاصة على السواء، فظاهره يهدي الجماهيـــر وســـواد الناس، ويملأ نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخاذ في تعابيره، وباطنه يشبع نهم الخاصة من الحكمة ويحل العقد الكبرى في الكون ودقة صنعه ونظامه وإبداعه، وإننا لنجد في الأسلوب القرآني مرونة في التأويل، بحيث لا يدانـــيه أســـلوب من الأساليب، وهذه المرونة لا تحتمل الآراء المتناقضة وإنما مرونة تجعله واسع الدلالة، ويضيف الرافعي ما نصه : " نرى أسلوب القرآن من اللـــين والمطاوعـــة على التقليب ، والمرونة في التأويل ، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة ، التي تخرج بها طبائع العصور "[3]

فلو أنك اتجهت بالخطاب القرآني إلى الناس على مختلف مشاربهم وأعمارهم ، لوجد فيه كل ما يشفي غليله ويراه مقدرا على مقياس عقله ويلبي حاجته، وهذا ما عبر عنه محمد عبد الله دراز " ... فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم "[4] ؛ قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بألطف تعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه

---

1 ــ ابن منظور :لسان العرب، مادة (مرن)، المصدر السابق ،ج5، ص473 .

2 ــ ابن منظور :لسان العرب، مادة (طوع)، المصدر السابق ، ج4، ص625.

3 ــ مصطفى صادق الرافعي :إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 206.

4 – عبد الله دراز : النبأ العظيم، المرجع السابق، ص 113

إلى عقولهم ،لا يلتوي على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان قال تعالى :" ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر"[1].

فهو متعة العامة والخاصة على السواء ميسر لكل من أراد، وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن وبما أن الأساليب في العربية اعتراها من التغيير والتلون اللفظي والذهني والتطور فإن القرآن بقي خالدا بأسلوبه المتميز وخصائصه الفريدة يتجدد مع العصور ويظهر عجز الإنسان وضعفه مع تطور العلوم، وظل وسيبقى النموذج الأوحد المتفرد في الخطاب ، فهو معجزة بلاغية خالدة ، لا تزال تتجدد عطاءاتها تجددا يذهل الأجيال المتلاحقة ، بما لا يحتمله كلام بشر ؛ و هو ما أشار إليه صاحب " الظاهرة القرآنية " حين قال : " ... أن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا يستطيع أي جيل من الأجيال استفراغ ما فيه من كنوز العلوم والحقائق "[2].

و مثال المرونة ما نجده في قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "[3] فمرونة كلمة " تستأنسوا " في كونها أفادت على إيجازها كل ما من شأنه أن يجعل صاحب الدار يأنس للزائر ، و لا يستوحش منه ؛ ابتسامة أو كلمة طيبة أو هيأة حسنة ، أو باقة ورد بين يدي السلام ــ تستأنسوا و تسلموا ــ .

2- إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

وهذا المظهر الجمالي هو نتيجة حتمية للخاصية السابقة التي يلتقي ذوق العام والخاص عندها، أما هذه الخاصة فهي تجمع كذلك بين متباعدين ذهنا ولكنهما متكاملين حقيقة في أسلوب القرآن، يقول عبد الله دراز : " وفي النفس الإنسانية قوتان، قوة تفكير وقوة وجدان وحاجة كل منهما غير حاجة أختها فأما أحدهما فتنقب عن الحق بمعرفته وعن الخير للعمل به وأما الثانية فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير

---

1 – سورة القمر : الآية 17

2 – مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية، المرجع السابق، ص85.

3 ــ سورة النور : الآية27 .

إلى نفسك بهاتين الجناحين فيؤتها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس"[1].

فلو تأملنا أسلوب الكلام عند الحكماء في حديثهم عن حقائق العلوم ، للمسنا الصرامة و الجفاف ، على خلاف الشعراء الذين يسعون إلى استثارة العاطفة وتحريك المشاعر، فلا يهم عندهم أن يكون الكلام حقيقة أو تخيلا

قال تعالى :"والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون"[2].

وما دام كلام المتكلم ما هو إلا صورة لمقتضى الحالة الغالب عليه من بين تلك الأحوال ، فكيف نطمع من إنسان هذا الأمر وهو لم يجمعهما في نفسه على السواء ، "... وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع الطرفين معا فذلك ما لا تظفر به في كلام البشر فمالك إذن غير كتاب الله لأنه القادر على مخاطبة العقل والعاطفة معا وأن يمزج الحق والجمال معا ... "[3]. ومثال ذلك قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)[4] ، إنها صورة ملتقطة من عمق الطبيعة الصاخبة ، عرض علمي دقيق لتشكل " البَرَد " ، في ثوب أدبي قشيب ، صورة ممتلئة عن آخرها بالحركة ، وكثرة الأفعال المضارعة والدالة على الاستمرار والتجدد ترسم المشهد بجلاء .

3- القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

نهايتان يستحيل اجتماعها معا في أي تصوير أدبي غير القرآن ، فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة ، لا ينفك من أن يحيف عن المعنى قليلا أو كثيرا ، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلا ، فيكون

1- عبد الله دراز : النبأ العظيم، المرجع السابق، ص 113-114

2- سورة الشعراء : الآية 224 وما بعدها.

3 - سورة الأنبياء : الآية 21-22

4 ــ سورة النور : الآية 43 .

سبيله سبيل من يقول في باب المحاجة صدقوا ، أو كذبوا ، وفي باب الوصف حسن أو قبيح ، وفي الأخبار كان أو لم يكن ، وفي باب الطلب افعل أو لا تفعل ، لا يزيد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكن يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ببذل جهده في ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، وما إلى ذلك ما تمس إليه حاجة النفس في البيان ، والذي يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه ، بقدر ما يحيط به علمه لا يجد له بدا من أن يمد في نفسه مدا، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة ، فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لا يلبث أن يباعد بين أطراف كلامه ، ويبطئ الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة نشاطك وباعثة إقبالك آخذتين في التضاؤل والاضمحلال ، ولئن ظفرت بأحد وفق في تقريب تينك الغايتين إلى حد ما في جملة أو جملتين فتربص به كيف يكون أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلل والإعياء ، فينحل من عقدة لسانه ما كان وثيقا، ويذبل من زهرته ما كان غضا طريا ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء، سل العلماء بنقد الشعر والكلام هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ونظم رائع؟[1]... وإذا كان أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديء والغث المستكره، فالأمر في الكتاب والخطباء أبين.

يقول عبد الله دراز : "فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتين الغايتين على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فانظر حيث شئت من القرآن تجد بيانا قدر على حاجة النفس أحسن تقدير فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا مخمصة التقتير يؤدي لك من كل معنى صورة نقية لا يشوبها شيئا مما هو غريب عنها لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه "[2].

1- ينظر عمار الساسي : الإعجاز البياني في القرآن ،دار المعارف ، د.ط ،2004،ص 76(بتصرف)

2 ــ عبد الله دراز : النبأ العظيم ، المرجع السابق، ص 111-112

يقول تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)[1] هل يُرى قصدا في اللفظ و وفاءا بالمعنى أبلغ من هـذا ؟!! إن البصر نافذة الشهوة ، و محرك الغريزة الأول ، و إطلاقه إطلاق لغول الشهوة و إثارة للغريزة ، و غضه كسر لصناعة الفساد .

ومـنه أن كـتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة لم نجد لها مثيل ولو بحثنا ألسنة الـبلغاء والفصحاء وأساطين البيان قال تعالى :" كـتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"[2].

و مما سبق ذكره نتبين أن اختيار الألفاظ في دلالتها إنما جاء متناسقا مع مقتضى الحال وطبيعة المناسبة ، ولو قلبنا الاختيارات اللفظية في الأسلوب القرآني لوجدنا اختيارا دقيقا يفي بالغاية، فلو دققنا النظر في استعمال لفظة " يرمون " في سورة النور " يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافلات "[3] يتبين لنا أن هذا الاستعمال يوحي بدلالة حسية قد لا ينبي عنها ظاهر اللفظ بقدر ما يصوره إيحاء التعبير الدقيق ، فالرمي للمحسوسات و هو هنا استعارة للمجردات ، و هذا يخلق مقابلة حسية لصورة من يرمي حصنا بالمنجنيق مثلا فالأسـرة حصن لأصحابها ، فيها السكينة والحماية و الأمان ، و لفظة " الغافلات " توحي بعدم لاستعداد لرمي الرماة ، كما توحي بالموادعة و المسالمة ، مما يجعل الطباع السليمة تنفر من هذا المشهد .

4ـ ضرب الأمثال في القرآن الكريم

وقد اعتمد الأسلوب القرآني على ضرب الأمثال وجعله قاعدة أساسية في التعبير عـن المعانـي ، " ونجد الأمثال في القرآن الكريم تخلو من المبالغات التي تخرج الكـلام عـن المعاني المرادة ، إلى جو من الخيال المفرط ، الذي يؤدي إلى تشتت

1 ــ سورة النور : الآية 30 .

2 ــ سورة هود : الآية 11

3 ــ سورة النور : الآية 23 .

الأذهـــان وذهاب الحقائق ، وخلو الأسلوب عن الإقناع العقلي وإن صحبه شيء من الإمتاع العاطفي " [1].

ومن أساليب ضرب الأمثال المتبعة في القرآن:

أ – إخراج المعاني الذهنية في صورة حسية تُرسم في المخيلة حية متحركة. خذ هذا المعنى الذهني المجرد وهو أن الكفار محرومون من دخول الجنة وأنهم غير مقبولين عند الله بتاتاً، وتأمل كيف عرضه الله في القرآن: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ)[2] هكذا في صورة حسية ترسم في الخيال صورة تفتح أبواب السماء وصورة ولوج الجمل في سم الخياط. وسواء أكان الجمل هو الحيوان المعروف أم الحبل الغليظ، فقد استقر في مخيلة السامع استحالة دخول الكافرين الجنة[2].

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنك لو أردت أن تعرض لمعنى النفور الشديد من دعوة الإيمان بـــصورته التجريدية تقول: إن القوم ينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان. أما القرآن فقـــد عـــرض فيه الأمر بأسلوب تصويري حسي فقال تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)[3]، فاشترك هنا مع الذهن حاسة البـــصر وملكـــة الخيال وانفعال السخرية من هؤلاء الذين يفرون من الحق كما تفر حمر الوحش من الأسد [4].

ب – تصوير الحالات النفسية والمعنوية في صورة حسية متخيلة، حية متحركة.

فعـــندما أراد الله سبحانه أن يفضح ويعري أولئك الذين هيأ لهم سبيل الهداية، لكنهم رفـــضوا فأصبحوا في شقاء بما علموا وما جهلوا، فلا هم استراحوا بما هيأ الله لهم مـــن ســـبيل الخيـــر والرشاد، ولا هم استراحوا بإعراضهم عن هذا الخير، فيصور

---

1 ــ محمد بكر إسماعيل : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط2 ، 1999 ، ص 334 .

2- ينظر سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص34 .

3-سورة المدثر : الآيات 49– 50 .

4-ينظر سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص195.

القــرآن حالتهم النفسية والمعنوية هذه في صورة حسية متحركة، قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَــيْهِمْ نَــبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَــثْ أَوْ تَتْــرُكْهُ يَلْهَــث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ تَفَكَّرُونَ)[1].

يقول سيد قطب: "إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات، إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع... ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد... إذا نحن بهذا المخلوق لاصقاً بالأرض ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر"[2].

ج – عرض القضايا المنطقية والجدلية في أسلوب ضرب الأمثال وذلك في معرض الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته، فالقرآن يأتي بالدليل المقنع من واقع الناس وما يشاهدونه ويعايشونه، لكنه معروض في صورة مؤثرة ومن ذلك قوله تعالى: (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

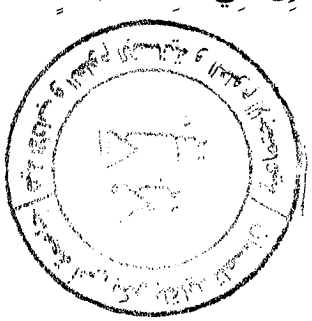

1- سورة الأعراف : الآيتان 175– 176 .

2- سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق،م3 ،ص 1396– 1397.

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[1]. ومع أن هذا المشهد كما تلاحظ يتكرر في حياة الناس إلا أنه عرض بأسلوب تصويري وكأنها لوحة طبيعية رسمت عليها النخيل والأعناب المثمرة[2].

د – إعطاء الحركة لما من شأنه السكون وخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية فتصبح كأنها أشخاص بارزة لها عواطفها وخلجاتها الإنسانية. تأمل في قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)[3]، تجد التعبير بالاشتعال يجعل الخيال يتصور أن للشيب حركة في الرأس كحركة اشتعال النار في الهشيم مما يضفي على النص الحياة والجمال[4].

وأما خلع الحياة على المواد الجامدة فمثاله قوله تعالى (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)[5]، فالصبح مشهد معروف متكرر للناس، لكنه في التعبير القرآني كأنه شخص حي يتنفس كما يتنفس الأحياء. وكذا قوله تعالى (والليل إِذَا يَسْرِ)[6]. وقوله تعالى: (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ)[7].

وأما تصوير الانفعالات الوجدانية فهو في غاية الروعة، فالغضب والروع والبشرى انفعالات وجدانية تصبح في التعبير القرآني كأنها حية متحركة، فالغضب يسكت كما في قوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ)[8]. والروع يذهب ويزول، والبشرى تجيء كما في قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)*[9].

1- سورة الرعد : آية 4 .

2- ينظر سيد قطب : التصوير الفني، المرجع السابق، ص57 .

3- سورة مريم : آية 4

4- ينظر سيد قطب : التصوير الفني، المرجع السابق، ص66 .

5- سورة التكوير : آية 18 .

6-سورة الفجر : آية 4 .

7- سورة الكهف : آية 77

8- سورة الأعراف : آية 154

*سورة هود : آية 74.

9- ينظر سيد قطب، التصوير الفني، المرجع السابق، ص63 .

إلـــى غيـــر ذلك من أساليب التصوير المتبعة في التعبير القرآني. وطريقة التصوير التي يتبعها القرآن الكريم في التعبير لها فائدة عظيمة في وصول المعاني إلى النفس بـــشتى الوسائل لأن المعاني إذا عرضت في صورتها التجريدية خاطبت الذهن فقط، أما إذا عرضت بالأسلوب التصويري فإنها تخاطب الذهن والحس والوجدان وتصل إلـــى الـــنفس من منافذ شتى من الحواس بالتخيل، ومن الحس عن طريق الحواس، ومـــن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء، ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد.

5 ــ الفاصلة القرآنية :

اختلف العلماء في تعريف الفاصلة القرآنية.

فقال الرماني:" الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" [1]

وقال ابن منظور:" الفواصل أواخر الآيات في كتاب الله "[2].

ويرى بكري شيخ أمين " أن الفاصلة القرآنية تلك النهاية التي تذيل الآيات القرآنية ، وهـــي تَـــرِدُ حاملة شحنتين في آن واحد ، شحنة من الوقع الموسيقي ، وشحنة من المعنى المتمم للآية " [3]

وكذا قال الزركشي: " الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع " [4].

والفاصـــلة فـــي القـــرآن ليست " كقافية الشعر تقاس بالتفعيلات والأوزان وتضبط بالحـــركات والـــسكنات ... بـــل الفاصلة طليقة من كل قيد " [5]، لأنها متممة لمعنى ومبنى ما قبلها وما بعدها من الفواصل .

ويرى بعض العلماء أن رؤوس الآيات والفواصل مترادفان وهي نهايات الآيات كما قـــدمت[1]. ويـــرى آخرون أن الفاصلة أعم، فهي الكلام المنفصل مما بعده. والكلام

1- علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القران تح: محمد خلف الله ،محمد زغلول،دار المعارف ط3 1976، ص97.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة (فصل)، المصدر السابق، ج4، ص1101.

3 ــ بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1976، ص 203.

4- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1 ، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957، ص53.

5 ــ صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن،دار العلم للملايين،بيروت،ط16، 1985 ،ص340.

المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آية ، وكذلك الفواصل يَكُنَّ رؤوس آيٍ وغيرها. فكل رأس آية فاصلة ولا عكس.

والفواصل بحسب حروف الروي نوعان:

الأول: المتماثلة:

وهي التي تماثلت حروف رويتها سواء في الحرف الأخير كقوله تعالى: (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى * إِلا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[2] أو في الحرفين الأخيرين كقوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)[3]. أو في الأحرف الثلاثة الأخيرة كقوله تعالى: (مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ)[4]، أو في الأحرف الأربعة الأخيرة كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ)[5].

وقد استقلت الفواصل المتماثلة بإحدى عشرة من سور المفصل ومعظمها مكي[6].

ويسمي البعض الفواصل المتماثلة بالمتجانسة أو ذات المناسبة التامة.

والأصوب أن تسمى المتماثلة لأن التجانس كما هو معلوم عند علماء التجويد يكون بين حرفين اتحدا مخرجا واختلفا صفة، وكذا التماثل أولى من ذات المناسبة التامة لأن المصطلح يفضّل أن يكون أقصر بشرط الدلالة على المعنى بتمامه وقد تحقق هنا (التماثل).

---

1 ــ أنظر رأي الرماني وابن منظورفي (النكت،ص 97،ولسان العرب ص1101) .

2- سورة طه: الآيات 2- 5 .

3-سورة الشرح: الآيات 1- 4 .

4- سورة القلم: الآيتان 2- 3 .

5- سورة الأعراف : الآيتان 201- 202 .

6-ينظر محمد الحسناوي : الفاصلة القرآنية،دار الأصيل للطباعة والنشر،حلب،د.ط،د.ت، ص172.

الثاني: الفواصل المقاربة:

كالمـــيم مـــع النون في قوله تعالى: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ)[1] والدال مع الـــباء في قوله تعالى: (ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ)[2] والتقارب في الحروف يكون بين حرفين تقاربا مخرجاً وصفة كالذال والسين أو تقاربا صفة لا مخرجاً كالذال والجيم.

ويلاحـــظ أن الفاصـــلة القرآنية تأتي مكملة للمعنى الذي قبلها ومناسبة له بحيث لو تغيرت اختل المعنى... يدرك هذا كل من عنده ذوق أدبي.

حَكَى الأصمعي قال: "كنت أقرأ: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ والله غفور رحيم وبجنبي أعرابي فقال: كلام من هذا ؟ فقلت: كلام الله. قـــال أعد فأعدت. فقال ليس هذا كلام الله. فانتبهت فقرأت (وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[3] فقال: أصـــبت هذا كلام الله. فقلت أتقرأ القرآن. قال: لا. فقلت: من أين علمت ؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر فرحم لما قطع"[4].

وقد يسأل سائل ما الحكمة في أن بعض الفواصل غريبة اللفظ مثل كلمة ضيزى في قـــوله تعالى: (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)[5]، فكلمة ضيزى بمعنى جائرة أو ظالمة، فلماذا عدل عن الكلمات المألوفة إلى الكلمة غير المألوفة.

والجواب على هذا السؤال من وجهين:

الأول: مـــن جهـــة حـــسن النظم والتناسق فإن سورة النجم تنتهي فواصلها بالألف المقصورة فناسب أن تكون الفاصلة كلمة ضيزى لا كلمة جائرة أو ظالمة.

الثانـــي: إن نسبة البنات إلى الله ونسبة الأولاد إليهم أمر في أشد الغرابة فناسب أن يعبر عنه بلفظ غريب تنبيهاً على غرابة القسمة[6].

1- سورة الفاتحة : الآيتان 3- 4 .

2- سورة ق : الآيتان 1- 2 .

3- سورة المائدة : آية 38 .

4- محمد الحسناوي :الفاصلة القرآنية، المرجع السابق ،ص27

5- سورة النجم : آية 22 .

6-ينظر أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ،مكتبة نهضة مصر،القاهرة، ط3،1950، ص87 .

وقد تختلف الفاصلتان في موضعين والمُحَدَّث عنه واحد وذلك لنكتة لطيفة. ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَآ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[1]، وقوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَآ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)[2].

ففي الآية الأولى يقول الحق جل وعلا للإنسان إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً وكونك كفاراً، وفي الآية الثانية يقول الحق سبحانه للإنسان ولي عند إعطاء النعمة لك وصفان وهما أني: غفور رحيم، أُقابِل ظُلْمَك بغفراني وكفرك برحمتي.

ثم سؤال آخر يطرحه المرء هنا: ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؟ والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه[3].

وبعد بيان مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم يظهر بطلان القول بالصرفة، وأول من قال بهذا الرأي النظام المعتزلي، ومراده بالصرفة أن الله سبحانه صرف همم العرب في زمن الرسالة عن معارضة القرآن، والإتيان بمثله، أي أن القرآن ليس معجزاً لفصاحة ألفاظه وبلاغته وحسن نظمه وإنما لصرف الله العرب عن الإتيان بمثله، ولولا صرف الله العرب عن الإتيان بمثل القرآن لأتوا بمثله، وهم أهل الفصاحة والبيان.

ويرى النظام أن وجه إعجاز القرآن يكمن في إخباره عن الغيوب، ولم يرتض المعتزلة قول النظام وأكثرهم على تكفيره.[4]

1- سورة إبراهيم : آية 34 .

2- سورة النحل : آية 18 .

3- ينظر الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، مصدر سابق، ج1، ص 86.

4- ينظر عبد القاهر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982، ص 114- 115 (بتصرف).

وقـول الـنظام بالـصرفة يـرجع إلى قاعدة الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة، وملخـصها: أن كل ما رآه العقل حسناً، فهو عند الله حسن ومطلوب الفعل، وكل ما رآه العقـل قبيحاً فهو عند الله قبيح ومطلوب الترك، ومن وجهة نظر النظام العقل لا يحيل على العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صـرف هممهـم، فجعل النظام ما رآه العقل حكماً في هذه المسألة وهو الفصل فيها، مع أن مقولته منقوضة بعدة أدلة نقلية وعقلية منها[1]:

- قـوله تعالـى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[2].

فهـذه الآيـة تـدل على بطلان القول بالصرفة لأنه لو كان إعجاز القرآن يكمن في صرف العرب عن الإتيان بمثله لما كان في اجتماع الإنس والجن فائدة.

- يلزم القول بالصرفة أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان وحسن الـنظم، وأن يكون ما قالوه من شعر زمن الجاهلية أبلغ وأقوى من الشعر الذي قالوه بعـد بعـثة محمد صلى الله عليه وسلم، وحصول التحدي لهم، وليس الأمر كذلك،لو حـصل نقص في فصاحة العرب وبلاغتهم وحسن نظمهم للكلم، لكان هذا عذراً لهم وقالـوا لمحمـد علـيه الـصلاة والسلام، لقد كان بإمكاننا أن نأتي بمثل القرآن في السابق، لكنك سحرتنا فَحُلْتَ بيننا وبين الإتيان بمثل القرآن، لكن ذلك لم يحصل، مع حرصـهم الـشديد على وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا تليق، بل وصـفوه بأنه ساحر في كثير من الأمور، لكنهم لم يصفوه بأنه سحرهم في المقدرة على النظم والفصاحة والبيان.

- يلـزم القـول بالـصرفة أن يكون العرب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم قد سلبوا الحكمة وضعفت أذهانهم وتفكيرهم، وليس الأمر كذلك.

- لو كان كلام العرب قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من شعر أو نثر مثل نظم القرآن لما انبهروا بالقرآن الذي سمعوه من محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كان له مـزية علـى كلامهم، لكن واقعهم يشهد بخلاف ذلك، فهذا الوليد بن المغيرة يقول:

1- ينظر الباقلاني : إعجاز القرآن،المصدر السابق، ص30

2- سورة الإسراء : آية 88 .

"والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجنات" وكذا عتبة بن ربيعة قال: ".... والله مـــا هـــو بالـــشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة"، وكذا يروى في قصة إسلام عمـــر، قوله عن القرآن: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه" وقوله: "فلما سمعت القرآن رق لـــه قلبي فبكيت ودخلني الإسلام" ، إلى غير ذلك من القصص الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أن أسلوب القرآن كان معجزاً ولم يكن العرب قد تعودوه أو سمعوا مثله[1]

6 ــ أسلوب التصوير في القرآن الكريم :

من السمات البارزة للأسلوب القرآني اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن المعـــانـــي التـــي يريد إيضاحها، وسواء كانت أحـــكاما أو قصصا أو مشاهد ليوم القيامة أو غيرها من المجالات، إن الأسلوب القرآني يحمل قارئه إلى أجواء الصور وكأنـــه ينظر في تفصيلات مجسمة أمامه، وكأن المشهد يجري متحركا ولا شك أن الفكر أو المعنى الذي يراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن مما لو نقل المعنى مجردا من تلك الصور الحية، وفي هذا الصدد يقول سيد قطب "التصوير الفنـــي الأداة المفضلة في أسلوب القرآن وهو يعبر عن الصور المحسة المتخيلة عن المعنـــى الذهنـــي والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخـــصة أو الحركة المتجـــددة، فإذا المعنى الذهـــني هيأة أو حـــركة وإذا الحالة النفـــسية لـــوحة أو مشهدا وإذا النموذج الإنساني شاخص حي وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية"[2].

يقـــول أيـــضا : "فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية تـــشخص الـــنموذج أو الحـــادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصور ولا

1-ينظر عبد الملك ابن هشام : السيرة النبوية،تح:مصطفى السقا،إبراهيم الأبياري،دار إحياء التراث العربي،بيروت، ط3، 1971، ج1، ص289،وما بعدها

2 – سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ، ص46.

شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن والأمثلة على هذا الذي نقول القرآن كله "[1].

" ... وقد تجاوز سيد قطب الخلاف الحاد بين البلاغيين حول اللفظ والمعنى، وفي أيهما تكمن البلاغة والذي حال دون إبداعهم في إدراك الخصائص العامة وتوجه سيد إلى القرآن الكريم مباشرة ليرى مكمن البلاغة فيه، فوجدها في اللفظ والمعنى والظلال والسياق والأداء والتصوير"[2].

" فالتصوير هو التعبير بالصور عن التجارب الشعورية التي مر بها الفنان، بحيث ترتسم أمام القارئ الصورة التي أراد الفنان نقلها له، وتكون أداة التصوير هي الألفاظ والعبارات "[3].

والقرآن الكريم استخدم طريقة التصوير في التعبير وجعلها الأداة المفضلة في أسلوبه " ...فهو يعبر بالصور المحسة والمتخيلة عن المعنى الذهني للحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة"[4].

يشرك سيد قطب "... جملة من الأدوات في تطبيق نظريته في الظلال عند تفسيره القرآن الكريم، ويستخدم المصطلحات التالية: التناسق، السحر، الجرس، الإيقاع، الموسيقى التناسب، الظل، التجسيم، التشخيص، التصوير، ولم يجد مصطلحات غيرها يمكن إطلاقها على ما يجده ويستشعره ويتذوقه في الأسلوب القرآني "[5].

ولقد كان التفسير الجمالي للصور الفنية في القرآن، سمة بارزة عند سيد قطب فحين يتحدث عن الإعجاز في تصوير النماذج الإنسانية في القرآن الكريم نجد هذه "

---

1 -المرجع السابق ، ص 48.

2 – صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر، 1988، ص14.

3 – صلاح عبد الفتاح الخالدي :نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ،المرجع السابق، ص 77.

4 – سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، المرجع السابق، ص 33.

5 – صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المرجع السابق، ص73.

...اللمسات العجيبة من الريشة المعجزة في رسم ملامح النفوس تشير بذاتها، بأن هذا القول المعجز ليس مصدرا بشريا على الإطلاق فاللمسات البشرية لا تستوعب أعمق خصائص النماذج الإنسانية بهذا الوضوح وبهذا الشمول"[1].

و كنموذج على عبقرية سيد في الحديث عن التصوير في الذكر الحكيم ، ما جاء في الظلال في معرض الحديث عن الحالة النفسية للكفار يوم القيامة ﴿وَالذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ، وَاللهُ سَرِيعُ الحساب * أَو كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا، وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾[2].

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة والحياة.

في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعاً كاذباً ، فيتبعه صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الري غافلاً عما ينتظره هناك، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة . . فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك . . يصل، فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال، المرعبة التي تقطع الأوصال، وتورث الخبال: " ووجد الله عنده " ! الله الذي كفر به وجحده ، وخاصمه وعاداه . وجده هنالك ينتظره! ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار؟ ﴿فوفاه حسابه...﴾ هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة الفجاءة ، ﴿والله سريع الحساب. . ﴾ تعقيبا يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع!"[3].

---

1 – سيد قطب:في ظلال القران: المصدر السابق،م1 ، ص204.

2 – النور: الآيتان 39– 40

3 ــ سيد قطب :في ظلال القران ، المصدر السابق ،م4،ص2521

7 ــ جودة السبك:

تعتبــر جودة السبك من أهم خصائص الأسلوب القرآني وهي تعني " أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره ، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر ، مع طول نفسه وتنوع مقاصده ، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد "[1] .

ويــرى محمد الصالح الصديق أن " القرآن بلغ أقصى الدرجات ، وأبلغ الغايات في تــرابط كلماته وتماسك جمله وتعانق آياته ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، فإذا فتحت المصحف دون أن يكون لك قصد أو غرض بآية معينة فقرأت ما وقعت عليه عيــناك ، وتأملــته وجدته وحدة متماسكة الأجزاء ، متآلفة الأعضاء ، ... فجل من قــال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾[2] " .

فالقرآن الكريم يشكل في بنائه وحدة متماسكة،فهو كالجسد الواحد يشد بعضه بعضا.

ونخلص مما سبق إلى:

الخصائص العامة للأسلوب القرآني

1 – القرآن الكريم يجري على نسق غاية في البلاغة والفصاحة خارج عن المألوف من نظام جميع كلام العرب، فله أسلوب يختص به ويميزه عن سائر الكلام، فلا هو بالشعر ولا بالنثر، لكنك لو قرأت بعض آياته شعرت بالنسق العجيب بينها، وكذا بين الكلمــات، وحتــى بــين الحروف فتجد تناسقاً عجيباً بين الرخو والشديد والمجهور والمهمــوس والانفتاح والإطباق... الخ، بحيث إذا قرأت القرآن شعرت بتأثير شديد فــي نفسك، استمع إلى قوله تعالى: (يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

---

1 ــ محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ط1 ، 2004 ، ص 225 .

2 ــ الزمر: الآية 28–محمد الصالح الصديق :من روائع الاعجاز، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، (د.ط)، 2005، ص521.

عَظِـيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ).[1]

2 – يمـتاز القرآن باتساق عباراته وبلاغتها وبديع نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها، من غير أن تختل هذه المزية فيه بخلاف كلام العرب، فإنك لا تجد لحكيم ولا لـشاعر أو فصيح كلاماً بطول القرآن وعلو شأنه، بل قد يبدع أحدهم في بعض قوله ويخفق في آخر، بل قد يناقض نفسه، أما القرآن فهو كما وصفه الله: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيرًا).*[2]

3 – الناظـر فـي القرآن يجد فيه القصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام والـوعد والوعيد والتبشير والتخويف، ومع ذلك فهو غاية في الفصاحة وبديع النظم بخلاف كلام البشر من نثر أو شعر، فقد يجيد أحد الشعراء في المدح دون الهجاء أو التأبـين دون التقـريظ أو الوصف دون الغزل، أو عكس ذلك، لكنك لا ترى شاعراً ولا ناثـراً يجـيد كل ما سبق من الأساليب بنفس القوة، ولذلك ضرب العرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب.[3]

4 – إن معاني القرآن مصوغة بشكل محكم بديع تصلح لأن يخاطب بها الناس على اخـتلاف بيـئاتهم وتفاوتهم في الثقافة والعلوم بحيث تؤدي الغرض الذي سيقت من أجلـه، فيتأثـر كـل سـامع لهـا ويفهم منها مقصدها على اختلاف ثقافة السامعين وعقـولهم، استمع إلى قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِـرَاجًا وَقَمَـرًا مُّنِيرًا)[4]، فالعرب في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام فهموا من هـذه الآيـة، علـى قلة علومهم، دليلاً على قدرة الله سبحانه وهو: أنه خَلَقَ الشمس والقمـر يبعـثان بالضياء إلى الأرض، وقد غاير الله سبحانه في التعبير بالنسبة لكل

1– سورة الحج : الآية2،1.

* – سورة النساء: الآية:82.

2– انظر الباقلاني، إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص36، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق ص10–11 ، (بتصرف).

3- ينظر الباقلاني : إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص36– 37 ، (بتصرف)

4- سورة الفرقان : آية 61 .

منهما تنويعاً للفظ، وهذا معنى صحيح تدل عليه الآية، وأما عالم اللغة فيفهم أن الآية سيقت للدلالة على قدرة الله، وسمى الله الشمس سراجاً لأنها تجمع إلى النور الحرارة، وسمى القمر منيراً لأنه يبعث بضياء دون حرارة، وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية واضحة، وأما علماء الفلك في هذه الأيام، فقالوا: نعم الآية مسوقة للدلالة على قدرة الله، لكن الله سبحانه غاير بين وصف الشمس وبين وصف القمر، فسمى القمر منيراً لا مضيئاً لأنه جسم مظلم يعكس ما يسقط عليه من ضوء الشمس، وهذا صحيح لغة فإننا نقول غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من مصباح في وسطها، أما الشمس فإن الحرارة والضوء ينبعثان منها فناسب تسميتها سراجاً.[1]

1- ينظر محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله، مكتبة الفرابي، دمشق، ط4، 1975، ص136-138 (بتصرف)

الفصل الثاني

سورة النور خطاباً جمالياً

سورة النور خطابا جماليا

المحاور

1- **الترهيب بالعقاب:** (من الآية 01 إلى الآية 10).

- بيان فضل سورة النور (الآية 01).
- عقاب الزناة (الآيتين 02-03).
- معالجة رمي الأزواج (الآيات 06-10).

2- **حادثة الإفك:** من الآية 11 إلى الآية 26).

3- **أساليب الوقاية من الزنا** (الآية 27، إلى الآية 34).

- أدب الزيارة والإستئناس (الآيات 27-29).
- ضوابط العلاقة بين الرجال والنساء (الآيتين 30-31).
- الزواج والاستعفاف كبديل عن الزنا والبغاء (الآيات 32-34).

4- **أثر الإيمان في النفس البشرية:** (من الآية 35 إلى الآية 57) .

- الإتصال بالله نور وسكينة (الآيات 35، 38).
- الابتعاد عن الله ضلال وظلمة (الآيتين 39، 40).
- المعين الأكبر للإيمان (الآيات 41، 46).
- الأدب مع الله (الآيات 47، 57).

5- **أدب الإستئذان ومخالطة الأهل:** (من الآية 58 إلى الآية 61).

6- **أدب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم:** (من الآية 60 إلى الآية 64).

سورة النور

مدنية عدد آياتها 64

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ
عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ
مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ
فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ
أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ
عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ
وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن
تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ
ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ
أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ
أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا
مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ
وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ
أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾
وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ
ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا
تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ
بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ

فِي زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا
بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ
يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ
يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى
بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ
يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا
فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى
عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ
أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا
كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ
أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ

تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ
وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ
أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا
كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ
إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ صدق الله العظيم

سورة النور خطاباً جمالياً

يعتبر القرآن الكريم بسوره المائة و الأربعة عشر، و بآياته الستة آلاف والمائتين و الستة و الثلاثين ، معين الجمال ، وموئل الهدى و النور ، و حجة البلغاء و الفصحاء عبر العصور، و الدارس للقرآن الكريم ليجد نفسه بحق في علٍ مثمر، و أسفل مغدقٍ، و تأخذه طلاوته، و تغمره حلاوته ، حتى ليكاد قلبه ينخلع من صدره ويطير ، تماما كما حدث للمطعم بن عدي رضي الله عنه حين سمع النبي ﷺ " يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور(35) إلى قوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ الطور(38) ــ فهجم عليه الجمال و هزته الروعة – فقال : كاد قلبي يطير "[1] كيف لا و جمال هذا الكتاب من جمال منزله ، و يعلو شأن الكلام بالنظر إلى قائله ، و قد قال رسول الله ﷺ : (... فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه و ذاك أنه منه)[2] *، و في ما كتب الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم ما يبين العلاقة التي تربط الباحث مع القرآن الكريم : " و اعتقادي أن أي محاولة من البشر لإظهار عظمة القرآن و قدسيته، إنما هي وليدة رغبة إيمانية مخلصة فيما يشبه التأسي بموقف نبي الله إبراهيم عليه السلام و هو خليل الله عندما قال بروح الواثق من قدرة الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ البقرة (260) "[3] لا سيما و قد جاء عن ترجمان القرآن عبد

---

1 ــ محمد الغزالي : فقه السيرة ، تح ناصر الدين الألباني ، دمشق ، دار القلم ، ط7 ، 1998 ، ص197 .

2 ــ محمد ناصر الألباني : السلسلة الصحيحة ، ج 3 تح أبو عيدة مشهور بن الحسين ، مكتبة المعارف ، الرياض ط1 ، 2004 ص247 .

* رواه الترمزي والدارمي في كتاب "فضائل القرآن"، (موسوعة الحديث الشريف)، الإصدار الثاني شركة صخر لبرامج الحاسب، السعودية 1991.

3 ــ محمد إسماعيل إبراهيم : القرآن و إعجازه العلمي، مصر، دار الثقافة العربية مصر ، د.ط ، د . ت ، ص4 .

الله بـــن عباس رضي الله عنهما : " إن القرآن ذو شجون و فنون وظهور و بطون، لا تنقـــضي عجائبه ، و لا تبلغ غاياته، فمن أوغل فيه برفق نجا ، و من أوغل فيه بعنف هوى "[1].

و من ذلك المعين الذي لا ينضب نغترف برفق ــ مجانبين العنف و الهوى ــ قبـــسا من النور ، نبتز أنواره ، و نسبر أغواره ، و نستجلي أسراره ، و ذلك القبس بـــل ذلك النور هو سورة النور التي يقول عنها صاحب الظلال : " هذه سورة النور ... يذكـــر فـــيها الـــنور بلفظه متصلا بنور الله ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ويذكر فيها النور بآثاره و مظاهره في القلوب .

و الأرواح ممـــثلة هـــذه الآثـــار في الآداب و الأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه الســـــورة ...

و المحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، و ترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة ... و الهدف واحد في الشدة و اللين هو تربية الضمائر و استجاشة المشاعر ، و رفع المقاييس الأخلاقية للحياة حتى تشف و ترق و تتصل بنور الله"[2]، إنها نور من حيث أنارت السبيل للمجتمع الإسلامي ليواجه أهم مشكلة أخلاقية تقوض أركان المجتمعات ، وتهدم شبكة العلاقات الاجتماعية ، و تنخر دولا و حضارات ، تلكم هي المشكلة الجنسية، و التي أفرزت في عصر الإباحية ما بات يعرف بمرض العصر " الإيدز".

إنـــه لا يهمنا و نحن نتأنق في الرياض الدمثات لسورة النور إلا تلمس مكامن الجمـــال، و مظاهـــر الروعة ، و شواهد الإمتاع و المؤانسة ، و إن تعجب فاعجب لسورة تتناول قضية شائكة خطيرة حساسة، فلا تقع عينك إلا على جمال المعالجـــة، و حـــسن التأتي للنفس البشرية ، و الروعة في بناء سد منيع بين المجتمع الإسلامي و الـــرذيلة ، ســـدٌ لا يُظهَـــرُ و لا يُستَطاعُ له نقبا ، سورة النور إذا، سورة كريمة وجوهرة نفيسة من جواهر القرآن الكريم، ترتيبها في المصحف الشريف (24) عدد آياتهـــا (64) ، تـــرتيب نزولها (102) ، نزلت بعد سورة الحشر ، و هي سورة

---

1 ــ جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، لبنان ، د.ط ، د . ت ، ص448 .

2 – سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م5 ، ص247 .

مدنية بإجماع العلماء ، قال البغوي في تفسيره : " ... مدنية كلها بإجماع العلماء."[1]، و تقع السورة في جغرافيا القرآن الكريم بين جبلين شامخين هما سورة المؤمنون و سورة الفرقان ، و كلاهما مكيتان ــ و لا عجب فقد سطع نور القرآن الكريم من بين جبال مكة ــ و وجه اتصال سورة النور بهما على ما ذكر السيوطي : " ... وجه اتصالها بسورة قد أفلح [يقصد "المؤمنون"] أنه لما قال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ المؤمنون (05) ، ذكر في هذه [يقصد " النور "] أحكام من لم يحفظ فرجه ... و لا ارتباط أحسن من هذا الارتباط و لا تناسق أبدع من هذا النسق... ــ و سر ارتباطها بالفرقان ــ هو أن النور ختمت بقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ النور(64) ، ثم فُصلت هذه الجملة في سورة الفرقان بداية من﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الفرقان (02) ، إلى قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان (02) "[2]، و بمزيد من التأمل نجد مسحة جمالية فذة في سر هذا الترتيب هو أن "المؤمنون" بحاجة إلى "النور" ليكون لهم "فرقانا" يفرقون به بين الحق و الباطل ، وسميت السورة بالنور لورود قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، والنور لغة " الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار."[3] و بهذا يتناسق الاسم مع مضامين السورة من حيث أنها أعانت بانتشار ضوئها على إبصار حقيقة الأمور في المشكلة الجنسية التي عالجتها، و لعلها سميت بالنور لأن المشكلة الجنسية غالبا ما يتحدث عنها سرا و خفاء ، و الملاحظ أن "النور" كلها حروف مجهورة ، فقد جهرت السورة بما لاكته الألسن سرا، و كشفت من حيث أراد الناس الخفاء .

و من أجل المعالجة الجمالية و الأسلوبية للموضوع ــ و هو موضوع الرسالة ــ من الضروري تقسيم السورة إلى محاور كبرى و أخرى فرعية لسببين

---

1 – البغوي : معالم التنزيل ، تح محمد عبد الله النمر و آخرون ، ج6 ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط4 ، 1997 ، ص7 .

2 ــ جلال الدين السيوطي : أسرار ترتيب القرآن،تح محمد عبد القادر دار أبو سلامة، تونس، د.ط، 1986 ، ص14 ، بتصرف .

3 ــ أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ،المصدر السابق ،ج1 ، ص333 .

رئيسين همـــا : أولا ليسهل تناول السورة ، إذ أن كل موضوع يبتغي أسلوبا وذوقا معيـــنا ، فغايـــة آيات الكتاب الكريم هو تهيئة النفوس لحسن التلقي عن الله ، و ثانيا ليـــسهل الـــتحكم بالـــسورة فلا تترك جزئيـــــة من الجزئيـــات إلا و للدراسة فيها نصيب .

و هذه المحاور هي :

1 ــ **<u>الترهيب بالعقاب</u> (من الآية : 01 ، إلى الآية : 10) :**

ــ بيان فضل سورة النور ومنزلتها (الآية 01)

ــ عقاب الزنـــــــــــــاة (الآيتين 2 ــ 3)

ــ عقاب قـــذف المحصنـــات (الآيتين 4 ــ 5)

ــ معالجـــــة رمـــي الأزواج (الآيات 6 ــ 10)

2 ــ **<u>حادثة الإفـــــك</u> (من الآية : 11 ، إلى الآية : 26) :**

3 ــ **<u>أساليب الوقاية من الزنا</u> (من الآية : 27 ، إلى الآية : 34) :**

ــ أدب الزيـــــارة و الاستئنـــــــاس (الآيات 27 ــ 29)

ــ ضوابط العلاقة بين الرجال و النساء (الآيتين 30 ــ 31)

ــ الزواج و الاستعفاف كبديل عن الزنا و البغاء (الآيات 32 ــ 34)

4 ــ **<u>أثر الإيمان في النفس البشرية</u> (من الآية : 35 ، إلى الآية : 57) :**

ــ الاتصال بالله نـــور و سكينـــة (الآيات 35 ــ 38)

ــ الابتعاد عن الله ضلال و ظلمة (الآيتين 39 ــ 40)

ــ المعين الأكبر للإيمـــــــان (الآيات 41 ــ 46)

ــ الأدب مـــــع اللـــــــــه (الآيات 47 ــ 57)

5 ــ **<u>أدب الاستئذان و مخالطة الأهل</u> (من الآية : 58 ، إلى الآية : 61) .**

6 ــ **<u>أدب المؤمنين مع رسول اللّـــه ﷺ</u> (من الآية : 60 ، إلى الآية : 64) .**

و قد بدأت السورة بأنواع من الأحكام و الحدود و انتهت بدلائل التوحيد .

- <u>المحـــــــــــور الأول :الترهيب بالعقاب</u> (من الآية01 : إلى الآية : 10) : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا... وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

العنصر الأول : بيان فضل سورة النور و منزلتها ، (الآية 01) : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا... لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

مـــن شأن النفوس التي خبت إلى بارئها و أينعت في حناياها ثمار التوحيد، إذا قـــرع سمعها وعيد الله و عقابه أن تخشى و تتقي، و الزنا من الفواحش التي تأباها الطـــباع الـــسليمة ـــــ فطرة الله التي فطر الناس عليهاـــ و تفر من مقرباتها فرار العاري بسوءته ، و قد جاءت فاتحة السورة تهديدا بالعقاب ، وإشهارا للجريمة على رؤوس الأشـــهاد ، ودعـــوة للـــتحقق و التثبت صونا للأعراض و الأحساب ، و قد انفـــردت الـــنور بافتتاحية لم تشاركها فيها غيرها من سور القرآن الكريم ، قال سيد طنطاوي : " افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى من سور القرآن الكريم."[1] و إذا علمنا أنه من البلاغة حسن الابتـــــــداء من حيث التأنق في الكـــلام و إخراجه مخرجات يتدفق معه الحسن و البهاء ، فإن براعة الاستهلال هنا تـــسكر الألباب " ... وبراعة الاستهلال هي أن يشتمل أول الكـــلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ، و يشير إلى ما سبق الكلام لأجله "[2] و قد كانت كلمة ﴿ سُورَةٌ ﴾ مـــستهل "الـــنور" ، و كـــونها نكرة يثير عند السامع استفهاما عن ماهيتهـــا ، و هو المطلـــوب فالـــسورة تثير عدة إشكالات ، و السورة لغة " ... اسم للمنزلة الشريفة ولذلك سميت السورة من القرآن سورة ، و منه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة *** ترى كل ملك دونها يتذبذب "[3]*

و ورود كلمة { سورة } هنا يناسب الحال المتكلم فيه و المتعلق بأحكام و آداب يذكر بها ذوو النفوس الشريفة من المؤمنين لينالوا الدرجة الشريفة في الدنيا و الآخرة ، وهي تشير إلى تعلقها بأمر الله للنبي في آخر سورة "المؤمنون" ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فاستجيب دعاؤه ﷺ، فأنزلت سورة النور رحمة

---

1 ــ محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط ، مطبعة السعادة ج1 ، القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص3043 .

2 ــ السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص 354 .

3 ــ الشوكاني : فتح القدير ، ج 5 ، مراجعة يوسف الغوش دار المعرفة ، بيروت ،ط3 ، 1997 ، ص182.

* هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، توفي سنة 18ق هـــ. ينظر شرح المعلقات العشر للشيخ أحمد الأمين الشنقيطي، تح محمد الفاضل، المكتبة العصرية، بيروت دت، دط ، ص 219.

بعباده المؤمنين ، و هنا نكتة أخرى إذا ذهبنا مذهب القائلين بخبرية ﴿ سُورَةٌ ﴾ وهي" ... هذه { السورة } و أشير إليها بهذه تنزيلا لها منزلة الحاضر المشاهد ..."[1] و عن خبرية ﴿ سُورَةٌ ﴾ يقول ابن عاشور" ... يجوز أن يكون﴿ سُورَةٌ ﴾ خبر عن مبتدأ مقدر دل عليه ابتداء السورة فيقدر هذه سورة ، واسم الإشارة المقدر يشير إلى حـــاضر في السمع وهو الكلام المتتالي"[2] ثم أردفـت ﴿ سُورَةٌ ﴾ بمصدرها و حكمها وصفاتها ، تشويقا للسامع ، و ترتيبا للأمور في ذهن المتلقي ، و تهيئة للنفوس للتلقي عن الله، فكلمة ﴿ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ تسند الإنزال إلى ذات الله تعالى إذ الضمير يعود عليـــه ، و في ذلك تشريف و تنزيه و رحمة بالخالق على مخلوقه ، و كلمـــــــــة ﴿ فَرَضْنَاهَا﴾ حكم يتعلق بغاية الإنزال و هو التنفيذ تعبدا و تقربا، و الفرض لغة " الحز في الشيء، و الفرض أيضا ما أوجبه الله تعالى لأن له معالما و حدودا ."[3] و من المعلوم كما ذكر في أسباب النزول للسيوطي أن سورة النور لم تنزل جملة واحدة، واستعمال كلمة فرض ــ وهي الحز في الشيء ــ مع الإنزال يرسم صورة بيانية مشرقة لاقتطاع النور على حسب الحوادث، و السياق الذي بعدها و تكرار الإنزال يدعم هذا المذهب، و يرى صاحب التحرير و التنوير أن كلمة ﴿ فِيهَا ﴾ " ... استعارة مكنية بتشبيه آيات هذه السورة بأعلاق نفيسة تكتنز ويحرص على حفظها من الإضاعة و التلاشي كأنها مما يجعل في خزانة و نحوها"[4] و ﴿ آيَاتٍ ﴾ جمع آية و هي لغة بمعنى العلامة و هي " ... قطعة من الكلام القرآني دالة على معنى مستقل ..."[5] فهي بذلك أربع و ستون علامة نورانية في طريق المجتمع الإسلامي اشتملت على الهدى و التوحيد و الحجج و التمثيل، و﴿بَيِّنَاتٍ ﴾ أي واضحات و هو مجاز عقلي لأن البينونة في المعاني و ليست في

---

1 – الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، ج13 ، دار الفكر ، بيروت ، د. ط ، 1983 ص308 .

2 – الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، ج9 ، دار سحنون للنشر ، تونس ، د. ط ، 1997 ، ص182 .

3 ــ زين الدين الرازي : مختار الصحاح ، ج1 ، تح مصطفى ديب البغا ، دار الهدي ، الجزائر ، د. ط، 1990، ص238 .

4 ــ الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير، المصدر السابق ،ج9 ، ص 425 .

5 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 425 .

الآيات ، و لما أوضح الأسلوب القرآني أن السورة من لدن الله و آياتها من عنده، واضحة سافرة ليس عليها نقاب و ليس دون معانيها حجاب، جاءت كلمة ﴿ لَعَلَّ ﴾ لتبرز إشفاق الله على عباده و رحمته بهم، وجـــاءت ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بصيغة المضارع لتفيد التجدد و الاستمرار فالمرجو من العباد أنه كلما دعت الحاجة تذكروا هذه الأحكام و تلكم الآداب. و هذه الآية الأولى افتتاحية متماسكة جدا دلت على مجموع السورة ابتداءا و نوهت بكل جزء منها انتهاءا .

و قد عالج المحور الفرعي الأول عقاب الزناة، و ساوى بين الرجال و النساء فـــي العقـــوبة، و شرع العقاب مائة جلدة تأديبا للفاعل، و ردعا للطامع ، و عبرة للـــسامع، و طالـــب بالحـــزم فـــي تنفيذ العقاب دون رأفة مخلة بدين الله إذ أن في القـــصاص حـــياة للمجـــتمع كله، و طالب أن يكون العقاب على مرأى و مسمع من طائفـــة مـــن المؤمنين، زيادة مبالغة في صرف الشرفاء و ذوو المروءات عن هذا الإثم، ثم قطع السبيل بين المؤمنين و بين الزناة بان حـــرم الارتباط بهم .

<u>العنصر الثاني :عقاب الزناة،</u> (من: الآية 02، إلى الآية 03)

﴿ الـــزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ... وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، بعد تلك الافتتاحية من الآيـــة الأولى انتقل الخطاب القرآني مباشرة إلى الشروع في الإدانة و تحديد العقوبة و كيفيـــتها ، ذلك أن جريمة الزنا لا تحتاج إلى كثير مقدمات ، و لا تحسم بأنصاف الحلـــول ، و لا تحتمل إرجاءا أو تساهلا ، و كأن هذه البداية المتوثبة وحدها تنوه بـــضرورة المـــسارعة بالحـــسم بكل عزم و مضاء ، و ذلك" ... ابتداء كلام و هو كالعـــنوان و الترجمة في التبويب فلذلك أتى بعده بالفاء المؤذنة أن ما بعدها في قوة الجواب ، و أن ما قبلها في قوة الشرط ... "[1]، وجاء تقديم الزانية على الزاني إشارة بديعـــة ممن يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير؛ فالمرأة هي محرك الشهوة بتبرجها وخروجها سافرة عارضة نفسها لحما على العيون الجائعة، ولكون العار بها أشنع ، وبـــدو الجرم بها أسرع ، لدواعي الحمل و المخاض، كما جاءت اللفظتان معرفتان بالألف و اللام ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ ، مما يفيد الاستغراق للجنس ؛ فكل من اقترف

1 ــ الطاهر بن عاشور : المصدر نفسه ، ص426 .

الجريمة زان سواء كان ذكـــــــرا أو أنثى، كبيرا أو صغيرا، وجيها أو وضيعا، حـــرا أو مملوكا. و لاحظ التموقع المقصود لحـــــرف العطـــف ﴿ فَاجْلِدُوا ﴾ ، الـــذي يفيد الترتيب بدون تراخ، فالجرم إذا اتضح وبان ، كانت المسارعة إلى تنفيذ الحـــد بغير تراخ ، مسارعة إلى عزل المجتمع عن هذه الرذيلة ، و" في لفظ الجلد ، إشـــارة إلـــى أنـــه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحـــم ..."[1] ، وذلك أن الحد هنا مقـــصود به التأديب و الردع لا القتل ، و ﴿ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ﴾ ، مبالغة في التأكيد على أن يشمل العقاب الصارم و العادل كلا منهما ، و تذكير ﴿ كُلَّ وَاحِدٍ ﴾ ، تغليب للمذكـــر كمـــا يقتضي لسان العرب، غير أنه أيضا تلويح بإفلاس رجولة الزاني في ســـوق الرجال ، إذ أن المرأة كونها زانية يجعلها حبيسة بيتها ، من حيث لا يستطيع الـــرجل الزانـــي ذلك ، إذ لا بد له من مباشرة الأعمال ليدفع الجوع و الحاجة فبأي وجه يقابل الناس ، و في التقديم و التأخير زيادة جمال ، فتقديم الفعل ﴿ فَاجْلِدُوا ﴾ ، تـــنويه علـــى التركيز على إقامة الحد لا على المجلود فيجب إقامة الحد على الجاني كائـــنا من كان ، و حسبنا في هذا المقام قول الرسول الكريم ﷺ : [..و أَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا]* كما أن الجزاء لا يكون إلا خبرا على مـــذهب النحويين ، و ﴿ مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ تعليق العدد بمحل إيقاع العقوبة و هو الجلد ، فما ينبغي أن تصرف عنه جلدة واحدة أو يزاد عن المائة .

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ ﴾ ، بدلا عن و لا ترأفوا لأن الأخذ " حقيقته الاستيلاء و هو هنا مـــستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين و امتلاكها إراداتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحد "[2] و الرأفة لغة "أشد الرحمة وأرقها ..."[3] و الباء في ﴿ بِهِمَا ﴾ ، سببية أي لا تأخذهم الرأفة بسبب جلدهما ."...النهي عن أن تأخذكم رأفة كناية عن النهي عن اثر ذلك وهو ترك الحد أو نقصه "[4] ذلك لأن الرأفة من الطباع الإنسانية والنهي

---

1 ــ أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري : الكشاف ، ج4 ، دار الكتاب ، بيروت ، د. ت، د. ط، ص375.

* رواه أبو داوود في سننه، كتاب الحدود، رقم الحديث 4373.

2 - الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ،ج9 ، ص429 .

3 – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي : القاموس المحيط ،ج1، المصدر السابق ، ص381 .

4 - الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ،ص429 .

عـــنها تحمـــيل بما لا يستطاع فلا يتعلق بها النهي فما جعل الله علينا في الدين من حرج ، و إذا كانت "... الألفاظ تثبت لها الفضيلة و خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنـــى التي تليها ."[1] كما قال الجرجاني فإن عبارة ﴿ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، تلاؤمها مع النهـــي عـــن الرأفة أثناء إيقاع العقوبة في كون الرأفة في هذا المحل مذمومة كونها تعطـــيل لدين الله ، ثم أتبعها بقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، و في ذلك منتهى الـــروعة في استفزاز النفس المؤمنة في عدم التسامح في حدود الله، فالجملة السابقة شـــرط محـــذوف الجـــواب ، إذ أن الـــسياق الذي قبله يشير إليه ، فالمعنى إن كنتم تؤمـــنون بالله فلا تأخذكم بهما رأفة في دين الله؛ كقول أحدنا وهو يريد دفع مخاطبه للـــوفاء بعهده دون تردد ، فيجعل رجولته على المحك حين يقول له : إن كنت رجلا فأنجـــز وعدك ، و مجيء عبـــــــارة ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، نقلة للنفس المؤمنة من إطار ها الزماني و المكاني إلى أفق أرحب و أوسع ، فإذ بها ترى العقاب الأليم في الدنـــيا تطهير للجاني رجاء النعيم المقيم في الدار الآخرة ، فتسارع إلى إيقاع العقاب كمن يسارع في غسل الثوب رجاء تخليصه من انتشار الدنس .

﴿ وَلْيَـــشْهَدْ عَذَابَهُمَا ﴾ ، فاللام هنا للأمر و تفيد تأكيد أن يشهد عذابهما طائفة مـــن المؤمنين ، إنها دقة بالغة في وضع الكلمات ، فهؤلاء سيشهدون عذابا لا عرسا أو نحـــوه ، فـــلا بد أن يكون الإيمان زادهم في هذا المشهد ؛ إيمانا يرى في الحدود حكمة بالغـــــــة من العزيز الحكيم" ... و أوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين لأن الفاســـق من صلحاء قومه أخجل "[2] و الطائفة كما ذكر البقاعي : " ... جماعة يمكـــن إطافـــتها أي تحلقها و حفوفها بكل واحد منهما "[3] فكأن هذه الكلمات القليلة العـــدد الكثيرة المدد ، ترسم مشهدا ثلاثي الأبعاد ، فالزانية و الزاني في وسط جمع

---

1 - عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط ، 1991 ، ص 16 .

2 ــ فخر الدين محمد بن عمر الرازي : مفاتيح الغيب،دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج11، ص 218 .

3 ــ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور،ج5، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د. ط ، 1995 ، ص439 .

يشهدون عقابهما على يد جلاد يرى في جلدهما امتثالا لأمر الله ، و تطهيرا لنفسيهما من دنس المعصية .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً... عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال الشوكاني : " ... المقصود زجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا و هذا أرجح الأقوال ... " [1] و تقديم الزاني هنا على الزانية ــ عكس الآية السابقة حين تقدمت الزانية على الزاني ــ ضرورة يقتضيها السياق ، فالحديث هنا عن النكاح و الرجل هنا هو الأصل ، فهو الذي يطلب ود المرأة ابتغاء نكاحها فانظر كيف يراعى السياق ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ مريم (64) ، و بما أن الحديث هنا أشبه بالتوطئة بين يدي الحكم تكرر ذكر الكلمات المنفرة من الزنا و الشرك ، و كثرت الحروف المجهورة ليكتمل المشهد كأساس متين يبنى عليه حكم تحريم نكاح الزواني ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فالزاني لا يرغب في العفائف ، و الزانية لا يرغب بها الأعفاء ، و لا ينبغي للمؤمنين الذين يقولون ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان (74) ، لا ينبغي ارتباطهم بمن أصبح الزنا لهم عادة . و هكذا بدأ هذا المحور الفرعي الأول بإشهار العقاب و انتهى بعزل الجناة عن المجتمع، بل و جعل للزانيات مخرجا بارتباط الزناة بهن، فانظر إلى آثار رحمة الله بالجناة و التقاة .

العنصر الثالث: عقاب قذف المحصنات ،(من : الآية 04 ، إلى : الآية 05)

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، تناول المحور الفرعي الثاني قضية لا تقل خطورة عن الأولى و تنذر شبكة العلاقات الأسرية والاجتماعية بالتماهي و الفساد ، تلك هي قضية قذف المحصنات ، فالأسرة آية من آيات الله ، وقد أولاها الإسلام عناية فائقة لأنه في صلاحها صلاح الأمة ، و كي لا يظل هذا العش الآمن عرضة لمخالب آكلات الأعراض ، كانت الوقاية أبلغ أسباب العلاج ، فقد رتب الله على القذف دون بينة من شهداء أربع ، عقابا اللسان يتلجلج مرات ومرات قبل الجرأة على الشهادة مما يجعل الستر أمن من البوح .

---

1 ــ الشوكاني :فتح القدير ،المصدر السابق ، ص**184** .

" الرمـــي حقيقـــته قذف الشيء من اليد ... و حذف المرمي به في هذه الآية لظهـــور المقصود بقرينة السياق ... و المحصنات هن المتزوجات من الحرائر ... والمحـــصن اســـم مفعول من أحصن الشيء إذا منعه من الإضاعة و استيلاء الغير علـــيه ، و حذف متعلق الشهادة لظهور أنهم شهداء على إثبات ما رمى به القاذف "[1] فالرمـــي هـــنا هو القذف بالقبيح الشنيع ، و هو تشبيه مليح هنا ، فكأن اللسان تحول إلـــى منجنيق ، و الكلمات إلى أحجار، والنساء في خدورهن إلى حصون ، و غاية الرامـــي أن يحـــدث فـــي الحصن ثلمة ، و حـــــرف العطف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد التـــرتيب مـــع التراخـــي تدليل على عدم المسارعة في العقاب حتى التثبت، فليست الأســـر و الأعراض طعمة تلوكها الألسن ، و الملاحظ أن الجملة المعطوفة جاءت بصيغة النفي ﴿ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ، إذ لا يمكن في مجتمع يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يشهد أربعة من العدول جريمة الزنا بكل تفاصيلها إلا إذا وقعت في قارعة الطـــريق ، و هـــذا محـــال في مجتمع دينه الحياء ، و الشهداء الأربع زيادة تجسيد للحصن ذي الجهات الأربع ، ثم عطف على الجملة السابقة بحرف العطـــف ﴿ ف﴾ ـــــ تـــرتيبا بـــلا التراخي ــ فقد تأنى في الأولى للتثبت ، و سارع في الثانية لقطع الـــسبيل علـــى الفضيحة و حماية للحصن من الانهيار ، و كان عقاب شهداء الزور قـــريبا مـــن عقـــاب الـــزناة إذ كلا الأمرين مداره العرض ، مع إسقاط الشهادة في المستقبل ليتحول الشهداء إلى مشهود عليهم، فانظر كيف أدت حروف العطف دورا حاســـما فـــي تجسيد الصورة ، و اختصرت كلاما طويـــلا ، و أشاحت من الإيجاز وشاحا جميلا ، و حصر الفسق في هؤلاء ﴿ و أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، زيادة تنكيل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا... ﴾ ، و الاستثناء هنا مناسب للفاصلة التي انتهت بها الآية ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فمن رحمته أنه غفر لهم ما تابوا و أصلحوا ، و من رحمته أنه لم يذكرهم بذنبهم ، فاستعمال اسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ ، يعود على ما مضى من رمي المحصنات و الجلـــد و التفسيق ، و انظر إلى الموقع الحسن لحرف العطف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، كيف صور إسراع الله بالصفح الجميل

---

1 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ،ج9 ،ص435 .

عن عباده المذنبين ، و بهذا يكتمل المشهد اكتمال حرب وضعت أوزارها وباشر أهلها بالسلام .

- العنصر الرابع : معالجة رمي الأزواج (من الآية: 06، إلى الآية: 10)

﴿ وَالَّـذِينَ يَـرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ... وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ، إنه لأمر خطير أن تتداعـى الأسرة من داخلها ، و بعد أن كانت القذائف من خارج الحصن ، فإذا بأهل الحصن يخربونه بأيديهم و لخطورة هذه القضية و حساسيتها أخذت المساحة الأكبر، و شملت 50 % من المحور الأساس ، لفظة ﴿ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، لها ظلال مؤثرة في الحـياة الـزوجية ، و لا يمكن تعويضها بكلمة أخرى، كنسائهم مثلا ، ذلك أن لفظة الزوج تشير إلى شقك الآخر، فالرامي حين يرمي إنما يرمي شقه الآخر ، و بعبارة أخرى يرمي نفسه ، و لأنه في الغالب يتعذر وجود أربعة شهداء على خيانة زوجية، كانت شهادة الزوج معادلة لشهادة الشهداء الأربع زائداً شهادته هو، و حصر الشهادة فـي أهـل البيت لا يخفى ما فيه من الستر و محاصرة الفضيحة فجاءت كلمة ﴿ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ، على قول النحويين أن المستثنى داخل في المستثنى منه ، كأنهم أخرجوا من جملة الشهداء لتصان الأسرة من اطلاع غير الأمناء عليها " ... ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُـهَدَاءُ إِلَّـا أَنْفُسُهُمْ ﴾ ، فإن أنفسهم بدل من شهداء لأن لهم الخبر."[1] و يأتي حرف العطـف ﴿ فَ ﴾ ، مرة أخرى ليشير إلى سرعة لملمة هذه القضية، و في استخدام الضمير في قوله : ﴿ أَحَدِهِمْ ﴾ ، بدل أحد الأزواج إشارة لطيفة إلى الستر المطلوب في مثل هذه القضايا " و في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، حكاية للفظ اليمين مع كـون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي يقـول : إني لمن الصادقين فيما ادعيت عليها ."[2] و أن يراعى الضمير في سياق الغيبة إشارة من طرف خفي إلى التثبت ، نزولا به منزلة الغائب .

---

1 – أبو عباس محمد بن يزيد المبرد : المقتضب ، تح حسن حمد ، ج1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999 ص282 .

2 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ،ج9، ص439 .

و يسمى اليمين هنا شهادة لما يترتب عن ذلك من العقاب و الفضيحة ، و ليدرك الزوج حجم المسؤولية في ما هو مقدم عليه ، ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ :" الشهادة، قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر"[1].

﴿ وَالْخَامِسَةُ ﴾، مبتدأ خبرها ﴿ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ، ومجيء اللعنة هنا والغضب في الآية التي تليها ليس اعتباطا، فاللعن لغة : "ل.ع. ن، اللَّعْن الطَّرْد والإبْعاد من الخير"[2] فمن شأن شهادته هذه ــ إن صحت ــ أن تجعل الرجال ينفرون من هذه المرأة و يلعنونها و يبعدونها عن أزواجهم .

"﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ ، مجازه ، عنها الحد والرجم."[3] و يدرأ من درأ وهو لغة كما جاء في اللسان " (درأ) الدَّرْءُ الدَّفْع دَرَأَهُ يَدْرَؤُهُ دَرْءاً ودَرْأَةً دَفَعَهُ "[4] و يفهم من صاحب تاج العروس أن الدرأ هو شدة الدفع أو الدفع الشديد " قال أبو ذُؤَيب *:

إذا نَهَضَتْ فيه تَصَعَّدَ نَفْرَهَا ... كقِتْرِ الغِلَاءِ مُسْتَدُّر صِيَابُهَا

استعار الدَّرّ لشِدَّةِ دَفْعِ السِّهَامِ "[5] أي يبعد عنها العذاب بشكل قاطع أن تشهد مثله على كذبه و براءتها، و يلاحظ هنا تكرار الطباق ــ الجمع بين ضدين ــ ﴿الصَّادِقِينَ ... الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ليجسد حالة التنازع بين الزوجين ، و لتثبت الزوجة

---

1 ــ أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القران،تح:محمد سيد كيلاني،دار المعرفة،بيروت، د.ط،دت، ص140

2 ــ فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، المصدر السابق،ج11، ص284 .

3 ــ السيوطي : الإتقان ، المصدرالسابق ، ج1 ، ص84 .* هو جويلد بن خالد بن محرث بن زبيد، توفي سنة 67 هـ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، للدكتور عفيف عبد الرحمان، دار المناهل بيروت، لبنان، ط1 ، 1996، ص 92.

4 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة (درأ)، المصدر السابق، ج2 ،ص959 .

5 ــ أبو فيض محب الدين مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، ج8، تح علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1994، ص2819 .

براعتها جاءت كلمة ﴿ غَضَبَ ﴾ ، بدل اللعن في الآية السابقة ، ذلك لأن الغضب"مِن اللّه سُخْطُه على مَن عَصاه وإعْراضُه عنه ومعاقبته له "[1].

و خـــتم هـــذا المحور بما يوجب لله الحمد و الثناء ، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَـــتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ، و ﴿ لَوْلَا﴾ معناها امتناع الشيء لوقوع غيره، فقد امتنع العذاب العظيم الذي كان من الممكن أن يصيب الزوج إن لم تصح شهادته، أو الـــزوجة إن صح عليها الجرم و هذا الامتناع بفضل الله و رحمته ، و في الباب كلام نفيس لابن عاشور ننقله على طوله لفائدته " وجواب ﴿ لَوْلَا ﴾ ، محذوف لقصد تهـــويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سبباً في امتناع حـــصوله، و التقدير : لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالبَ بعضكُم على بعض ، ولولا رحمة الله بكم فقدر لكم تخفيضاً مما شـــرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر، لما استطاع أحد أن يسكت على ما يـــرى من مثار الغيرة ، فإذا باح بذلك أُخذ بعقاب وإذا انتصف لنفسه أهلك بعضاً أو ســـكت على ما لا على مثله يغضى، ولولا أن الله تواب حكيم لما رد على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة و قبول الشهادة ، و في ذكر وصف « الحكيم » هنا مع وصف ﴿ تَوَّابٌ ﴾ إشارة إلى أن في هذه التوبة حكمة و هي استصلاح الناس."[2]، و حـــذف جـــواب لولا هو من باب الرفق ، فالتذكير بالفضل دون ذكر سببه زيادة فـــضل، و رب مـــسكوت عـــنه أبلغ من منطوق به، "ولا يجوز الحذف حتى يكون المحذوف معلوماً بما يدل عليه من متقدم خبر أو مشاهدة حال."[3] و الحذف معروف عند العرب، يقول عبد الرحمان بن أبي بكر المعروف بجلال الدين السيوطي : "من ســـنن العرب الحذفُ و الاختصار ، يقولون: واللّه أفعلُ ذاك ، تريدُ لا أفعل . وأتانا عند مَغِيب الشمـــــــــس ، أو حين أرادت، أو حين كادت تَغْرُب، قال ذو الرّمة :

---

1 ــ ابن منظور : لسان العرب،مادة (غضب)، المصدر السابق ، ج4، ص992 .

2 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9، ص492 .

3 ــ المبرد :المقتضب ، المصدر السابق ، ج1 ، ص77 .

فلما لَبسْن الليل أو حين نصَّبتْ *** له من خَذَا آذانها وهو جانحُ "[1]*

و هكذا ينتهي المحور الأول بإعلان توبة الله على عباده ، و إظهار مدى حكمته فيما شرع و قضى ، و يلاحظ في هذا المحور أن أكثر من 60 % من أفعاله جاءت بصيغة المضارعة لتفيد التجدد و الاستمرار ، و هو الأنسب في تقعيد الأحكام ، و لأنها لا تختص بعصر من العصور و لا بزمن من الأزمان ، ولكنها صالحة ما تعاقب الليل و النهار ، و ما ظل في الحياة الدنيا إنسان ، و يعتبر المحور الأول توطئة لما يأتي بعده ، فقد قعدت فيه القواعد ، و المحاور التي بعده بمثابة تطبيقات تلك القواعد.

- المحـــور الثـــاني: حادثـــــة الإفـــــك (من: الآية 11 إلى: الآية 26)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ... لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

إن الظاهـــرة الكبرى التي تتجلى لنا هنا هي تجسيد المعاني و سلخ الشخوص مـــن لدنها، فالمحور يتحدث عن قصة أو حادثة مروعة حدثت في دنيا الناس ، و قد تتكرر ما بقي الأفاكون على وجه الأرض. و لأن الحادثة المتناولة مست بيتا يفيض الطهـــر مـــن جنـــباته ، و يتنزل الوحي في باحاته ، و لأن صاحب هذا البيت قدوة العالمين ، و إمام المتقين ، وخاتم الأنبياء و المرسلين ، و الحادثة المروعة قذف في أحـــب نـــسائه إلى قلبه ، و آثرهن عنده ، الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عـــنها، و لأن هذه الفرية هزت المجتمع الإسلامي من أعماقه ، لأجل ذلك كله كان تجسيد المعاني أوقع في النفوس ، و أبلغ في كشـــــف الملابسات ، و فضح الجناة .

و لنتطلع من شرفات المعاني القرآنية على بساتين الجمال ، من الضروري بمكان أن نعرف القصة أولا من لسان أصحابها ، و ننقل عن الواحدي الحادثة على طولها ليتضح الإعجاز و الإيجاز في الكتاب المبين : " ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت عائشة رضي الله عنها :

---

1 ــ عبد الرحمان جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة، ج1 ، ضبط و تصحيح محمد جاد المولى و علي البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، (د ت) (د ط) ، ص101 .* هو غيلان بن عقبة كنيته أبوا الحارث، توفي سنة 117 هـــ. ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 71.

فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ و ذلك بعد ما نزلت آية الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله ﷺ من غزوته وقفل و دنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون ، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه ، قالت عائشة : و كانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه و ظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعوا إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، و كان صفوان بن المعطل السلمي الذكواني قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني ، و قد كان يراني قبل أن يضرب علي الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني. فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، وهلك من هلك في، و كان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمتها شهراً و الناس يفيضون في قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يحزنني و لا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليـــل، و ذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا و أم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق رضي الله

عنه و ابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا و ابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها: بئسما قلت، أتسبين رجلاً قد شهد بدراً؟ قالت : أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قلت : و ماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي رسول الله ﷺ ثم قال : كيف تيكم؟ قلت: تأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت : يا أماه ما يتحدث الناس؟ قالت : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت: فقلت سبحان الله ، و قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي ، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله و بالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك و ما نعلم إلا خيراً ، و أما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ، فقالت : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قال : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر قتله، فقام أسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه ، إنك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان من الأوس

والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار ، فأذنت لها وجلست تبكي معي ، قالت : فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء ، قالت: فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا و كذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، و إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال ، قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ، فقالت : و الله ما أدري ما أقول لرسول الله ، فقلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : و الله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا وقد استقر في نفوسكم فصدقتم به ، و لئن قلت لكم إني بريئة و الله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، و لئن اعترفت لكم بأمر و الله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، و الله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا ما قال أبو يوسف﴿ فَصَبرٌ جَميلٌ وَاللهُ المُستَعانُ عَلى ما تَصِفونَ ﴾ ، {يوسف18} قالت: ثم تحولت واضطجعت على فراشي ، قالت : و أنا و الله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي ، و لكن و الله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، و لشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤية يبرئني الله تعالى بها ، قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ منزله و لا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه عليه الصلاة و السلام ، و أخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت : فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك ، و كان أول كلمة تكلم بها أن قال: البشرى يا عائشة، أما والله لقد برأك الله، فقالت لي أمي : قومي

إليه ، فقلـــــت : و الله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله سبحانه تعالى هو الذي برأني، قالت : فأنزل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جاءُوا بِالإِفكِ عُصبَةٌ مِنكُم ﴾ ، العشر آيات."[1]

هــذه هي القصة كما روتها الطاهرة العفيفة الذيل أمنا عائشة رضي الله عنها، و سنرى كيف أخرج البيان القرآني هذه القصة ، حتى لنكاد نرى الأشخاص عيانا ، و نشعر بأحاسيسهم و نألم بآلامهم ، و نرى أصحاب الإفك يخوضون و نستنكف من أقوالهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ... لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، و يبدأ المشهد منذ الوهلة الأولى مجسدا أمامنا صورة جماعة جاؤوا من بعيد و هم يحملون الإفك ، كأنمـــــا يحملـــــون شيئا له وزن و هيأة و تصويره بهذه الحالة يجسد حالة الافتراء والبهتان "وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل"[2] بل في الأمر لفتة طريفة : فقولنا جاؤوا بفلان ، قد يوحي إلى أنهم جاؤوا به من غير رغبته ، و الإفك لغة من "أَفَكَ، كضَرَبَ وعَلِمَ، إفْكاً، بالكسر والفتح والتحريك، وأُفُوكاً كَذَبَ، كأَفَّكَ فهو أَفَّاكٌ وأفيكٌ وأَفُوكٌ ، و عنه يَأْفِكُه أفْكاً صَرَفَه و قَلَبَه ، أو قَلَبَ رأْيَه ، و فلاناً جَعَلَهُ يَكْذِبُ ، وحَرَمَهُ مرادَهُ."[2] فهو ينصرف إلى الكذب وصرف الناس عن الحق ، و قلب حقائق الأمور، و الإفك أبلغ من الكذب معنى ومبنى؛ فمن جهة المعنى ذكر أبو هلال العسكري في الفرق بين الإفك و الكذب : " الفرق بين الكذب و الإفك : أن الكذب اسم موضوع للخبر الذي لا مخبر له على ما هو به ، وأصله في العربية التقصير[3] و منه قولهم كذب عن قرنه في الحرب إذا ترك الحملة عليه وسواء كان الكذب فاحش القبح أو غير فاحش القبـــح ، و الإفك هو الكذب الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن ومثل قذف المحصنة وغير ذلك مما يفحش قبحه وجاء في القرآن على هذا

---

1 ــ علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن: أسباب النزول، ج1، تح الجميلي، دار الكتاب العربي، القاهرة،(د ط) ص116 .

2ــ الألوسي :روح المعاني ،المصدر السابق ، ج13 ، ص361.

3 ــ الفيروز أبادي :القاموس المحيط، المصدرالسابق ، ج 3 ص18 .

الوجه قال الله تعالى:﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الجاثية (06) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ "[1] فاستعمال الإفك للدلالة على الكذب الفاحش الذي جاءت به تلك العصبة ، أما من حيث المبنى ، فإن أصل الإفك ﴿ إِفْكٌ ﴾ و به حرفان مهموسان وحرف مجهور ، بينما (كذب) العكس به حرفان مجهوران و حرف مهموس، ذلك أن الإفك مسالكه أكثر خفاءا و أشد خطرا من الكذب، و العصبة "...فهي العشـــرة و ما فوقها قليلا..."[2] و إذا كان الأمر إذا جاوز واحدا فشا، فما ظنك في أكثر من العشر ، و الضمير في كلمة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ ، دليل على أن هذه العصبة من ذات المجتمع مما يجعل الخطب أفدح إذ أن ظلم ذوي القربى أشد على النفس من وقع الحسام المهند كما قالت العرب ، و استعمال عبارة ﴿ تَحْسَبُوهُ﴾، تجسيد بارع ، و كأنما أهل المدينة و قد جاءهم هذا الوفد بهذه البضاعة المأفونة شرعوا في حساب ما تجره عليهم هذه البضاعة من شرور، و قد جاء في " التهذيب حَسِبْتُ الشيءَ أَحْسَبُه حِساباً "[3]، و نفي الشر في هذه القضية تسلية للمؤمنين، و إثبات نقيضه بـــحرف الإضراب ﴿ بَلْ ﴾ ــ الإضراب هو الإعراض عن الشيء بعد الإقبال عليه"[4]ــ زيادة تسلية و تطمين ، و الإثبات بعد النفي أقوى في الدلالة من النفي بإطلاق نحو قولنا : لا إله إلا الله، و تكرار ﴿ لَكُمْ ﴾ ، بديع من حيث الإشعار بمزيد العناية ، و من حيث علم البديع فيه عكس وتبديل وهو " ...أن يقدم في الكلام جزءا ثم يؤخر... (و قد) يقع بين لفظين في طرفي جملتين كقوله تعالى: ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ البقرة (187) "[5].

---

1 ــ أبو هلال العسكري :الفروق اللغوية، المصدر السابق ، ج1 ، ص450 .

2 ــ أبو هلال العسكري :المصدر نفسه ، ج1 ، ص107 .

3 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة(حسب) ، المرجع السابق ، ج1 ، ص630 .

4 ــ الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، ج1 ، دار الندى ، الاسكندرية ، مصر ، (د ط) 2002 ، ص8 .

5 ــ جلال الدين القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، ج1 ، تعليق محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط3 ، 1985 ، ص113 .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ ، و الضمير عائد على العصبة ، والاكتساب لغة كما يوضح صاحب اللسان"(كسب) الكَسْبُ طَلَبُ الرِّزْقِ وأَصلُه الجمع كَسَبَ يَكْسِبُ كَسْباً و تَكَسَّبَ واكْتَسَب قال سيبويه كَسَبَ أَصابَ واكْتَسَب تَصَرَّف واجْتَهَد"[1] ، كأنما كانت العصبة بما جاءت به تبتغي رزقا ، فنال كل واحد منها على قدر بضاعته و على قدر تصرفه و اجتهاده ، و كأنما ﴿ الْإِثْمِ ﴾، هو العملة التي قبضوها ، قال الألوسي: "﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ ﴾ ، أي من الذي جاؤوا بالإفك ﴿ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ ، أي جزاء ما اكتسب و ذلك بقدر ما خاض فيه فإن بعضهم تكلم وبعضهم ضحك كالمعجب الراضي بما سمع وبعضهم أكثر وبعضهم أقل."[2] ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ " الكِبْرُ: العَظَمَةُ.و الإِثْمُ الكَبير ، و هي الكَبِيْرَةُ أيضاً. و قولُه عَزَّ وجَلَّ : " ﴿ والذي تَوَلَّى كِبْرَه ﴾" قال : عُظْمَ القَذْفِ ، وكُبْرَه : يَعْني إِثْمَه وخَطَأَه."[3] فلكل قوم رأس هو المقدم فيهم ، و يذكر أصحاب السير و يرجحون كونه أبي ابن سلول رأس النفاق و عراب الفرقة و الشقاق في المدينة " تَوَلَّيْتُ الأَمرَ تولِّياً إذا وليته قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أَي وَلِيَ وِزْرَ الإِفْكِ و إِشاعَتَه "[4] فمعظم شرر هذه الفتنة صناعة سلولية ، و التعبير عنه بضمير الغيبة ﴿ كِبْرَه... له ﴾ محض ازدراء و إبعاد،"وفي التعبير بالموصول وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطاب ما لا يخفى "[5]. ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوه... إفك مبين ﴾ ، بعد رفع الستار عن مشهد العصبة و معصّبها ، وانكشاف عورتهم أمام أعيننا، جاء الاستئناف بـ ﴿ لَوْلَا ﴾ للتوبيخ والتحضيض، و هي هنا بمعنى هلا ، و الظن هنا يفيد اليقين على مجرى كلام العرب "الظن معروف قال و قد يوضع موضع العلم قال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة:

---

1 ــ ابن منظور: لسان العرب، مادة(كسب)، المصدر السابق ، ج5، ص254.

2 ــ الألوسي :روح المعاني المصدر السابق ، ج13 ، ص363 .

3 ــ الصاحب بن عباد : المحيط في اللغة ، ج2 ، تح آل ياسين محمد حسن ، عالم الكتب ، بيروت ، د. ط ، 1994 ، ص48 .

4 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة(ولي) المصدر السابق ، ج6، ص988 .

5 ــ الألوسي :روح المعاني ، المصدر السابق ، ج13 ، ص364 .

فقلت لهم ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجّجٍ *** سَرَاتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ*

أي اسْتَيْقِنُوا و إنما يخوّف عدوّه باليقين لا بالشك "[1]، و في الأمر تعميم وتخصيص؛ فقد عمّم في السماع و خصص في الظن الذي يفيد قوة المعنى المتولد في النفس حتى بلوغ اليقين، ذلك لأن الكل في السماع يستوون ، و لكن في اليقين المتولد عن هذا السماع يتفرقون ، و لا يظن الظن الحسن إلا من كان له إيمان يمنعه و خشية تردعه ، و أولئك هم ﴿ ... الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ﴾، و في هذا المقام كلام نفيس للألوسي لا مزيد عليه في بابه : " و النكتة في توسيط معمول الفعل المحضض عليه بينه وبين أداة التحضيض و إن جاز ذلك مطلقاً أي سواء كان المعمول الموسط ظرفاً أو غيره تخصيص التحضيض بأول وقت السماع و قصر التوبيخ و اللوم على تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن و التردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأساً في غاية ما يكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنوا أول ما سمعوا ذلك الإفك ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم و تردد بأهل ملتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيراً ﴿ وَقَالُواْ ﴾ في ذلك الآن﴿ هذا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر مكشوف كونه إفكاً فكيف بأم المؤمنين حليلة رسول الله ﷺ بنت المهاجرين رضي الله تعالى عنهما."[2] و انظر إلى حسن كلمة ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ و بعد ذكر المؤمنين و المؤمنات و كيف سيقت بطريق اللف و النشر و هو ضرب جميل في علم البديع ـ"... و هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر مالك واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده عليه"[3] أي ظن المؤمنون بأنفسهم خيرا، و ظنت المؤمنات بأنفسهن خيرا ، مما يوحي بأنهم بعضهم من بعض، و في الأسلوب عدول عن صيغة المخاطب﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾،إلى صيغة الغائب﴿ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ و في ذلك تبكيت و تخويف من انصراف العناية

---

1 ـ ابن منظور : لسان العرب، مادة(ظن)، المصدر السابق، ج4، ص654 . هو دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية، توفي سنة 8 هـ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، مصدر سابق، ص 89.

2 ـ الألوسي :روح المعاني، المصدر السابق ، ج13 ، ص369 .

3 ـ القزويني :الإيضاح: المصدر السابق ، ج1 ، ص114 .

الإلهـية عـنهم إن لـم يتمسكوا بآداب و أحكام الإسلام؛ من ضرورة التثبت والظن الحسن بالمؤمنين .

﴿ لَـوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ... هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ و يعود التوبيخ و الحض مرة أخرى ، إذ الخطـب جلـل و يخشى فيه من الزلل ، فليست الأعراض بالأمر الهين ، كيف والأمـر مـتعلق بمقام النبـوة ، و خبر الآحاد هنا مردود ، و لابد من توافر عدد مـن العـدول ، ـ وهذا تطبيق للأحكام في المحور الأول ـ" فالذين جاءوا بالإفك اخـتلقوه من سوء ظنونهم فلم يستندوا إلى مشاهدة ما أخبروا به ولا إلى شهادة من شـاهدوه ممـن يقبل مثلهم فكان خبرهم إفكاً "[1] و قد أفاد اسم الإشارة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ تـصوير بعدهم عن الله تعالى ، و حصر الكذب فيهم ، و إنه لأمر خطير أن تكتب كـذابا في ديوان ملك من ملوك الأرض فكيف بملك الملوك ، و سرعة الحكم عليهم وحصر الكذب فيهم الذي أفاده حرف العطف ﴿ فَ ﴾ ردع لكل من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد .

﴿ وَلَـوْلَا فَضْلُ اللَّهِ... عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ و تختلف لولا هنا عن سابقتيها ، فليست هـنا بمعنى هلاّ، و ليست للتوبيخ و التحضيض ، و لكنها حرف امتناع لوجود ، أي امتـناع العـذاب العظيم لوجود فضل الله و رحمته ، و لكن تكرار مبناها فيه معنى الاصطحاب ، أي اصطحاب معنى التوبيخ بمعية فضل الله تعالى ، و ذلك أعظم في استـشعار فـضل الله و رحمـته ، و المس كما ذكر البيضاوي في تفسيره : "المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به"[2] و استعارة المس هنا مناسب للعذاب العظـيم في الدنيا أي الجلد كما تقدم ، و في الآخرة النار ، وكلاهما محله البشرة ، ولن تجد و لو استعنت بابن منظـور و لسانه ، و الفيروز و محيطه ، و الرازي وصـحاحه ـ و كان بعضهم لبعض ظهيرا ـ كلمة تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة ﴿أَفَضْتُمْ ﴾ "(فيض) فاض الماء و الدَّمعُ و نحوهما يَفِيض فَيْضاً و فُيُوضةً وفُيُوضاً

---

1 ـ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدرالسابق ، ج9 ، ص447.

2 ـ ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي : أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، ج1 ، تح عبد القادر عرفات ، دار الفكر ، بيروت ، 1996 ، د. ط ، ص118 .

و فَيَـضاناً و فَيْـضُوضةً أي كثر حتى سالَ على ضَفّةِ الوادي"[1] فقد صورت هذه الكلمة كثرت اللغط في هذه القضية ، حتى كادت أرجاء المدينة أن تضيق به فيسيل مـنها إلى غيرها ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ في الكلام نـشر على ترتيب اللف عند أرباب البديع إذ يتعلق الفضل بالدنيا بإسقاط الحد بعفو عائشة و صفوان رضي الله عنهما ، و الرحمة بالآخرة بتوبة الله على المؤمنين .

﴿ إِذْ تَلَقَّـوْنَهُ... وَهُـوَ عِـنْدَ اللَّـهِ عَظِيمٌ ﴾ إذ ظرف متعلق بأفضتم ، و فيه اسـتدعاء للمشهد السابق ، مشهد العصبة أو ركب الإفك ، و تأمل روعة التصوير فـي الاسـتعارة المكنية ﴿ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ فالركب يحمل بضاعة ــ و بئست البضاعة ــ وهـؤلاء متهيـئون لاستقبالها بأيديهم" ﴿ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ تشبيه الخبر بشخص و تشبيه الراوي للخبر بمن يتهيأ و يستعد للقائه استعارة مكنية فجعلت الألسن آلة للتلقي على طـريقة تخييلـية بتـشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء ، وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع لأنه لما كان هذا التلقي غايته الـتحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع مجازاً بعلاقة الأيلولة ، وفيه تعريض بحرصـهم علـى تلقي هذا الخبر فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا ترو ولا تريث ، وهذا تعريض بالتوبيخ أيضاً "[2] و تأمل حسن الإيغال ــ" و هو الإمعان وهو خـتم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها"[3] غير أن الزيادة لها فائدة تؤديها ــ في قـوله: ﴿ وَتَقُولُـونَ بِأَفْـوَاهِكُمْ ﴾ ، و هل للقول آلة غير الفم ؟ غير أن آلة القول اللـسان، و الـشفاه و الأسنان له أعوان ، و بتجاوز الآلة إلى الأعوان دلالة على خواء ما يقولون ، "وكلُّ قولٍ إنما هو بالفم إنما المعنى ليس فيه بيانٌ ولا بُرْهانٌ إنما هو قولٌ بالفمِ ولا معنى صحيحاً تَحْتَه"[4] و في تعطيل اللسان إيعاز بعدم أهليتهم له ، إذ استقبلوا الإفك و تناقلوه في غير روية أو تثبت ، واستهانة بما يعظم عند الله .

---

1 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة(فيض)، المصدرالسابق ، ج4، ص1154 .

2 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 449 .

3 ــ السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص14 .

4 ــ ابن منظور :لسان العرب، مادة(قول)، المصدر السابق، ج5، ص179 .

﴿ وَلَــوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ... بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ، و يعود التوبيخ و التنبيه إلى الأَولَى و الوَاجب مرة أخرى ، و تلعب لولا في هذا المحور دورا محوريا ، كأنما تلوى بها أعــناق السامعين كل مرة باتجاه الإفك و البهتان المبين، بينما نبهت لولا الأولى إلى ضــرورة حــسن الظــن بين المؤمنين ، نبهت لولا الثانية لضرورة التثبت و طلب البينة، فناسب أن تجيء لولا الثالثة بالحوافز لكمال الامتثال ، ثم جاءت لولا الرابعة لمنع تناقل و ترويج الافتراء و الدعاوى الباطلة ، ثم ستأتي لولا خامسة للتأكيد على الحوافــز السابقة و ذلك كله من كمال تربية الله لعباده المؤمنين ليتقلبوا بين الخوف والرجاء .

" وفــصل بين آلة التحضيض و القول المحضض عليه بالظرف لأن الظروف تنزل مــن الــشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها ، وأنها لا انفكاك لها عنه ، ولأن ذكره منبه على الاهتمام به لوجوب المبادرة إلى المحضض عليه"[1] ، و صدر هــذه الآيــــة فــيه شــبه بصدر الآيــــة (12) كلاهما ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ، و في ذلك حسن تأت للنفس ، فبعد أن تتهيأ النفس للتكرار لتشابه الصدرين إذا بالخطاب ينصرف إلى مــنع الترويج الكاذب، فحسن الظن لا يكفي وحده ، و إنما على المؤمنين أن يدرؤوا عــن أنفــسهم مــا يخدش في أعراضهم ، و في الآية توجيه لحسن استعمال اللسان فالتــعبيــــر هــنا لــيس ﴿ بِأَفْــوَاهِكُمْ ﴾ ، و لكن ﴿ قُلْتُمْ ﴾ ، أي القول الحســن المتثــبــت الواثــــق" وإنما قال : ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ دون أن يقول : لــيس لــنا أن نتكلم بهذا ، للتنبيه على أن الكلام في هذا وكينونة الخوض فيه حقيق بالانــتفاء ، و ذلــك أن قــولك : ما يكون لي أن أفعل، أشد في نفي الفعل عنك من قــولك: لــيس لــي أن أفعــل ، ومــنه قــوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾"[2] المائدة (118) وجاء التسبيح فــي سياق التنزيه ليشيع و يفشي على المحور كله جو البراءة و النزاهة و الطهر، فكلمــة ﴿سُــبْحَانَكَ﴾ مجــاز مكنــي عن التعجب ، بل و براءة إلى الله من البهتان

---

1 ــ البقاعي :نظم الدرر، المصدر السابق ، ج5 ، ص452 .

2 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص451 .

العظـــيـــــم "﴿ بُهْتَـــانٌ﴾ أي كذب يبهت و يحير سامعه لفظاعته"[1] ، و استعمال اســم الإشارة ﴿ هَذَا ﴾ يجسد الإفك و كأنه ماثل أمام ناظريك تراه و تسمعه و تشم روائحــه التي تزكم الأنـــوف، ﴿ يَعِظُكُمَ اللَّهُ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ و يعظكم من المــوعظة " (وعظ) الوَعْظ والعِظةُ والعَظةُ والمَوْعِظةُ النُّصْح والتذْكير بالعَواقب قال ابن سيده هو تذكيرك للإنسان بما يُلَيِّن قلبَه من ثواب وعِقاب"[2] وفي المضارعة معنـــى الاستمرار لتكرر تلك الحوادث بتكرر الزمان ، و علو الموعظة ورفعتها في كــونها منسوبة إلى الله عز و جل و محل الوعظ"...كراهة ﴿ أَن تَعُودُواْ ﴾ ، أو في أن تعــودوا، من قولك : وعظت فلاناً في كذا فتركه، وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين، و ﴿إِن كُنـــتُم مُّؤْمِنِـــينَ ﴾ فيه تهييج لهم ليتعظوا ، و تذكير بما يوجب ترك العود ، وهــو اتــصافهم بالإيمان الصادّ عن كلّ مقبح ، و يبين الله لكم الدلالات على علمه و حكمــته بما ينزل عليكم من الشرائع ، و يعلمكم من الآداب الجميلة ، و يعظكم به من المواعظ الشافية ، والله عالم بكل شيء ، فاعل لما يفعله بدواعي الحكمة."[3]

﴿ إِنَّ الَّـــذِينَ يُحِـــبُّونَ... وَأَنْـــتُمْ لَـــا تَعْلَمُـــونَ﴾" فالجملة استئناف ابتدائي ، واسم الموصول يعم كل من يتصف بمضمون الصلة ... فهو تحذير للمؤمنين و إخبار عن المنافقـــين و المـــشركين ... فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه ، وجيء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار ، وأصل الكناية أن تجمع بين المعنـــى الـــصريح و لازمه فلا جرم أن ينشأ عن تلك المحبة عذاب الدنيا وهو حد القـــذف وعذاب الآخرة ... "[4] ، و لاستئناف هنا تفصيل للموعظة في قوله ﴿ يعظكم الله ﴾ ، و إذا كـــان التوشيح في البديع هو أن يدل أول الكلام على آخره ، فإن تقديم علـــم الله عـــن جهل البشر ، دل عليه تقديم المحبة في صدر الآية ، فإن الأحاسيس العمـــيقة لا يمكن أن يطلع عليها البشر ، غير أن رب البشر لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء.

---

1 ــ الألوسي :روح المعاني، المصدرالسابق ، ج13 ، ص374 .

2 – ابن منظور : لسان العرب، مادة(وعظ)،المصدر السابق ، ج6 ، ص952 .

3 – الزمخشري:الكشاف، المصدر السابق ، ج4 ، ص388 .

4 ــ الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص454 .

﴿ وَلَـوْلَا... رَءُوفٌ رَحِـيمٌ ﴾ ، و حذف جواب لولا ، لأن ترك التذكير بمحل التوبـيخ في معرض الامتنان أبلغ و أجمل ، لاسيما بعد كل ذلك البيان ، و بعد كل تلك التوجيهات الحسان" ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ عطف على ﴿ فَضْلُ اللَّـــهِ﴾ و إظهـار الاسـم الجلـيل لتـربية المهابة والإشعار بإستتباع صفة الألوهية للرأفة والـرحمة ، و تغييـر سـبكه و تصديره بحرف التحقيق لما أن المراد بيان اتصافه تعالـى فـي ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين على الدوام و الاستمرار لا بيان حدوث تعلقهما بهم"[1] الرؤوف وهو الرحيمُ لعباده العَطُوفُ عليهم بألطافه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ نداء من الله تعالى و شأن المنادى أن يستجيب على قدر المنادي، و على قدر إيمانه ، و يتلو هذا النداء تصوير بديع إذ يصور الشيطان كالماشي الآمر الناهي و من ورائه ناس ينتظرون أوامره و وصاياه، فيأتي نداء الرؤوف الرحيم لعباده المؤمنين نهيا عن إتباعه ، ثم يستأنف الخطاب القرآني معللا النهي و هو ارتفـاق و لطف بالمؤمنيـن ــ و إلا فالامتثال أوجب و إن لم تتبين العلل ــ و جاءت ﴿ مَنْ ﴾ الشرطية كأنما تجسد خدمات الشيطان ، أي من أراد أن يتنجس بالفحشاء و المنكر فليتبع خطوات الشيطان و في تكريـر كلمة ﴿ الشَّيْطَانِ ﴾ توجيه و تركيز الانتباه على المتبوع ، فهو بعيد عن الرحمان مبعد عنه ، و أصله كذلك لغـــة" الشَّطْنُ مصدر شَطَنَه يَشْطُنُه شَطْناً خالفه عن وجْهه و نيته و الشيطانُ حَيَّةٌ له عُرْفٌ و الشاطِنُ الخبيث و الشَّيْطانُ فَيْعال من شَطَنَ إذا بَعُدَ فيمن جعل النون أَصلاً و قولهم الشياطين دليل على ذلك و الشيطان معروف و كل عات متمرد من الجن و الإنس و الدواب شيطان"[2] ، و في استعمال الشيطان بدل الجن زيادة تجسيد ، إذ الجن من الخفاء و منه قلنا الجنين في بطن أمه ، و عدل عن صيغة المخاطبة إلى صيغة الغيبة في معرض ذكر عمله و ماهية أوامره استخفافا و احتقارا ، و إن كانت الهاء في ﴿ فَإِنَّهُ﴾ ، هاء الشأن فأي شأن لمن أوامره الفحشاء و المنكر ، و تأتي لولا مرة أخرى لتصرف أنظار المؤمنين عن الشيطـــــان المتبوع و أتباعه ، إلى فضل

---

1 ــ الألوسي :روح المعاني، المصدر السابق ، ج13 ، ص380 .

2 ــ ابن منظور: لسان العرب، مادة(شطن)، المصدر السابق ، ج3 ،ص317

الله ورحمته ، فكما جاءت لولا التوبيخية ثلاثا ، جاءت لولا الامتناعية ثلاثا ، لتظل النفس المؤمنة أبدا تحلق في سماء الفضيلة بجناحي الخوف و الرجاء .

إن التوجيهات و الحوادث التي تسرد هنا بأبدع صورة و أجمل حلة غايتها تهذيب النفوس و إصلاحها ، و لا يهذب هذه النفوس و يصلحها كبارئها سبحانه ، فبهذه الآيات البينات و أمثالها يزكي الله من يشاء ، و تأمل إلى التمكين —"و هو أن يمهد للفاصلة القرآنية تمهيدات تأتي به الفاصلة متمكنة في مكانها متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما "[1]— في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فتعلق السمع بفحش القول و منكره، و تعلق العلم بحال المرء و زكاته أي صلاحه .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾"﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين"[2] وقد نزلت هذه الآية لترسم ردة فعل السيد الجليل أبو بكر الصديق بعد براءة ابنته عائشة من الإفك، و قد كان ينفق على قريبه المسكين"مسطح" أحد الذين خاضوا مع الخائضين و هو من المهاجرين فقال الصديق رضي الله عنه عند البراءة: " و الله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى ﴾، إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُم﴾ ، فقال أبو بكر: والله إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه و قال : لا أنزعها منه أبداً "[3] و قد روعي الكمال في ترتيب صفات الموصوف ، لتترك أثرها في نفس السامع و لتهيئته للعفو و الصفح فقدم رابطة الدم ﴿ الْقُرْبَى ﴾، ثم العوز و الحاجة ﴿ الْمَسَاكِينَ ﴾ وجاءت جمعا لتثير أكبر قدر من التعاطف ، فهو مسكين من جملة المساكين ، ثم فضيلة كونه من ﴿الْمُهَاجِرِينَ ﴾ و إذا الحبيب جاء بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع ، و جمع العفو مع الصفح ليكون العطاء على تمام الرضى"و قال الراغب : الصفح: ترك التثريب ، وهو أبلغ من العفو و قد يعفو الإنسان ولا يصفح ، و قال البيضاوي: العفو ترك عقوبة المذنب ، و الصفح: ترك لومه ، قلت: و يدل عليه قوله تعالى:

---

1 — السيوطي : الإتقان ، المصدر السابق ، ص14 ، بتصرف .

2 — البقاعي نظم الدرر، المصدر السابق ، ج5 ، ص455 .

3 — الواحدي :اسباب النزول، المصدرالسابق، ج1 ، ص116 .

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ﴾"[1] ثم ربط ذلك كله بمقابل ترخص معه الدنيا بأسرها وهو مغفرة الله الغفور الرحيم ، و مع أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، إلا أن تصديرها بـ ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ نقل في الخطاب من الخصوص إلى العموم ، و في عدم التشخيص ستر ، وفيه أيضا مقابلة بين ﴿ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ و بين ﴿ المساكين ﴾ ، ليعلم أولئك أن الفضل في رفع مسكنة هؤلاء و التوسعة عليهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ استئناف و مزيد تفصيل للموعظة في قوله : ﴿ يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ... ﴾ ، في الأول توعد على محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، و هنا توعد قاذفي الأعراض ، و الملاحظ أنه قرن كلمة المحصنات هنا بالغافلات المؤمنات عكس الآية (4) ، هناك كان الحديث عن طلب الحجة و البرهان و كأن المحصنات هناك في قفص الاتهام ، وهنا المقام مقام توعد لقاذفي البريئات ، و تصويرهن بالغافلات ، فيه تجسيد بليغ فالرماة يرمون من لا يخطر الرمي ببالهن ، و الغافلات لغة من " الغفلة عن الشيء ، هي ألا يخطر ذلك بباله."[2] و عند صاحب اللسان" (غفل) غَفَلَ عنه يَغْفُلُ غُفولاً و غَفْلةً و أَغْفَلَه عنه غيرُه وأَغْفَلَه تركَه وسها عنه"[3] و قال حسان بن ثابت يمدح عائشة رضي الله عنهما :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنّ بِرِيبَةٍ *** و تُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ*

لُحُومِ الْغَوَافِلِ يُرِيدُ الْعَفَائِفَ الْغَافِلَةُ قُلُوبُهُنّ عَنْ الشّرّ ، و قرن الغفلة بالإيمان لبيان غفلتهن عن الشر و ليس عن الله الذي يدافع عن الذين آمنوا ، فرتب على التعرض لهن بالإفك و البهتان اللعنة و العذاب العظيم دنيا و آخرة .

---

1 ــ أبو هلال العسكري :الفروق اللغوية، المصدر السابق ، ج1 ، ص362 .

2 ــ الجرجاني : التعريفات ، المصدر السابق ، ج1 ، ص51 .

3 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة(غفل)، المصدر السابق ، ج4 ، ص1002.* هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد شاعر مخضرم توفي سنة 54 هـ. ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي للدكتور عفيف عبد الرحمان،، مصدر سابق، ص71.

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ... يَعْمَلُونَ ﴾ ، يوم هنا ظرف زمان حدد به موعد العذاب العظيم الـذي ذكـر آنفا و مضارعة ﴿ تَشْهَدُ ﴾ تعطي الإحساس بأن الأمر يتم الآن أو بعد لحظـات "و تقديم ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ على الفاعل للمسارعة إلى كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر ... ولا يخلو عن حسن."[1] و نطالع ما في الترتيب مـن كمـال يتفق مع النسق العام للآيات التي سبقت ، فاللسان هو الآلة الرئيسة في القـذف و إذا قـصر اللسان عن البيـــان أسعفته اليدان بالإشارة ، و الرجلان مطـية القـاذف إلـى المجالس لترويج إفكه و بهتانه فكان عـدلا أن يشهد الأولى فالأولـى ﴿ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ ، و الانتقـال من المضـارعـة إلى الماضـي فـي قوله : ﴿ تَشْهَدُ... كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تبيين لتجدد الجرم ما ض وحاضر و مستقبل ، و في الباب نكتة جميلة نوردها هنا" قال بعض الأدباء : العمل مقلـوب عـن العلـم ، فإن العلم فعل القلب ، والعمل فعل الجارحة"[2] فناسب ذكر الجوارح بمتعلقه العمل .

﴿ يَوْمَـئِذٍ يُوَفِّـيهِمُ اللَّهُ... الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ " ...استئناف بياني لأن ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالاً عن آثار تلك الشهادة فيجاب بأن أثرها أن يجازيهم الله على ما شـهدت بـه أعضاؤهم عليهم فدينهم جزاؤهم ..."[3] ، يومئذ الظرف الزماني لتوفية الحساب ، و التنوين في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ عوض عن الجملة ﴿ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ... ﴾ فقد بان الجـرم و شـهد الشهود العدول فلهم من العقاب أوفاه و أتمه بالقدر المستحق دون زيادة و هو ما تفيده عبارة ﴿ يُوَفِّيهِمُ ﴾ و ذلك عدل الله الواضح البين .

﴿ الْخَبِيثَاتُ ... كَرِيمٌ ﴾ قالت العرب الطيور على أشكالها تقع ، جاءت هذه الآية لتسدل الستار على هذا المحور ، و لأنه بضدها تتميز الأشياء جاءت المطابقة لترسم صورة مظلمة و أخرى مشرقة ، تعاقبَ كتعاقب الليل و النهار ، و لأن المحور بدأ بالإفك المأفون ، كان الخبث أولا و الطيب ثانيا ، لتنفر النفس ثم تخبت للحسن ، و كأن الخطاب فيه تعريض بالعصبة التي جاءت بالإفك بمعنى أنتم الخبثاء

---

1 ــ الألوسي :روح المعاني، المصدر السابق ، ج13 ، ص389 .

2 ــ أبو هلال العسكري :الفروق اللغوية، المصدر السابق ، ج1 ، ص322 .

3 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنويرو، المصدر السابق ، ج9 ، ص460 .

فما جرَّأكُم على الطيبين ، و ابتدأ بالخبيثات هنا و الطيبات في التي تليها ، لأن الآية تحمل البراءة فابتدأ بالتعريض و ختم بالتبرئة ، و الطيب كل مستحسن مرغوب فيه و عكسه الخبيث" خ ب ث الخَبِيثُ ضِدّ الطَّيِّب و قد خَبُث الشيء بالضم خَبَاثَة وخَبُث الرَّجُل بالضم أيضاً خُبْثاً فهو خَبِيث أي خِبّ رَديءٌ. "[1] و الخب من الخداع ،" وعطف ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلة بدلالتها على الحكـــم وليكـــون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلاً من أي جانب ابتدأه السامع ، و ذكر ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ ، إطناب أيضاً للدلالة على أن المقارنة دليل على حال القرينين في الخير أيضاً "[2].

و كلمة ﴿ مُبَرَّءُونَ ﴾ على وزن مفعلون للمبالغة لكي لا يبقى أدنى شك في البراءة ، و الإشارة بـــ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ توحي أيضا ببعدهم عن ما يستقبح و يشين، و المضارعة في قوله: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فيها استدعاء للأفاكين ، كأنما تعلن البراءة و الكل في مجلس واحد المتَّهَم و المتَّهِم .

و جاءت الخاتمة كما يأتي النسيم بعد حرِّ الهجير ، و كما يأتي الربيع بعد الصقيع ﴿ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾" رزق كريم إذا لم يكن فيه امتهان أي كرم صاحبه"[3] ، و تجدر الإشارة أخيرا إلى كثرة الالتفات في هذا المحور و هو كما قال ابن المعتز :" الالتفات ، وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"[4] و ذلك مناسب لأن الحادثة و ضعت في قالب المحاكمة، و من شأن القاضي كثرة الالتفات بين الخصمين، و ذلك ما فعلتـــــه ﴿ لَوْلَا ﴾ أيضا ، وقد لمسنا في هذا المحور منتهى البلاغة في إيصال المعنى المراد بأحسن لفظ وأروعه ،

---

1 ــ زين الدين الرازي :مختار الصحاح, المصدر السابق ، ج1 ، ص82 .

2 ــ الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير, المصدر السابق ، ج9 ، ص462 .

3 ــ أبو هلال العسكري :الفروق اللغوية, المصدر السابق ، ج1 ، ص171 .

4 ــ عبد الله ابن المعتز : البديع ،دار إحياء التراث العربي,بيروت,د.ط,د.ت ج1 ، ص15 .

كما نلمس الإيجاز" الإيجاز أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة."[1] فقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ ، تصوير بليغ موجز لكل تفاصيل المؤامرة و مثلهـــا﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ ، فهناك مجموعة مُوَجَّهَة ، و لها قائد مُوَجِّه و المؤامرة حيكت خيوطها خارج إطار الإيمان لتقذف في ساحة المؤمنين فتعكر أمانهم و إيمانهم .

- المحـــــــــور الثالـــث :

- أساليب الوقاية من الزنا، (من الآية : 27 ، إلى الآية : 34)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ... وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

إن الإسلام لا يعتمـــد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية ، وهو لا يحارب الدوافـــع الفطرية ، و لكن ينظمها و يضمن لها الجو النظيف الخالي من المثيرات المصطنعة ، و الفكرة السائدة في منهـــج التربية الإسلامية في هـــذه الناحية، هي تضيق فرص الغواية، و إبعاد عوامل الفتنة و اخـــذ الطريق على أسباب التهييج و الإثارة ، مع إزالـــــة العوائق ، دون الإشباع الطبيعي بوسائله النظيفة المشروعة .

و من هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجأ الناس في بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم، و سماحهم بالدخول ، خفية أن تطلع الأعين علـــى خفايا البيوت ، و على عورات أهلها و هم غافلون ، و ذلك مع غض البصر من الرجال و النساء ، و عدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات ، و من هنا كذلك ييسر الـــزواج للفقـــراء من الرجال و النساء ، فالإحصان هو الضمان الحقيقي للاكتفاء.. وينهـــي عـــن تعـــريـــض الرقيق للبغاء، كي لا تكون الفعلة سهلة ميسرة ، فتغري بيسرها و سهولتها بالفحشاء ، فلننظر نظرة تفصيلية في تلك الضمانات الواقعية التي يأخذ بها الإسلام.

العنصر الأول : أدب الزيارة و الاستئناس، (من : الآية 27 ، إلى : الآية 29)

---

1 ــ الشريف الجرجاني : التعريفات ، المصدر السابق ، ج1 ، ص12 .

﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَـنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾

لقد جعل الله البيوت سكنا ، يفئ إليها الناس ، فتسكن أرواحهم ، و تطمئن نفوسهم و يأمنون على عوراتهم و حرماتهم ، و يلقون أعباء الحذر و الحرص المرهقة للأعصـــــاب، و البيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمناً، لا يستبيحه أحـد إلا بعلم أهله و إذنهم، و في الوقت الذي يريدون ، و على الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس. و من أجل هذا و ذلك أدب الله المسلمين بهذا الآداب العالي ، أدب الاستئذان على البيوت و السلام على أهلها لإيناسهم ، و إزالة الوحشة في نفوسهم قبل الدخول قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا... ﴾ ، و يعبر عن الاستئذان بالاستئناس ، و هو تعبير يوحي بلطف الاستئذان ، و لطف الطريقة التي يجئ بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيـــــت أنساً بـــه ، و استعدادا لاستقباله ، و هي لفتة دقيقة لطيفة، لرعاية أحوال النفوس ، و لتقدير ظروف الناس في بيوتهم ، و ما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها و يحرجوا أمام الطارقيـــن في ليل أو نهـــار.[1]

فكلمة بيت : نفهم منهـــا أنه ما أعـــد للبيتوتة ، حيث يأوي إليه الإنسان آخر النهار و يرتاح فيه من عناء اليوم ، و يسمى أيضا الدار لأنها تدور على مكان خاص بك ، لذلك كانوا في الماضي لا يسكنون إلا في بيوت خاصة مستقلة لا شركة فيها مثل العمارات الآن ، يقولون: بيت من بابه ، حيث لا يدخل ولا يخرج عليك احد ، وكان السكن بهذه الطريقـــــة عصمة من الريبة ، لأنـــه بيتك الخـــاص بأهلك و حدهم لا يشاركـــــــون فيه احد ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ من الأنس والاطمئنان ، فحيـــن تجلس و أهلك في بيتك ، و أقبل عليـــك غريـــب لا تعرفـــه، إذا لـــــم يقدم لك ما تأنس به من الحديث أو الاستئذان لابد أن تحدث منه وحشة و نفور[2].﴿ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ فيه وجهان . أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ،المصدر السابق،م4 ، ص 2507

2 – ينظر محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي ج 16 دار التقوى ، القاهرة ،د.ط، د.ت ، ص10243

خلاف الاستحاش ، لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ ، فهو كالمستوحش من خفـــاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس . فالمعنى: حتى يؤذن لكم كقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ {الأحزاب 53} و هذا من باب الكناية و الإرداف.[1] و معنى ﴿ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ تطلبوا الأنس بكم ، أي تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت ، و أنسه به بانتفاء الوحشة و الكراهية ، و هذا كناية لطيفة عن الاستئذان أي : أن يستأذن الداخل ، فيطلب إذنا من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المنزل بالداخل.[2] لذلك قال تعالى بعدها ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ... ﴾ ، خير للجميع ، للزائر و للمزور، فالاستئذان يمنع أن يتجسس أحد على أحد ، يمنع أن ينظر أحد إلى شيء يؤذيه ، وهب أن أبا الزوجة أراد زيارتها و دخل عليها فجـــأة فوجدها في شجار مع زوجها، فلربما اطلع على أمور لا ترضيه فيتفاقم الخلاف.[3]

وفي قراءة (أبي) : حتى تستأذنوا ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ ، الاستئذان و التسليم ﴿ خيرا لكم﴾، من تحية الجاهلية ، و الدمور- و هو الدخول بغير إذن- و اشتقاقه من الدمار و الهلاك كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب،[4]و قد أجملت حكمة الاستئذان في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، ذلكم الاستئذان خير لكم ، لأن فيـــه خير لكم و نفع فإذا تدبرتم علمتم ما فيه من خير لكم كما هو المرجو منكم[5]، ثم تختم الآية بقولـــه تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، يعني احذروا أن تغفلوا هذه الآداب ، أو تتهـــاونوا فيها كمن يقولون : نحن أهل أو أقارب لا تكليف بيننا،لأن الله تعالى الذي شرع لكـــــم هذه الآداب أعلم بما في نفوسكم ، و أعلم بما يصلحكم ،[6]﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، أنزل عليكم، أو قيل لكم هذه إرادة أن تذكروا وتتعظوا و تعلموا بما

---

1 – ينظر ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 3 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت ، د.ط ، ص225

2 –ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص197

3 –ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16 ،ص 10245

4 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ،ج3 ،ص 227

5 –ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدرالسابق ،ج9 ،ص198

6 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ، ج 16،ص 10245

أمرتم به في بـــــاب الاستئذان[1]، و بعد الاستئذان ، إما أن يكون في البيوت أحد من أهلها و لا يكون ، فان لم يكن فيها أحد ، فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان، لأنه لا دخول بغير إذن: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أحدا فَلَا تَدْخُلُوهَا... ﴾، وإن كان فيها أحد من أهلها فان مجرد الاستئذان لا يبح الدخولّ ، فإنما هو طلب للإذن ، فان لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك، و يجـب الانصراف دون تلكؤ و لا انتظار.[2]و قوله تعالـــى: ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، كيف و الدار ليس فيها أحد ؟ ربما كان صاحب الدار خارجها ، فلما رآك تستأذن نادى عليك من بعيد ، تفضل ، فلابد أن يأذن لك صاحب الدار أو من ينوب عنه في الإذن ، لأنه لا يأذن إلا وقد أمن خلو الطريق مما يؤذيك أو مما يـؤذي أهل البيـت.[3]يحتمـــل ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أحدا ﴾ من الآذنين ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ واصبروا حتى تجـدوا من يأذن لكم.[4]و الغاية في قوله تعالى: ﴿حتى يؤذن لكم ﴾ لتأكيد النهي بقوله: ﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ بمعنى: حتى يأتي أهلها فيأذنوا لكم .[5]﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ الآية ، ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعذارهم ، ويجب أن يتـرك لهم و حدهم تقدير ظروفهم و ملابساتهم في كل حين.[6] لأنك إن تمسكت بالدخول بعد أن قال لك: ارجع فقد أثرت الريبة في نفسه، فعليك أن تمتثل وتحترم رغبة صاحب الشأن ، فهذا هو الأزكى و الأفضل ، ألا ترى قول الرسول ﷺ :(دع ما يريبك إلى مالا يريبك).[7]*﴿ فَارْجِعُوا ﴾ لا تلحوا في إطلاق الإذن و لا تلجوا في تسهيل الحجاب ، ولا تقفوا على الأبواب منتظرين لان هذا مما يجلب الكراهة ، و يقدح في

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ،ص 227

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ،م4، ص 2508

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ،ج16 ، ص 10246

4 – ينظر الزمخشري : الكشاف ،المصدر السابق ،ج3 ،ص 227

5 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9، ص 201

6 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ،م4 ،ص 2508

7 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ، ج16،ص 10246.* رواه الترميذي في سننه رقم الحديث 2448 كتاب، صفة القيامة.

قلوب الناس ، خصوصا إذا كانوا ذوي مروأة ، و مرتاضين بالآداب الحسنة، و إذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة ، و وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها : من قرع الباب بعنف، و التصييح بصاحب الدار ، و غير ذلك[1]، مما يدخل في عادات من لم تتهذب من أكثر الناس، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، فهو المطلع على خفايا القلوب ، وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات [2]، وهو عالم سبحانه ، بدخائل النفوس و وساوس الصدور، فان قال لك صاحب الدار ارجع فوقفت أمام الباب و لم تنصرف، فانك تثير حولك الظنون و الأوهام ، و ربك عز وجل يريد أن يحميك من الظنون و دخائل النفوس[3]، و قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، تذييل لهذه الوصايا، بتذكيرهم بان الله عليم بإعمالهم ، ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتثقيل ، و ليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق و نحوها، و هذا تعريض بالوعيد ، لان في ذلك عصيانا لما أمر الله به فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.[4] فأما البيوت العامة كالفنادق ، و المثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان ، دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية[5] ،﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ ، و ﴿ جُنَاحٌ ﴾ ، إثم أو حرج ، و هذه خاصة بالأماكن العامة التي لا يسكنها أحد بعينه، والمكان العام له قوانين في الدخول غير قوانين البيوت و الأماكن الخاصة ، فهل تستأذن في دخول الفندق أو المحل التجاري أو الحمام ؟...الخ هذه الأماكن لا حرج عليك في دخولها دون استئذان. ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ ، المقصود ، لقوم مخصوصين ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾،كأن تنام فيها، وتأكل وتشرب و تضع حاجياتك، فالمتاع هنا ليس على إطلاقه ، إنما مقيد

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ، ج3 ،ص 228

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ،ص 2508

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي المصدر السابق ،ج16 ،ص 10246

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9،ص 201

5 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص2508

بما أحلـــه اللـــه و أمـــر بـــه ، فلا يدخل في المتاع المحرمات[1]، و ﴿ غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ أنها غير مأهولة على حالة الاستقرار أو غير مأهولة البتة ، و قوله : ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ ، صفة ثانية لـــ: ﴿ بُيُوتًا ﴾، و المتاع هو الجهاز من العروض والسلع والرحال ، وظاهر قوله : ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ ﴾ ، أن المتاع موضوع هناك قبل دخول الداخل ، فلا مفهوم لهذه الصفة لأنها خرجت مخرج التنبيه على العذر في الدخول[2]، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، فالأمر معلق بإطلاع الله على ظاهـــركـــم و خافيكم ، و رقابته لكم في سركم و علانيتكم ، و في هذه الرقابـــة ضمان لطـــاعة القلوب ، و امتثالها لذلك الأدب العالي الذي يأخذها الله به في كتابـــه ، الذي يرسم للبشريـــة نهجها الكامل في اتجاه[3]، و يعني: في تحديد الاستمتاع، فلا تأخذه على إطلاقه فتدخل فيه الحرام و الا فالبغايا كثيرا ما يرتادون مثل هذه الأماكن لذلك يحصنك ربك و يعطيك المناعة اللازمة لحمايتك[4]، وهي وعيد للذين يدخلون الخربات و الدور الخالية من أهل الريبة [5] كما أن جملة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، مستعملـــة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود ، و هي كون البيوت غير مسكونة ، وكون الداخل محتاجا إلى دخولهـــا بلـــه أن يدخلها بقصـــد التجسس على قطانها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم .[6]

العنصر الثاني: ضوابط العلاقة بين الرجال و النساء(من الآية 30إلى الآية 31)

﴿ قُـــلْ لِلْمُؤْمِنِـــينَ يَغُـــضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيـــوت ، و هو إجراء وقائي في طريق تطهير المشاعر، و اتقاء أسباب الفتنة العابرة، يأخذ على الفتنة الطريق كي لا تـــنطلق مـــن عقالهـــا بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة ، و بدافع الحركة المعبرة

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص 10247

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 202

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن المصدر السابق،م4 ،ص 2508

4 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16، ص 10247

5 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ، ص 228

6 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 203

الداعيـــة إلى الغواية ، ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَـــى لَهُـــمْ... لَعَلَّكُـــمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، و محاولـــــــــة للاســـتعلاء على الرغبة في الإطلاع على المحاسن و المفاتن في الوجـــوه و الأجـــسام ، كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة ، و الغواية و محاولـــة عملـــية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبـــيعة لغض البصـــــر، أو هو الخطوة التاليـــة لتحكيم الإرادة ، و يقظة الرقابة و الاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى ، و من ثم يجمع بينهما في آية واحدة ، بوصـــفهما ســـببا و نتيجـــة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين ، في عالم الضميـــر و عالم الواقع كلتاهما قريب من قريب .[1] و مسألة غض البصر التي يأمرنا بها ربنا عـــز وجـــل في هذه الآيـــة ، هي صمام الأمان الـــذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ، و يسد الطريق دونها ، لذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... ﴾ ، و حين تتأمل مسالـــة غض البصر، تجدها من حيث القسمة العقلية تدور حول **أربع حالات :**

الأولى: إنما غـــض هو بصره ولا تبدي هي زينتها، فخط الفتنة مقطوع من المرسل و من المستقبل ، **الثانية :** أن يغض هو بصره و أن تبدي هي زينتها ، **الثالثة :** أن ينظـــر هو و لا تبدي هي زينتها ، و ليس هناك خطر على المجتمع أو فتنة في هذه الحـــالات الـــثلاث ، فإذا توفر جانب أنعدم الآخر ، إنما الخطر في القسمة **الرابعة :** وهي أن ينظر هو و لا يغض بصره ، و أن تتزين و تبدي زينتها ، ففي هذه الحالة فقط يكون الخطر .

إذن ﴿ قُلْ... ﴾ ، تدل على أمانة الرسول في البلاغ ، و على أن القرآن ما نزل للأحكام فحسب ، إنما هو أيضا كلام الله المعجز ، لذلك نحافظ عليه و على كل لفظة فـــيه ، و قوله تعالى: ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ ، فما داموا مؤمنين بالله حكيماً ، و قد دخلوا حظيـــرة الإيمان باختيارهم لم يرغمهم عليه أحد ، فلا بد أن يلتزموا بما أمرهم ربهم بـــه و ينفذوه بمجرد سماعه ، و الغض : النقصان يقال : فلان يغض من قدر فلان

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدرالسابق،م4 ، ص 2512

يعني: ينقصه ، فنقص البصر يعني : قصره على ما احل وكفه عما حرم و﴿ مِنْ﴾، في قوله تعالى : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ البعض يرى أنها للتبعيض: كما تقول : كل من هذا الطعام يعني بعضا منه فالمعنى : يغضوا بعض البصر أو أن ﴿ مِنْ.... ﴾ ، هنا لتأكيد العموم في أدنى مراحله.[1]من للتبعيض ، والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل[2]، و الغض: صرف المرء بصره عن التحديق ، و تثبيت النظر، و يكون من الحياء كما قال عنترة *:

و أغض طرفي حين تبدو جارتي *** حتى يواري جارتي مأواها

و اسم الإشارة إلى المذكور ، أي ذلك المذكور من غض الأبصار و حفظ الفروج .[3]

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ ، فهو اطهر لمشاعرهم ، و اضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية ، في غير موضعها المشروع النظيف ، و عدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط وهو اطهر للجماعة ، و أصون لحرماتها و أعراضها وجوها الذي تتنفس فيه ،[4]و أطهر و أسلم و أدعى لراحة النفس ، لأنه إما أن ينزع فيرتكب محرما و يلج في أعراض الناس ، و إما ألا ينزع فيكدر نفسه ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق[5]، و اسم التفصيل بقوله : ﴿ أَزْكَى ﴾ ، مسلوب المفاضلة و المراد تقوية تلك التزكية لان ذلك جنة من ارتكاب ذنوب عظيمة[6]، والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية ، و هو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري ، الخبير بحركات نفوسهم و جوارحهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16، ص 10248

2 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ، ص229.* هو عنترة بن عمرو بن شداد بن معاوية العبسي، أحد أشهر شعراء العرب من أصحاب المعلقات، توفي سنة 22 ق هـ، ينظر معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي،مصدر سابق، ص 230.

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 204

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2512

5 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي،المصدر السابق ، ج16، ص 10253

6 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق،ج9 ،ص 204

بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾،[1] فهو سبحانه و تعالى ، خالق هذه النفس البشرية ، و واضع مسألة الشهوة و الغريزة ، ليربط بين الرجل و المرأة ، وليحقق بها عملية النسل و بقاء الاستخلاف في الأرض ، ولو لم تربط هذه العلاقة بالشهوة الملحة، لزهد الكثيـــرون في الزواج و في الإنجاب و ما يترتب عليه من تبعات ،[2] ثم أخبر أنه ﴿ خبير ﴾ بأفعالهم و أحوالهم ، وكيف يجيلون أبصارهم ؟ وكيف بسائر حواسهم وجوارحهم ؟ فعليهم، إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة و سكون ،[3]

وذيل بجملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، لأنه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض و الحفظ، لأن المقصود من الأمر الامتثال ،[4] وقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ، فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب ، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف ، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقـــــــه عن مواجهة المجتمع و الحياة ،[5] فالنساء مأمورات أيضا بغض الأبصار ، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته ، وان اشتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر من المرأة إلا إلى مثل ذلك ، وغضها بصرها من الأجانب أصلا أولى بها و أحسن ،[6] ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ و الزينة حلال للمـــــــرأة ، تلبية لفطرتها فكل أنثى مولعة بان تكون جميلة و أن تبدو جميلة والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها في الفطـــــــــرة وأحد، هو الرغبة في تحصيل الجمال أو استكماله ، وتجليته للرجال ،[7]من رحمة الله بالنساء أن قال : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ..﴾ ، و قال: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا... ﴾ يعني الأشياء الضرورية ، فالمرأة تحتاج لأن تمشي في

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق، م4، ص 2512

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ،ص 10253

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 229

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ،المصدر السابق ،ج9 ،ص 204

5 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4 ،ص 2512

6 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ، ص 229

7 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص 2512

الشارع فتظهر عينيها و ربما فيها كحل مثلا ، و تظهر يدها و فيها خاتم أو حناء فلا مانع أن تظهر مثل هذه الزينة الضرورية ، و نلاحظ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا.. ﴾ ، و المراد تغطية الزينة ، فالجارحة التي تحتها من باب أولى ،[1]و الزينة ما تزيـــن به المرآة، من حلى أو كحل أو خضـــاب فما كان ظاهرا منها كالخاتم و الفتخة ، أي – حلقـــــة من فضة لا فص فيها – والكحل و الخضاب ، فلا باس بإبدائه للأجانب و ما خفي منها كالسوار و الخلخال والدملج و القلادة ...الخ فلا تبديه ألا لهؤلاء المذكورين ،[2] ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ما كان موضعة مما لا تستره المرأة و هو الوجه و الكفان و القدمان ،[3] فأما ما ظهر من الزينة في الوجه و اليدين ، فيجوز كشفه لأن كشف الوجه و اليدين مباح لقوله : ﷺ ، لأسماء بنت أبي بكر (يا سماء إن المرأة إذا بلغت المحيض– لم يصلح أن يرى منها إلا هـــذا – و أشار إلى وجهه وكفيه)* ، ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، و الجيب فتحة الصدر في الثوب ، و الخمار غطاء الرأس و النحر والصدر ليداري مفاتنهن: فلا يعرضنها للعيون الجائعة ، و لا حتى لنظرة الفجـــاءة التي يتقي المتقون إن يطيلوهـــا أو يعاودوها، و لكنها قد تترك كمينا في أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة .[4]، إذن راعى الشارع الحكيم زي المرأة من أعلى فقال : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، و من الأدنى فقـــــال: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ... ﴾ الأحزاب (59) ، ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجهن ، لأن الزينة جعلت من أجلهم ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، أبو الزوج إلا أن يخاف منه الفتنة ، فلا تبدي الزوجة زينتها أمامه، ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، أي النساء اللاتي يعملن معها في البيت، كالوصيفات و الخادمات، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ و المراد: هنا أيضا ملك اليمين من النساء ،

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ،ج16 ،ص 10256

2 – ينظر الزمخشري: الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ،ص 230

3 _ ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 205

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4، ص2513 .*رواه أبو داوود في سننه كتاب اللباس رقم الحديث 3580.

دون الرجال[1] ، كما يجوز أن يراد بالجيوب: الصدر تسمية بما يليها ويلابسها[2] ، والباء في قوله : ﴿ بِخُمُرِهِنَّ ﴾ لتأكيد اللصوق مبالغة في أحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل ﴿ يَضْرِبْنَ ﴾ ، و قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، أعيد لفظ ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ تأكيدا لقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ المتقدم و ليبني عليه الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ الذي مقتضى ظاهـــره أن يعطف على ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ، لبعد ما بين الأول والثاني، و البعولة : جمع بعل وهو الزوج و سيد الأمة ، كما أن الإضافـــة في قولـــــه: ﴿ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، إلى ضمير ﴿ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إن حملت على ظاهر الإضافة ، كانت الإضافة دالة على أنهن النساء اللاتي لهن بهن مزيد اختصاص ، فقيل المراد نساء أمهاتهن ، أي المؤمنات ، مثل الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ، البقرة (281) أي من رجـــال دينكم[3]، واستثني ﴿ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ ، وهم الذين لا يشتهون النساء ، لسبب من الأسباب ، كالجب و العنة و البلاهة و الجنون، و سائر ما يمنع الرجل أن تشتهي نفسه المرأة ، لأنه لا فتنة هنا ولا إغراء، و يستثني ﴿ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، وهم الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس ، فإذا ميزوا وثار فيهم هذا الشعور ، ولو كانوا دون البلوغ فهم غير داخلين في هذا الاستثناء .[4]

نلاحـــــظ هـــنا أن الطفـــل مفرد ، لكن وصف بالجمع ﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَـــوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾، مع أن المراد الأطفال ، لكن قال: ﴿ الطِّفْلِ ﴾ ، لأن غرائـــزه مـــشتركة مـــع الكل ، و ليس له هوى فكل الأطفال إذن كأنهم طفل وأحد ، حيث لم يتكون لكل منهم فكره الخاص به ، الجمع يحب اللهو و اللعب ، ولاشيء وراء ذلك، فالجمعية هنا غير واضحة ، لوجود التوحيد في الغرائز و في الميول، و قوله تعالى: ﴿ الَّـــذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، يظهر على كذا لها معنيان في اللغة ،

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ،ص 10257

2 – ينظر الزمخشري: الكشاف ، المصدرالسابق ،ج3، ص 231

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 209

4– ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدرالسابق،م4 ،ص 2514

الأولـــى : بمعنـــى يعلم و الثاني ، بمعنى يعلو يغلب و يقهر ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَـــا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ الكهف (93) أي الســـــد الذي بناه ذو القرنين فالمعنـــى مـــا استطاعوا أن يعلوه و يرفعوا عليه[1]، و الإربة : الحاجة قيل هم الذين يتبعونكـــم ليصيبوا من فضـــــــل طعامكم ، و لا حاجة لهم إلى النساء لأنهم بله، لا يعـــرفون شـــيئا من أمرهن و قرئ ﴿ غَيْرِ ﴾ بالنصب على الاستثناء، أو الحال و الجر على الوضعية، وضع الواحد موضع الجمع، لأنه يفيد الجنس و يبين ما بعده أن المـــراد بـــه الجمـــع ، ونحـــوه ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ، الحج5 ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، إما من ظهر على الشيء ، إذا اطلع عليـــه أي : لا يعرفـــــون مـــا العـــورة و لا يميزون بينها وبين غيرها[2]، ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، أي لـــم يطلعوا عليها و هذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء و ذلك ما قبل سن المراهقة.[3]

ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة ، و تهيج الشهوات الكامنة ، و توقظ المشاعر النائمة ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ ، و إنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية ، وانفلاتها وانسحاباتها ، فان الخيال ليكون أحيانا أقوى في إثارة الشهوات من العيان ، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو حليها ، أكثر مما تثيرهـــا رؤية جسد المرأة ذاته[4]، و معلوم أن طريقة مشي المرأة تبدي الكثير من زينتها التي لا يراها الناس و تسبب كثير من الفتنة ، لذلك يقول تعالى ، بعدها ، و في ختام هذه المسائـــل : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، لم يقل الحق

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16، ص 10258

2 – ينظر الزمخشري: الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ،ص 232

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدرالسابق ، ج9 ،ص 212

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4، ص 2514

تعالى: يا من أذنبتم بهذه الذنوب التي سبق الحديث عنها، إنما قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، فحث الجميع على التوبـــة[1].

فما معنى هذه التوبة ؟ قلت : أراد بها ما يقوله العلماء : إن من أذنب ذنبا ثم تاب عـــنه يلـــزمه كلما تذكره أن يجدد عنه التوبة ، لأنه يلزمه أن يستمـــــر على ندمه وعـــزمه إلى أن يلقى ربه ، و قرئ أيضا المؤمنون ، يضم الهاء و وجهه أنها كانت مفـــتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنيـــن ، اتبعت حركتها حركـــة ما قبلها[2]، ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، والجملة معطـــوفة على جملة ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، و وقع التفات من خطاب الرسولﷺ إلى خطـــاب الأمـــة ، لأن هـــذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل ، وليس استئناف تشريع ، ونبه بقوله : ﴿ جَمِيعًا ﴾ ، على أن المخاطبين هم المؤمنون و المؤمنات ، و إن كـــان الخطاب ورد بضميـــر التذكيـــر على التغليب ، و أن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابـــوا.[3]

و بـــذلك يثيـــر الحساسية برقابة الله ، و عطفه ، و رعايته، و عونه للبشر ، في ضـــعفهم أمـــام ذلـــك الميل الفطـــري العميـــق ، الذي لا يضبطه مثل الشعور بالله وبتقواه .

العنصر الثالث: الزواج والاستعفاف كبديل عن الزنا والبغاء(من الآية32 إلى الآية34)

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ... وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

و إلـــى هنا كان علاج المسألة علاجا نفسيا و وقائيا، و لكن ذلك الميل حقيقـــة واقعـــية ، لابـــد من مواجهتها بحلول واقعية أجابية ، هذه الحلول الواقعية هي تيسر الزواج و المعاونة عليه ، مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية ، أو إغلاقها نهائيا. ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ... مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ

- و هـو الغايـة النظيفة لهذه الميول العميقة- فيجب أن تزول العقبات من طريق الـزواج ، لتجري الحياة على طبيعتها و بساطتها ، لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعـين مـن يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، و الأيامى هـم الـذين لا أزواج لهم من الجنسين، و المقصود هنا الأحرار. و قد أفرد الرقيق بالذكر بعد ذلك : ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ ﴾.

و كلهـم ينقصهم المال،كما يفهم من قوله بعد ذلك:﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِـنْ فَـضْلِهِ ..﴾، و هـذا أمر للجماعة بتزويجهم ، و الجمهور على أن الأمر هنا للندب[1]، و نلاحظ هنا أن الأمر في ﴿ وَأَنْكِحُوا ... ﴾ ، جاء هكذا بهمزة القطع ، مع أن الأمر للوأحد ﴿ أنكح ﴾ بهمزة الوصل ، ذلك لأن الأمر هنا ﴿ وَأَنْكِحُوا ﴾ ، ليس للمفرد الذي يستنكح الأيم ، إنما لغيره أن ينكحه ، و في الحديث الشريـف: (إذا جـاءكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد كبير)* .

و قـوله تعالى: ﴿ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ... ﴾ ، و قوله ﷺ: (تنكح المرأة لأربـع: لمالهـا و جمالهـا و حـسبها و دينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2]*، و المـراد: انكحوا من تأيم منكم من الأحرار و الحرائر، و من كان فيه صلاح من غلمـانكم وجـواريكم. و قرئ : من عبيدكم ، و هذا الأمر للندب ، لمـا علـم أن الـنكاح أمـر مندوب إليه ، و قد يكون للوجوب في حق الأولياء ، عند طلب المرأة ذلك.[3] ووزن أيامى عند الزمخشري ، أفاعل لأنه جمع أيم بوزن فيعل ، و فيعـل لا يجمع على فعالى، فأصل أيامى أيائم ، فوقع فيه قلب مكاني قدمت الميم للتخلص من ثقـل الـياء ، بعـد حـرف المـد ، و فـتحت الميـم للتخفيف فقلبت اليـاء ألفا

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدرالسابق،م4، ص 2514.* رواه الترميذي في كتاب النكاح، رقم الحديث 1005.

2 – ينظر الشعراوى : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16، ص10261.* رواه مسلم في كتاب الرضاع، رقم الحديث 2661.

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ،ص234.

و ﴿ الأيامـــي﴾ صيغة عموم لأنـــه جمع معروف باللام فتشمل البغايا، و جملـــة : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ..﴾ الخ استئناف بياني ، لأن عموم الأيامى و العبيد و الإماء في صـــيغة الأمـــر، يثير سؤال الأولياء ، و الموالي أن يكون الراغب في تزوج المرأة الأيـــم فقيـــرا، فهـــل يرده الولي؟ ، و أن يكون سيد العبد فقيرا لا يجد ما ينفقه على زوجـــه ، و كذلك سيد الأمة يخطبها رجل فقير حر أو عبد ، فجاء هذا البيان إرادة العمـــوم فـــي الأحـــوال.[1] ولا يجوز أن يكون الفقر عائقا عن التزويج- متى كانوا صـــالحين للـــزواج راغبـــين فـــيه رجالا و نساء- فالرزق بيد الله ، و قد تكفل الله بإغـــنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيـــف : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَـــضْلِهِ ﴾ و قال رسول الله ﷺ: ("ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهـــد في سبيل الله ، المكاتب الذي يريد الأداء ، و الناكح الذي يريد العفاف)[2]*، فالفقـــــر قد يكون سببا في عدم الإقبال على البنت ، أو عدم أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عنا ، و نحن نتقيه ونقصد الإعفاف و الطهر؟[3]

و لا يـــشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة و ما كان مصلحة و نحوه: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ،[4] {الطلاق3.2 }، و في انتظار قـــيام الجماعـــة بتـــزويج الأيامـــى، يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالـــزواج: ﴿وَلْيَـــسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ... ﴾ ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِـــيمٌ... ﴾ ، لا يضيق على من يبتغي العفة و هو يعلم نيته و صلاحه[5]، فعطاء الله دائـــم لا ينقطع، لأن خزائنه لا تنفذ و لا تنقص ، و الإنسان يمسك عن الإنفاق لأنه يخـــاف الفقر ، أما الحق – تبارك و تعالى – فيعطي العطاء الواسع لأن ما عنده لا

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، السابق ، ج9 ،ص 215

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4،ص2515.* رواه الترميذي في سننه في كتاب فضائل الجهاد، رقم الحديث 1579.

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج16 ،ص 10263

4 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3،ص235

5 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ،ص2515

ينفذ.[1]﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ ﴾ ، أي غني ذو سعة لا يرزؤه إغناء الخلائق ، و لكنه ﴿عليم﴾ يبسط الرزق بمن يشاء و يقدر،[2]و صفة الله ﴿ وَاسِعٌ ﴾ مشتقة من فعل وسع ، باعتبار أنه وصف مجازي لأن الموصوف بالسعة هو إحسانه ، و ذكر ﴿ عَلِيمٌ﴾ بعد ﴿ وَاسِعٌ ﴾ إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة ، في مقدار الإعطاء[3]، و هكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية ، فيهيئ لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج ، ولو كان عاجزا من ناحية المال ، و المال هو العقبة الكؤود غالبا في طريق الإحصان من الآية ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..... مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ. ﴾ في حالة إذا لم ننكح الأيامي، و لم نعنهم على الزواج ، و لم يقدروا هم على القيام بنفقاته، يصف لهم الحق – سبحانه و تعالى – العلاج المناسب و هو الاستعفاف، و قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ... ﴾ يعني يحاول العفاف و يطلبه و يبحث عن أسبابه ، و يجاهد أن يكون عفيفا، و أول أسباب العفاف أن يغض بصره حين يرى ... و لم يقل : و ليعف ، فالمعنى ليسلك سبيل الإعفاف لنفسه و ليسع إليه[4]، و ليجتهد في العفة و ظلف النفس ، كأن المستعفف ، طالب من نفسه العفاف و حاملها عليه[5]، ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا... ﴾ أي: بذواتهم قدرة أو بمجتمعهم معونة وقوله كذلك : ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ... ﴾ يدل على أن الاستعفاف وسيلة من وسائل الغنى، لان الاستعفاف إنما نشا من إرادة التقوى . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(الطلاق2.3) فمن هذا الباب يأتيه غنى الله[6]. و يجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال ﴿ حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ.. ﴾ ، ترجية

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج16، ص 10263

2- ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق،ج3 ، ص 237

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 217

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه، ج9،ص217

5 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3،ص237

6 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج16، ص 10265

للمستعفين، و تقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى [1]، و السين و التاء في قوله: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ... ﴾ ، للمبالغة في الفعل ، وليعف الذين لا يجدون نكاحا ، ووجه دلالته على المبالغة أنه في الأصل استعارة ، جعل طلب الفعل ، بمنزلة طلب السعي فيه ليدل على بذل الوسع ، و ﴿ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ لا يجدون قدرة على نكاح ففيه حذف مضاف[2]، و حتى تتهيأ الأحوال العالمية لإلغاء نظام الرق كله ، أوجب عز وجل إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته ، و ذلك في مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته ، ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [3] الكتاب : معروف أنه اجتماع عدة أشياء مكتوبة في ورق ، و المراد هنا المكاتبة ، و هي أن تكتب عقدا بينك و بين العبد المملوك ، تشترط فيه أن يعمل كذا أو كذا ، بعدها يكون حرا، إن أدى ما ذكر في عقد المكاتبة ، ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا... ﴾ يعني: إن كانت حريتهم ستؤدي إلى خير كأن ترفع عنهم ذلة العبودية، و تجعلهم ينشطون في الحياة نشاطا يناسب مواهبهم.[4]﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ ﴾، مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره﴿ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ كقولك : زيدا فاضربه ، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط ، والكتاب والمكاتبة ، كالعتاب و المعاتبة: و هو أن يقول الرجل لمملوكه : كاتبتك على ألف درهم ، فان أداها عتق، و خَيْرًا ﴾ قدرة على أداء ما يفارقون عليه ، و قيل : أمانة و تكسبا ، ﴿وَآتُوهُمْ ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب [5] و قال بعض المفسرين: الخطاب في قوله : ﴿وَآتُوهُمْ ﴾ للمسلمين أمرهم الله بإعانة المكاتبين. و الموصول في قوله: ﴿ الذي آتَاكُم ﴾ يجوز أن يكون وصفا لـ﴿ مَالِ اللَّهِ ﴾ و يكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه ، و يجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة ، فيكون امتنانا و حثا على الامتثال ،

---

1 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق،ج3، ص 237

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق،ج9، ص 218

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2516

4 – ينظر الشعراوى : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج16، ص 10265

5 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق،ج3 ،ص 238

بتذكيـــر أنـــه ولي النعمة ويكون مفعول ﴿ آتَاكُمْ ﴾ محذوفا للعموم ، أي آتاكم على الامتـــثال بتذكيـــر أنه و لي النعمة، و يكون مفعول ﴿ آتَاكُمْ ﴾ محذوفا للعموم، أي آتـــاكم نعما كثيـــرة كقوله ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾[1]، إبراهيم (34) وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة ، احتراف بعض الرقيق للبغاء ، و كان أهل الجاهلية إذا كـــان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، و جعل عليها ضريبة يأخذها منها- و هذا هو الـــبغاء فـــي صورته ، التي ما تزال معروفة حتى اليوم – فلما أراد الإسلام تطهير البيـــئة الإســـلامية حرم الزنا بصفة عامة ، وخص هذه الحالة بنص خاص: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَـــإِنَّ اللَّـــهَ مِـــنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فنهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكـــــر، و وبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا، من هذا الوجه الخبيث، و وعد المكرهات بالمغفـــــرة و الرحمة ، بعد الإكراه الذي لا يد لهن فيه.[2] يقال للملوك فتـــى ، وللمملـــوكة فتاة ، فقد نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل: (عبدي و أمتي، إنما يقـــول: فـــتاي و فتاتي ، فهذه التسمية أكرم لهؤلاء و أرفع)* ، فالفتى من الفتوى و القـــوة كأنك تقول: هذا قوتي الذي يساعدني و يعينني على مسائل الحياة، فالنبي ﷺ – يريد أن يرفع من شأنهم.[3]، والبغاء: مصدر البغي- فإن قلت لم أقحم قوله: ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَـــصُّنًا ﴾ ، قلت: لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن ، و أمر الطيعة المواتـــية للبغاء لا يسمى مكرها ، و لا أمره إكراها ، وكلمة ﴿ إِنْ﴾ و إيثارها على (إذا) ، إيـــذان بـــأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة طواعية منهن ، و ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لهم أو لهـــــن ، او لهم و لهن إن تابوا و أصلحوا،[4]و البغاء مصدر باغت الجاريـــة. إذا تعاطـــت الزنـــى بالأجرة حرفة لها، فالبغاء الزاني بأجرة ، و اشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة و التكرير ، و لذلك لا يقال إلا: باغت الأمة، و لا يقال:

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص221

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4 ، ص 2516.* رواه أبو داود في سنه، كتاب الأدب، رقم الحديث 4975.

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق،ج16، ص 10267

4 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ،ص 239

بغـت. وهـو مـشتق من البغي بمعنى الطلب. و تسمى المرأة المحترفة بغيا بوزن فعـول بمعنـى فاعل و لذلك لا تقترن به هاء التأنيث، فأصل بغي بغوي، فاجتمعت الـواو والـياء، و سبقت أحدهما بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء. ولـذلك فالآيـة نزلت توطئة لإبطاله كما، تنزل قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾النساء (43) توطئة لتحريم الخمر البتة .[1] و قولـه تعالـى: ﴿ لِتَبْـتَغُوا عَـرَضَ الْحَـيَاةِ الدُّنْـيَا ﴾ متعلـق بـ ﴿ تُكْرِهُوا ﴾ ، أي لا تكـرهوهـن لهـذه العلـة . ذكر هذه العلـة لزيـادة التبشيـع كذكـر﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ، و﴿ عَرَضَ الْحَيَاةِ ﴾ ، هو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم ، وهو ما يسمى بالمهر أيضا و الذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان جانب المكرهين وجانب المكـرهات (بفتح الراء) فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال إن الله غفور رحيم لهـم، بعـد أن نهـاهم عن الإكراه ، وأما الإماء المكرهـات فإن الله غفور رحيم لهـن.[2]وقوله:﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، فالفاء رابطة الجواب – و حرف (إن) في هـذا المقام يفيد التعليل، و يغني غناء لام التعليل.[3] وقيل غفور لهن وقيل غفور لهم وقـيل غفـور لهن و لهم،[4] ثم يقول الحق تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَـثَلًا مِـنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، المعنى: لا عذر لكم لأن الله تعالـى قـد أنزل إليكم الآيات الواضحة ، التي تضمن لكم شرف الحياة و طهارتها، ونقـاء نـسل الخليفة لله في الأرض، إن الآيات تطلق على ثلاثة إطلاقات : الآيات الكونية التي تلفتك إلى الصانع المبدع عز وجل ، و على المعجزات التي تأتي لتثبت صـدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتطلق على الآيات الحاملة للأحكام وهي آيات القـرآن الكريم.[5]وقوله تعالى ﴿ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ،

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدرالسابق،ج9 ، ص 222

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق،ج9 ،ص227

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه، ج9 ،ص 228

4 – ينظر محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،ج4 دارإحياءالتراث، بيروت،لبنان،ط1 ،1996، ص 112

5 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي، المصدر السابق ، ج 16 ،ص 10269

جعلنا لكم موعظة و عبرة بالأمم السابقة عليكم ، والتي بلغت شأوها في الحضارة،ومع ذلك لم تمتلك مقومات البقاء، ولم تصنع لنفسها المناعة التي تصونها فانهارت[1]، ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ هي الآيات التي بينت في هذه السورة و أوضحت في معاني الأحكام و الحدود ، و يجوز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع في الظرف ، وقرئ بالكسر أي بينت هي الأحكام و الحدود ، جعل فعل لها على المجاز ، أو من (بين) بمعنى تبين ، و منه المثل " قد بين الصبح لذي عينين" ﴿ وَمَثَلًا مِنَ﴾ أمثال ، من ﴿ قَبْلِكُمْ﴾ أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف و مريم، ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ ما وعظ به في الآيات ، و المثل من نحو قوله :﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾،[2] و ﴿ مِنَ ﴾ ، في قوله: ﴿ مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا ﴾ ، ابتدائية ، أي مثلا ينشأ ويتقوم من الذين خلوا ، و المراد نشأة المشابهة ، وفي الكلام حذف مضاف يدل عليه السياق تقديره: من أمثال الذين خلوا من قبلكم[3]، ففي الآية وجهان معروفان أحدهما: ، قوله : مبينات اسم فاعل بين المتعدية، و عليه فالمفعول محذوف أي مبينات الأحكام و الحدود .

و الثاني: أن قوله: مبينات ، وصف من بين اللازمة و هو صفة مشبهة ، وعليه فالمعنى آيات مبينات بينات واضحات و يدل لهذا الوجه الأخير قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ النور(1) [4]، و يعقب هذا الشوط بصفة القرآن التي تناسب موضوعه و جوه: فهو آيات مبينات ، لا تدع مجالا للغموض و التأويل، و الانحراف عن النهج القويم ، و هو عرض لمصائر الغابرين الذين انحرفوا عن نهج الله ، فكان مصيرهم النكال ، وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى و تستقيم .

إن الميل الجنسي يجب أن يظل نظيفا بريئا ، موجها إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة ، و على الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية ، بحيث يكون كل فرد

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي، المصدر نفسه ،ج16 ، ص 10270

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرنفسه، ج16 ،ص 10270

3 – ينظر الزمخشري : تفسير الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ،ص 240

4 – ينظر الشنقيطي : أضواء البيان، المصدر السابق ،ج4 ،ص115

منها ، في مستوى يسمح له بالحياة المعقولة ، و بالزواج . فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة ، عولجت هذه الحالات علاجا خاصا ، و بذلك لا نحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقاذر استثنائية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات تحت سمع الجماعة و بصرها ، إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج ، بحيث لا تخرج مثل هذا النتن.

- المحـــــــــــــــــــور الرابع:

- أثر الإيمان في النفس البشرية (من الآية : 35 ، إلى الآية : 57)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

إن اسم هذه السورة مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، وبعد أن بينت آيات سورة النور هذه الأحكام ، و شرعت التشريعات الاجتماعية وبينت ضرورتها للناس لتزكية نفوسهم وتطهير مجتمعاتهم، أضافت بيانا آخر يحتاج إليه الناس أيضا كحاجتهم إلى بيان الأحكام أو اشد وهو الهداية والتوفيق إلى التزام هذه الأحكام و تطبيقها على مستوى الأفراد والمجتمعات ، فالمعرفة و حدها لا تكفي و لا بد أن يكون معها انقياد و استسلام و التزام ، و لما كانت الهداية من الأمور المعنوية غير المحسوسة ، المستمدة من الله تعالى قربتها الآيات إلى الأذهان .

فضربت لها هذا المثال الرائع بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، و لا بد بعد هذا المثال العجيب المتقن المحكم أن يسأل سائل نفسه : أين هؤلاء المنتفعون بهذه الأمثال و المهتدون بما فيها من أنوار؟ هؤلاء هم المهتدون بنور الله تعالى المنتفعون بآياته الملتزمون بأحكام شريعته ، و أما الضالون هم المحجوبون عن أنوار هدايته فإنهم يضربون في بيداء الحياة على غير نور و هدى دون أن يدركوا حكمة وجودهم و جوهر حياتهم. فوضوح الأدلة و ظهورها لا يكفي وحده، فلا غنى للإنسان عن هدايته تعالى بتوفيقه إلى طاعته، و الحق واضح أبلج لا لبس فيه و لا غموض و مع ذلك تجد أكثر الناس لا ينقادون للحق و لا يذعنون له، ثم أعلنت الآيات حقيقة علمية كبيرة ما كان أحد يعلمها عند نزول القرآن الكريم فكشفت عن وحدة الأصل للبنية المادية لجميع المخلوقات الحية في الأرض و إن

كثيرا من الناس تحيط بهم أنـوار الهداية من كل جانب و مع ذلك اعرضوا و لم يهتدوا لأنهم حرموا من توفيق الله تعالى و هاديته .

- العنـصر الأول : الاتصال بالله نور و سكينة، (من الآية : 35 ، إلى الآية : 38)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

إن التعليم والتهذيب والتوجيه ، يعالج الكيان البشري ، حتى أشرق بالنـور، وتطلع إلى الأفـق الوضيء ، واستشرف النور الكبير في أفاق السماوات و الأرض، وهو على استعداد لتلقي الفيض الشامل . الغامر في عالم كله إشراق و كله نور، ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، و ما يكـاد هذا النص العجيب يتجلى حتى يفيض النور الهادىء الوضيء ، فيغمر الكون كله ، و يفيض على المشاعر والجوارح و ينسكب في الحنايا و الجوانح ، و حتى يسبح الكـون كله في فيض النـور الباهر، و حتى تعانقه و ترشفه العيون و البصائر .... فالنور الذي منه قوامها ومنه نظامها ، فهو الذي يهبها جوهر وجودها ويودعها ناموسها ، و لقد أدركها كاملة شاملة قلـب محمد رسول الله ﷺ ففاض بها وهو عائد من الطائف ، نافض كفيه من الناس ، عائذ بوجه ربه يقول :(أعـوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة)، و فاض بها في رحلـة الإسراء والمعراج . فلما سألته عائشة : هل رأيت ربك قال (نور، أنى أراه)[1] والنور : حقيقته الإشراق والضياء ، وهو اسم جامد لمعنى ، فهو كالمصدر لأنا وجدناه أصلا لاشتقاق أفعـال الإنـارة .... و بذلك كان الإخبار به بمنزلة الأخبار بالمصدر، أو باسم الجنس في إفادة المبالغة لأنه اسم ماهية من المواهي ، فهو و المصدر سواء في الاتصاف ، فمعنى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إن منه ظهورهما ، و النور هنا صالح لعدة معان تشبه بالنور ، و إطلاق اسم النـور عليها مستعمل في اللغة، فالأخبار عن الله تعالى بأنه نور، إخبار بمعنى مجازي للنـور لا محالة

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2518 إلى 2519

بقرينة .... ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرا أو عرضا .. و قال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار : " النور هو الظاهر الذي به كل ظهور " ، أي الذي تنكشف به الأشياء و تنكشف له و تنكشف منه وهو النور الحقيقي و ليس فوقه نور ، و جعل اسمه تعالى النور دالا على التنزه عن العدم فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار في الخلق والإرشاد والتشريع" وتبعه بن برجان الإشبيلي : في شرح الأسماء الحسنى فقال : "إن اسمه النور آل إلى صفات الأفعال".[1] و أما وصف النور هنا فيتعين أن يكون ملائما لما قبل الآية من قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾،وما بعدها في قوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾،إلى قوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ﴾ ، والتزم حكماء الإشراق من المسلمين و الصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور، و اشهرها ثلاثة و هي : البرهان العلمي والكمال النفساني ، وما به مشاهدة النورانيات من العوالم و إلى ثلاثتها أشار شهاب الدين يحي السهر وردي في أول كتابه (هياكل النور) بقوله" يا قيوم أيدنا بالنور. وثبتنا على النور واحشرنا إلى النور" ، فأحسن ما نفسر به قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور و خاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي و السفلي ، وهو من استعمال المشترك في معانيه ،[2] و المعنى نور السماوات و الأرض الحق ، شبهه بالنور في ظهوره و بيانه كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ البقرة (257) : أي من الباطل إلى الحق ، وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات و الأرض، وإما أن يراد أهل السماوات والأرض و أنهم يستضيئون به ،[3] لكن الكيان البشري لا يقوى طويلا على تلقي ذلك الفيض الغامر دائما ولا يستشرق طويلا ذلك الأفق البعيد، فبعد أن جلى النص هذا الأفق المترامي، عاد يقارب مداه و يقربه إلى

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 231–232

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : المصدرنفسه،ج9 ،ص من 232–233

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ، ج3 ،ص 240–241

الإدراك البشـــري المحـــدود في مثل قريب محسوس ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ... نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ ، وهو مثل يقارب الإدراك المحدود صور غير المحدود، و يرسم النموذج المصغر الذي يتأمله الحـــس حيـــن يقصـــر عن تملي الأصل و هو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه و آفاقه المترامية وراء الإدراك البشري الحسيـــر.

و من عرض السماوات و الأرض إلى المشكاة. و هي الكوة الصغيرة في الجدار غيـــر الـــنافـــذة يوضـــع فـــيها المصباح فتحصر نوره و تجمعه، فيبدو قويا متألقا ﴿ كَمِـــشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ... الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ... ﴾ تقيه الريـــح و تصفي نوره فيـــتألق و يزداد..﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ... ﴾ فهي بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة ... هنا يصل بين المثـــل و الحقيقة ، بين النموذج و الأصل . حين يرتقي من الـــزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير[1] والمثل تشبيه حال بحال وقد تقدم في أوائل سورة البقرة ، فمعنى ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ شبيه هديه حال مشكاة... فلا حاجة إلى تقدير كنور مشكاة ، لان المشبه به هو المشكاة وما يتبعها.[2] و قد اختلف العلماء في تحديد المقـــصود بـــ ﴿ نُورِهِ ﴾ إلى أي شيء يرجع ضمير الهاء ؟ قيل : إن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه (السياق) سياق الكلام وتقديـــره مثل نور المؤمن الذي في قلـــبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن ، و ما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستمد به من القرآن الكريم والشرع بالزيت الجيد الـــصافي المشرق المعتدل الذي لاكدر فيه ولا انحراف.[3] وقيل : إن الضمير عائد إلـــى الله عـــز وجل أي مثل هـــداه في قلب المؤمن كمشكاة.[4]، و قال كعب: يرجع

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2519

2– ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير ، المصدرالسابق ، ج9 ،ص235

3 – ينظر إسماعيل بن كثير: تفسير الحافظ ابن كثير ، ج5 ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص102

4 – ينظر إسماعيل بن كثير: المصدر نفسه ، ج5 ص 101

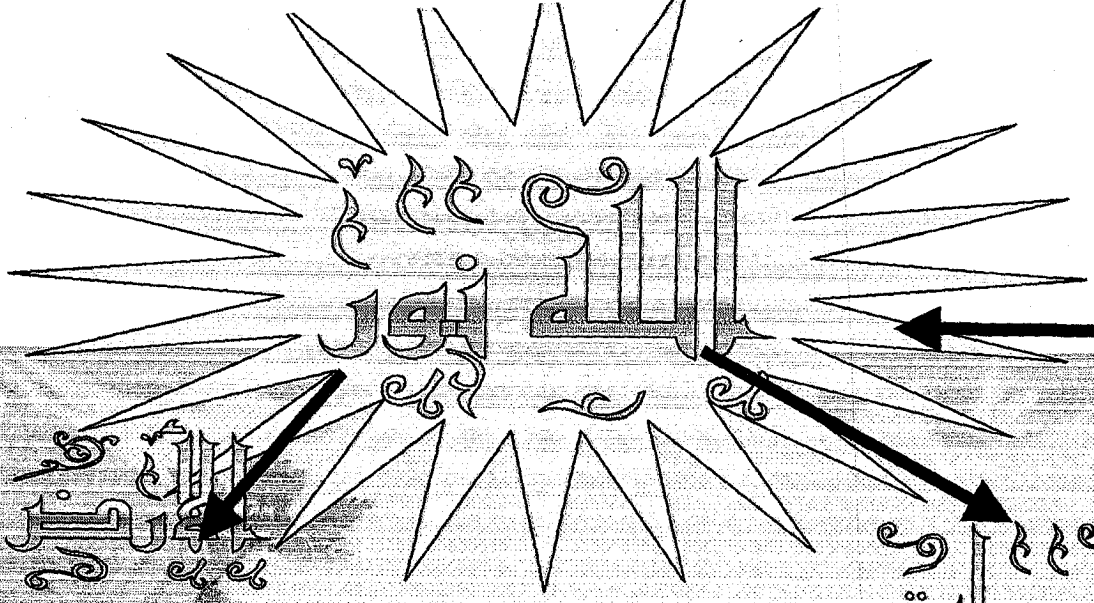

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ
نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ
مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الرسل

العباد

المؤمنون

الصالحون

العلماء

قلب المؤمن

الـضمير إلى محمد – ﷺ.[1] ، ويرى أبو السعود : أنه القرآن الكريم كما يعرب عنه مـا قـبله مـن وصف آياته بالإنزال و التبيين وقد صرح بكونـه نورا أيضا في قوله:﴿وَأَنزلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ المائدة (174).[2]، إذن فالضمير في لفظ ﴿ نُورِهِ ﴾ يحـتمل الأقـوال كلهـا : المؤمن – الله عز وجل – الرسول ﷺ ، القرآن الكريم ، وأولـى الأقـوال في ذلك فيما ترجح القرآن الكريم جاء في (زاد المسير) ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهـل الإيمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سـبيل الرشـاد الذي انزله إليهم فآمنوا به و صدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مـشكـاة.[3] ، و هـذا الـرأي يتماشـى مع مقدمـة السورة خصوصا و مقاصدها عمـوما فالمقدمة كما رأينا فيها إشارة إلى أهمية الأحكام الواردة في السورة و هي لـذلك فرضـت ﴿ وَفَرَضْـنَاهَا ﴾وأغراض السورة تتمحور حول موضوع التربية الأسـرية خاصـة و هـي الخلية التي يتم بها بناء المجتمع و لاشك أن هذه الأحكام كالمـصابيح تنيـر فترشـد و تهـدي إلى الذي هو خير، و كما اختلف في تحديد مقصود الضمير في ﴿ نُـورِهِ ﴾، فقد وقع الاختلاف أيضا في تعيين وجه الشبه فقد قـيل : انه شبه القـرآن بالمصباح يستضاء به ولا ينقص ، و الزجاجة قلب المؤمن و المشكاة لسانه وفمه و الشجرة المباركة شجرة الوحي ، تكاد حججه تتضح و إن لم تقـرأ ، شبه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح ، فالمشكاة قلبه و المصباح نور الإيمـان فـيه ، و الـزجاجـة قلبه ، فكأنه مما فيه من القرآن و الإيمان كوكـب مـضيء مـن شجـرة وهي الإخلاص ، فمثل الإخلاص عنده كشجرة ، تصيبها الـشمس ، فكـذلك هذا المؤمن قد احتـرس من أن تصيبه الفتن ، فان أعطي شكر وإن ابتلـي صبر و إن قال صدق و إن حكم عدل فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى كما يكاد هذا الزيت يضئ ولو لم

---

1 – ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، ج6 ،دار المكتب الاسلامي، بيروت،ط3، 1984 ، ص 40

2 – ينظر ابو السعود محمد بن محمد : تفسير أبي السعود ، ج4 ، دار المصحف ، القاهرة ، د.ت ، د.ط ، ص 118

3– ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد السير في علم التفسير، المصدر السابق، ج6 ، ص 41

تمسسه نار فإذا مسته اشتد نوره.[1]، و قيل في قوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، المقصود : كمصباح في مشكاة و انه قدم المشكاة في الذكر لان المشبه به هو مجموع الهيئة فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله : ﴿ كمشْكَاة ﴾ ، و المنتهي بقوله : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ، فلذلك كان دخول كاف التشبيه على كلمة مشكاة دون لفظ مصباح لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبه بها ، دون لفظ مصباح ، بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني في تصور الهيئة المتخيلة حين يلمح الناظر إلى انبثاق النور ، ثم ينظر إلى مصدره فيرى مشكاة ثم يبدو له مصباح في زجاجة.[2]، و جملة ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا ، هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها ، قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة و المصباح و الزجاج الخالص و الزيت الصافي ، فالمصباح إذا كان في مشكاة و شعاعه منحصراً فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت.[3] ، إن ذلك النور الطليق الشائع في السماوات و الأرض الفائض يتجلى ويتبلور في بيوت الله التي تتصل فيها القلوب بالله ، تتطلع إليه و تذكره و تخشاه ، و تتجرد له و تؤثره على كل مغريات الحياة ، قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ... بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، هناك صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ، و مشهدا لبيوت هنا على طريقة التناسق القرآنية في عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب ، و هناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور في المشكاة و القلوب المشرقة بالنور في بيوت الله ، بدأت الآية بالجار و المجرور ﴿ في بُيُوتٍ... ﴾ و لا بد أن نبحث له عن متعلق فالمعنى: هذا النور الذي سبق الحديث عنه ، في بيوت أذن الله أن ترفع.[4]، و ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ يتعلق بما قبله ،

---

1 – ينظر ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد السير في علم التفسير، المصدر نفسه، ج6 ، ص 45

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ,ص 235

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ،ج9 ,ص242

4– ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16 ,ص10275

أي كمشكاة في بعض بيوت الله ، و هي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت.[1]، تلك البيوت ﴿ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ و إذن الله هو أمر للنفاذ فتتهيأ بالرفعة و الارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ و تتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة المسبحة الواجفة المصلية الواهبة ، قلوب الرجال الذين ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ... ﴾،[2] ثم يقول سبحانه وتعالى في صفات هؤلاء الرجال ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ ، ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى واخلد.[3]، و تتقلب القلوب والأبصار: إما أن تتقلب وتتغير في أنفسها : وهو أن تضطرب من الهول و الفزع و تشخص كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، الأحزاب (10) ، إما أن تتقلب أحوالها وتتغير فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها ؛ لا تفقه و تبصر الأبصار بعد أن كانت عميا لا تبصر[4]، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، و الرزق كل ما ينتفع به و كل معنى فيه فوقية لك هو زرق ، فالصحة رزق و العلم رزق و الحلم رزق ...الخ.2 ، و الأظهر عند الطاهر بن عاشور : أن قوله:﴿ فِي بُيُوتٍ﴾ ظرف مستقر هو حال من ﴿ نُورِهِ ﴾ في قوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾، و يجوز أن يكون ﴿ فِي بُيُوتٍ﴾ غير مرتبط بما قبله وانه مبدأ استئناف ابتدائي وان المجرور متعلق بقوله. ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ و تقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت و للتشويق إلى متعلق المجرور وهو للتسبيح وأصحابه ، و التقدير يسبح لله رجال في بيوت و يكون قوله: ﴿فِيهَا﴾ تأكيدا لقوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ لزيادة الاهتمام بها ، و في ذلك تنويه بالمساجد و إيقاع الصلاة و الذكر فيها ، كما في الحديث (صلاة أحدكم في المسجد- أي مع الجماعة- تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة)*. والمراد بالغدو: وقت الغدو وهو

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ،ص 242

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ،م4، ص2521

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16،ص10281

4 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ،ج3،ص 243.* رواه البخاري في صحيحه، كتاب صلاة الجماعة رقم الحديث 611.

الصباح ، لأنه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم ، و الآصال جمع أصيل و هو آخر النهار ، و المراد بالرجال أصحاب رسول الله ﷺ ، و من كان مثلهم في التعلق بالمساجد.[1] كما أن تخصيص التسبيح بالرجال هنا لأنهم الغالب على المساجد ، و التحقيق أن البيوت المذكورة هي المساجد ، إذا علمت ذلك فاعلم أن تخصيصه من يسبح له فيها بالرجال في قوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ... ﴾ ، يدل بمفهومه على أن النساء يسبحن له في بيوتهن لا في المساجد ، و قد يظهر للناظر أن مفهوم قوله : رجال مفهوم لقب.[2]، و يجوز عند ابن عاشور أن يكون ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ خبراً مقدما و ﴿ رِجَالٌ ﴾ مبتدأ ، و الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾.

و معنى ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ ، أنهم لا تشغلهم تجارة و لا بيع عن الصلوات و أوقاتها في المساجد . فليس في الكلام أنهم لا يتجرون ولا يبيعون بالمرة ، و التجارة : جلب السلع للربح في بيعها ، و البيع أعم وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه . كما أن جملة (﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ ﴾ و جملة ﴿ يَخَافُونَ ﴾ صفتان لـ ﴿ رِجَالٌ ﴾.﴿ وَإِقَامِ ﴾ ، مصدر على وزن الأفعال و هو معتل العين فاستحق نقل حركة عينة إلى الساكن الصحيح قبله و انقلاب حرف العلة ألفا، و تقلب القلوب و الأبصار: اضطرابها عن مواضعها من الخوف و الوجل كما يتقلب المرء في مكانة [3].

كما ذكر عز وجل في هذه الآية الكريمة ، أن الرجال الذين يسبحون له في المساجد بالغدو و الآصال إلى آخر ما ذكر من صفاتهم ، أنهم يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار ، وهو يوم القيامة لشدة هوله ، و تأثيره في القلوب و الأبصار، و معنى تقلب القلوب و الأبصار أقوال متعددة لأهل التفسير ذكرها القرطبي وغيره وأظهرها الشنقيطي : أن تقلب القلوب هو حركتها من أماكنها من شدة الخوف كما قال تعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ غافر (18) ، و إن

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 246

2 – ينظر الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، المصدر السابق ،ج4 ،ص 117

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 249

تقلب الأبصار هو زيغوغتها و دورانها بالنظـر في جميع الجهـات من شدة الخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ، الأحزاب (19).[1]، و جملة ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، تذييل لجملـــة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ و الحساب هنا بمعنى التحديد كما في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، مريم (37)

– <u>العنصر الثاني: الابتعاد عن الله ضلال و ظلمة</u>،(من الآية : 39 ، إلى الآية : 40)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ .

في مقابل ذلك النور المتجلي في السماوات و الأرض ، المتبلور في بيوت الله ، المشرق في قلوب أهل الإيمان ... يعرض السيـاق مجالا آخر مظلما لا نور فيه ، مخيفا لا أمن فيه ، ضائعا لا خير فيه ، ذلك هو مجال الكفر الذي يعيش فيـه الكفـــار : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ.... وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ و التعبير يرسم لحال الكافرين و مآلهم مشهدين عجيبين ، حافلين بالحركة و الحياة ، في المشهد الأول يرسم أعمالهـم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعا كاذبا ، فيتبعه ، صاحبه الظامئ ، وهو يتوقـع الـري غافلا عما ينتظره هناك .... وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة – فهذا السائر وراء السراب ، الظامئ الذي يتوقع الشراب ، الغافـل عما ينتظره هناك .... يصل – فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر لـه ببال ، المرعبة التي تقطع الأوصال ، و تورث الخبال : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ الله الذي كفر به و جحده ، و خاصمه و عاداه ، وجده هنالك ينتظره ولو وجد في هذه المفاجأة خصما لـه من بني البشر لروعه ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ .... هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة و الفجاءة ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ...[2] فإياك أن تستبعد الموت أو البعث ، فالزمـــن بعد المـوت و إلى أن تقوم الساعة زمن لا يحسب لأنه يمر عليك دون أن تشعر به كما

---

1 – ينظر الشنقيطي : أضواء البيان ، المصدرالسابق ،ج4 ،ص122

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدرالسابق ،م4 ،ص 2521

قال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، النازعات (46) والله تعالى أخفى الموت أسبابا و ميعادا ، لأن الإيهام قد يكون غاية البيان ، و بإبهام الموت تظل ذاكرا له عاملا للآخرة.[1]، و الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، مبتدأ و خبره جملة ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾.. الخ – فتشبيه الكافرين و أعمالهم تشبيه تمثيلي : فشبه ذلك بحالة ظمآن يرى السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء ، لم يجد ماء و وجد هنالك غريما يأسره و يحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة –.[2]، و السراب : ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة.[3]، و قوله تعالى: ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ الباء بمعنى في ، و ﴿ وقِيعَةٍ ﴾ ، أرض ، و الجار و المجرور وصف لـ ﴿ سَرَابٍ ﴾ ، وهو وصف كاشف لأن السراب لا يتكون إلا في قيعة ، و قوله : ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ يفيد وجه الشبه و يتضمن أحد أركان التمثيل و هو الرجل العطشان وهو مشابه الكافر صاحب العمل . و ﴿ حَتَّى ﴾ ابتدائية فهي بمعنى فاء التفريع و قوله: ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ أي لم يجد ما كان يخيل إلى عينه انه ماء ، لم يجده شيئا ، و الشيء : هو الموجود وجودا معلوما للناس ، و السراب موجود و مرئي ، فقوله : ﴿ شَيْئًا ﴾ أي شيئا من ماء بقرينة المقام و هذا التمثيل كقوله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ، الفرقان (23) و إذا هنا ظرف مجرد عن الشرطية ، و المعنى : زمن مجيئة إلى السراب أي وصوله إلى الموضع ،وقوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ ﴾ هو من تمام التمثيل أي لم يجد الماء و وجد في مظنة الماء الذي ينتفع به ، وجد من إن اخذ بناصيته لم يفلته ﴿ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ أي أعطاه جزاء كفره وافيا و جملة ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تذييل والسريع ضد البطيء و المعنى انه لا يماطل الحساب و لا يؤخره عند حلول مقتضيه فهو عام في حساب الخير و الشر و لذلك كان تذييل[4] – و دلت هذه الآية الكريمة على

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ،ص 10286

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 251

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ص، 243

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 253

بطلان أعمال الكفار و أنها لاشيء لأنه قال في السراب الذي مثلها به ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ ﴾.[1]، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ... نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾، في هذا المشهد الثاني تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجي موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب و تتراكم الظلمات بعضها فوق بعض حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعـب و الظلام[2] – و البحر اللجي : الواسع الكبير الذي تتلاطم فيه الأمواج بعضها فـوق بعض و فوق هذا كله سحاب إذن فالظلام مطبق لأنه طبقات متتالية و في أعماق بعيدة و قد بلغت هذه الظلمة حدا لا يرى الإنسان معها حتى يده التي هي جزء منه[3]– أنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون ، و مخافة لا امن فيها و لا قرار ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ و نور الله هدي في القلب ، و تفتح في البصيرة فمن لم يتصل بهذا النـور فهـو فـي ظلمـة لا انكشاف لها وفي مخالفة لا امن فيها ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك و العذاب لأنه لا عمل بغير عقيدة، و لا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى و أن نور الله هو النـور.[4]، إن شأن﴿ أَوْ ﴾ إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدل على تخيير السامع أن يشبه بما قبلها و بما بعدها، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ البقرة الآية (19) ، أي مع اتحاد وجه الشبه. – وعلى الوجهين فقوله ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ عطف على ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ و التقدير و الذين كفروا أعمالهم كظلمات و هذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقال : شاهدت سواد الكفر في وجه فلان ، و الظلمات : الظلمة الشديدة و الجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدة فالجمع كناية لان شدة الظلمة تحصل من تظاهر عدة ظلمات.[5]، و اللجي منسوب إلى اللجة و اللج هو معظم ماء البحر ، أي في بحر عميق فالنسب مستعمل في التمكن من

---

1 – ينظر الشنقيطي : أضواء البيان ، المصدر السابق ، ج4 ،ص 123

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2521

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16، ص 10287

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2521

5 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 255

الوصف ،و قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ استئناف والتقدير هي ظلمات و المراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ لان الجمع هنا جمع أنواع و هناك جمع إفراد من نوع وأحد ، و قوله: ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ هو من قبيل قوله ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾،[1] البقرة(71) ، و في ﴿ أَخْرَجَ ﴾ ، ضمير الواقع فيه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ ، مبالغة في لم يراها: أي لم يقرب أن يراها : فضلا عن أن يراها.[2]، كما أن جملة ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ تذييل للتمثيل.

- العنصر الثالث : المعين الأكبر للإيمان،(من: الآية 41، إلي : الآية 46)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

إن مشهد الكفر والظلام في عالم الناس، يتبعه مشهد الإيمان و الهدى و النور في الكون الفسيح، مشهد يتمثل في الوجود كله بمن فيه و ما فيه شاخصا يسبح لله إنسه و جنّه ، أملاكه وأفلاكه أحياؤه و جماده ... و إذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه في مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، إن الإنسان ليس مفردا في الكون الفسيح ، فإن من حوله وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه و من تحته ، إخوان له من خلق الله لهم طبائع شتى و صور شتى و أشكال شتى كلهم يلتقون في الله و يتوجهون إليه ، و يسبحون بحمده : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، و القرآن يوجه الإنسان إلى النظر في ما حوله من صنع الله و إلى من حوله من خلق الله في السماوات والأرض ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبح بحمد الله.[3] ، و عجيب أن تسمع من يقول أن ﴿ مَن ﴾ ، في الآية للعاقل فهو الذي يسبح أما السماوات و الأرض فلا دخل لهما في هذه المسألة ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ، ج9،ص 256

2 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3، ص 244

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدرالسابق ،م4، ص 2521

صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، و آخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحقيقة إنما هو تسبيح دلالة و حال لا مقال ، يعني هذه المخلوقات تدل بحالها على تسبيح الله و تنزيهه، و أنه وأحد لا لشريك له .

على حد قول الشاعر:

و في كل شيء له آية *** تدل على أنه الواحد

﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾، فلماذا خص الطير بالذكر مع أنها داخلة في﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قالوا خصها ، لأن لها خصوصية أخرى و عجيبة لأن الله تعالى يريد أن يجعل الطير مثلا و نموذجا لشيء أعظم فخذ من المشهد الذي تدركه دليلا على ما لا تدركه لكن من الفاعل في ﴿ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، يمكن أن يكون الفاعل الطير و كل ما في الوجود .[1]

فتسبيح العقلاء حقيقية ، و تسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه ، و فيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته و مجازه ، و لذلك خولف بينهما في الجملة الثانية ، فعبر بالصلاة و التسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين : فريق العقلاء و فريق الطير و أن جمعتهما كلمة " كل" فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء ، وليس في أحول الطير ما يستقيم إطلاق الدعاء عليه على وجه المجاز وأبقى لدلالة أصوات الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق و ذلك على التوزيع ولولا إرادة ذلك لقيل : كل قد علم تسبيحه ، أو كل قد علم صلاته.

و الخطاب في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للنبي ﷺ و المراد من يبلغ إليه ، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله .

و الاستفهام مستعمل كناية عن التعجب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ، و مع ذلك قد حرموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم.[2]

و الصافات : يصففن أجنحتهن في الهواء و الضمير في ﴿ عَلِمَ ﴾، لكل ، أو لله و كذلك في ﴿ صلاته و تسبيحه ﴾ .[1]

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المرجع السابق ،ج16 ،ص 10290–10293 .

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 258

و الـــرؤية هـــنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر ، و تسبيح الطير مـــشاهد باعتـــبار مسماه ، فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التـــسبيح ، و علـــى هذا الاعتبار كان الاستفهام الإنكاري مكين الواقع ، وان شئت قلت: أن جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنـــى الـــرؤيـــة ، و قيـــل : الرؤية هنا قلبية ، و أغني المصدر عن المفعولين ، و جملـــة ﴿ وَاللَّـــهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتـــسبيح وغيـــره من الأحوال، و الإتيان بضمير العقلاء تغليب وقد تقدم في قولـــه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴾ ، البقرة (243) .[2] ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ، فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفـــر مـــن لقائـــه ، ولا عاصم من عقابه و إلى الله المصير، و مشهد آخر من مـــشاهد هذا الكون الذي يمرّ عليها الناس غافليـــــن ، و فيها متعة للنظر ، و عبرة للقلـــب ومجـــال للـــــتأمل في صنع الله و آياته ، و في دلائـــــــل النور و الهدى و الإيمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا.... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾.

و المـــشهد هنا يعرض على مهل و في إطالة ،و تترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي و تـــتجمع كل أولئك لتؤدى الغرض من عرضها في لمس القلب و إيقاظه ، و بعثه إلـــى الـــتأمل و العبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله ، إن يد الله تزجى السحاب و تدفعـــه مـــن مكان إلى مكـــان ، ثم تؤلف بينه و تجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعـــض ، فإذ ثقل خرج منه الماء و الوبل الهاطل ، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة ، فيه قطع البرد الثلجية الصغيرة .... و مشهـــد السحـــب كالجبـــال لا يبدو وكما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً .... وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذي يحكم الكون وفق هـــذا الـــناموس يصيب الله بالمطر من يشاء و يصرفه عمن يشاء ، و تكملة المشهد الضخم[3] ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾_ أي الضوء الشديد الذي يحدثه السحاب

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ,ص 245

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ،المصدر السابق ،ج9 ,ص 259

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ،م4 ,ص 2533

يكاد أن يخطف الأبصار ، و في البرق تتولد النار من الماء لذلك حينما يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[1] ، التكوير(6) فصدّق هذه الآية الغيبية لأنك شاهدت نموذج لهـا في مسألة البرق ، ﴿ يُزْجِي ﴾ يسوق ، و منه البضاعة المزجاة التي يزجيها كـل أحد لا يرضاها ، و السحاب يكون و أحدا كالعماء و جمعا كالرباب و هو سحاب أبيض[2] ، وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الـتشبيه بالـسوق حتى يصير سحابا كثيفا ، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عـنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ.. ﴾ الخ ، دخلت ﴿ بَيْنَ ﴾ على ضمير السحاب ، لأن السحاب ذو أجزاء كقول : امرئ القيس :[3]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *** بسقط اللوى بين الدخول فحومل*

أي يؤلف بين السحابات منه .

و ﴿ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾على زيادة الباء كقوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾البقرة (195) و هذا من تعديد الدلائل على ربوبيته ، و ظهور أمـره ، حيـث ذكـر تسبيـح من في السماوات و الأرض و كل ما يطير بين السماء و الأرض ، و دعاؤهم له ، و ابتهالهم إليه ، و أنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه ، و ما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه ، و أنه يقسم رحمته بين خلقه ، و يفيضها و يبسطها على ما تقتضيه حكمته ، و يريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم ، ليعتبروا و يحذروا و يعاقب بين الليل و النهار ، و يخالف بينهما بالطول و القصر ، و ما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده و ثباته[4].

ثم مشهد كوني آخر: مشهد الليل و النهار: قال تعالى : ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ، و التأمل في تقلب الليل و النهار بهذا النظام الـذي لا يخـتل ، و لا يفتـر، يوقظ في القلـب الحساسية ، و تدبر الناموس الذي

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ، ج16،ص 10297

2 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ،ص 245

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 260* هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي شاعر جاهلي توفي سنة 565م. ينظر الشعر والشعراء لإبن قتيبة، ط2، 1986، ص 58.

4 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ،ص 246

يـصرف هـذا الكـون ، و الـتأمل في صنع الله.[1] و العبرة هنا ، لمن ؟ ﴿ لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ، و المراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التي تدرك فقط ، إذن : المراد الأبصار التي تنقل المبصر إلى العقل ليحلله و يستنبط ما فيه من أسباب لعله يستفيد منها بشيء ينفعه.2

و التقليب تغير هيئة إلى ضدها ، و منه ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا... ﴾ الكهـف (42) أي يديـر كفيه من ظاهر إلى باطن ، فتقليب الليل و النهار ، تغيير الأفـق مـن حالـة الليل إلى حالة الضياء ، و من حالة النهار إلى حالة الظلمة ، [3] و يمـضي السيـاق في عرض مشاهد الكـون و استثارة تطلعنا إليها ، فيعرض نشأة الحياة ، من أصل واحد ، وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة،[4] قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ و المشي: هو انتقال الموصوف بالمشي ، من حيز مكاني إلى حيز مكاني آخر ، و الناس تفهم أن المـشي ما كان بالقدمين ، لكن يوضح لنا سبحانه أن المشي أنواع : فمن الدواب ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ و مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَـعٍ ﴾ لذلك قـال بعدهـا﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ لأن الآيـة لم تستقص كل ألوان المـشي إنما تعطينا نماذج و تحت ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ، تندرج مثلا (أم أربعة و أربعين) و غيرها من الدواب....[5]

وقرئ : (خالق كل دابة) ، و لما كان اسم الدابة موقعا على المميز و غير المميز ، غلب المميز ، فأعطى ما وراءه حكمه ، كأن الدواب كلهم مميزون ، فمن ثمة قيل فمنهم و قيل : من يمشي في الماشي على بطنه ، و الماشي على أربع قوائم، فان قلت لم نكر الماء في قوله : ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾؟ قلت : لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء ، مختص بتلك الدابة أو خلقها من ماء مخصوص وهو

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2523

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16 ،ص 10298

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 264

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2523

5 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16، ص 10300

النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة ، فمنها هوام ، و منها بهائـــم ، و منها ناس.[1] لما كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في اصل التكوين من ماء التناسل مع اختلاف في أول أحوال ، تلك الأجناس في آثار الخلقة و هو حال المشي ، إنما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلف ، و كان ذلك محققا ، كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، مفيدا لأمرين : التحقق بالتقديم على الخبر الفعلي ، و التجدد بكون الخبر فعليا ، و إظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنوية بهذا الخلق العجيب ، و اختير فعل المضي للدلالة على تقرير التقوى ، بأن هذا شأن متقرر منذ القدم ، مع عدم فوات الدلالة على التكرير، حيث عقب الكلام بقوله : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾، و تنكير ﴿ مَاءٍ ﴾ لإرادة النوعية على اختلاف صفات الماء ، لكل نوع من الدواب و ﴿ مِنْ ﴾ ، ابتدائية متعلقة بـــ ﴿ خَلَقَ ﴾ ، وجملة ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ زيادة في العبرة ، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم ، وما لم تعلموا ، فهي جملة مستأنفة، وجملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل و تذييل و وقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كلاما مستقلا بدانته ، لأن شان ، التذييل أن يكون كالمثل ،[2] و قوله تعالي : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، يعني من ملك هذا الملك وحـــده ، و خلق لكم هذه العجائب ، أنزل لكم آيات بينات ، تحمل إليكم الأحكـــام ، فكما فعل لكم الجميـــل و وفر لكم ما يخدمكم في الكون ، سمائه و أرضه ، فأدوا انتم ما عليكم نحو منهجه و أحكامـــه ، و اتبعوا هذه الآيات البينات ، و معنى ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي لاستقامة حركة الحياة لأن حركة الحياة تحتاج لأن يتحرك الجميع ، و يؤدي كل مهمته حتى تتساند الحركات ، و لا تتعاند ، فالذي يتعـــب الدنيـــا أن تبني و غيرك يهدم ،[3] فآيات الله مبينة كاشفة تجلو نور الله و تكشف عن ينابيع هداه، و تحدد الخير و الشر، و الطيب و الخبيث ، و تبين منهج الإسلام في الحياة كاملا دقيقا ، لا لبس فيه ، و لا غموض ، و تحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة و لا

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3،ص 242

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 265

3 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج16 ،ص 10301

إبهام ، فإذا تحاكم الناس إليها ، فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة ، لا يخشى منها صاحب حق على حقـــه ، و لا يلتبس فيها حق بباطل ، و لا حلال بحرام ، ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. و المشيئة مطلقة لا يقيدها قيد غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقا من وجه نفسه إليه و جد فيه هدى الله و نوره فاتصل به و سار على الدرب حتى يصل- بمشيئة الله- و من حـــاد عنـــه و أعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال حسب مشيئة الله في الهدى و الضلال.[1]

هنا في الآية الكريمة ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ... ﴾ تدليل للدلائل و العبر السالفة و هو نتيجة الاستدلال و لذلك ختم بقوله ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلال فذلك لأن الله لم يهدهم لأنه يهدي من يشاء، و المراد بالآيات هنا آيات القرآن كما يقتضيه فعل ﴿ أَنْزَلْنَا ﴾ و لذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابـــق﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾، و قرأ نافع و ابن كثيـــر و أبـــو عمر و أبو جعفر و يعقوب ﴿ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ بفتح الياء على صيغة اسم المفعول أي بينها الله و وضحها ببلاغتها و قوة حجتها ، و قرأ الباقون بكسر الياء على صيغة اسم الفاعل فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي لأنها سبب البيان ، و المعنى أن دلائل الحق ظاهرة و لكن الله يقدر الهداية إلى الحق لمن يشاء هدايته.[2]

- العنصر الرابع: الأدب مع الله، (من الآية : 47 ، إلى الآية : 57)

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ... وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

بعـــد تلك الجولة في مجالي النور في مشاهد الكون الكبير .. يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل ، موضوع الآداب التي يربي عليها القرآن الجماعة المسلمة لتتطهـــر قلـــوبهـــا و تـــشـــرق و تتصل بنور الله في السماوات والأرض ، قال تعالـــى:﴿ وَيَقُولُـــونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا... بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، إن هؤلاء كانوا يقولون ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ يقولونها بأفواههم ولكن مدلولها

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2525

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 267

لا يـــتحقق فـــي سلوكهم.[1]، يقولون كلاما جميلا لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي والإيمان يقتضي أن تجئ الأعمال على وفق منطوق الإيمان.[2]

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين آمنا واطعنا أوالى الفريق المتولي إنما كان ادعاء باللسان من غير مواطأة القلب لأنه لو كان صادرا عن صحة معتقد وطمأنينة نفس لم يتعقبه التولي والإعراض.[3]، ففي قوله ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾،الحجرات(14) والإشارة في قوله ﴿ وَمَا أُولَئِكَ﴾إلى ضمير﴿يَقُولُونَ﴾أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم ولا يصح جعله إشارة إلى ﴿فَرِيقٌ﴾ من قوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأن إعراضهم كاف في الدلالة على عدم الإيمان.[4]، والتعريف في قوله: ﴿بالمؤمنين﴾دلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفت وهم الثابتون والمستقيمون على الإيمان ، الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا...﴾.[5]،الحجرات (15) لقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان ويخافون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على الشريعة الإلهية التي جاء بها،﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ .

وهـــذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطيق العدل ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ و يأبون أن يجيئوا إليه .[6] ، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ.. ﴾ أي الرسول ﷺ.[7] ، ومن ثم يعقب على فعلتهم هذه بأسئلة تثبت

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2525

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج16 ،ص 10306

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ، ج3 ،ص 247

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 268

5 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدرالسابق ، ج3 ،ص 247

6 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ،م4 ،ص 2526

7 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص 270

مـــرض قلـــوبهم وتـــتعجب مـــن ريبتهم وتستنكر تصرفهم الغريب ، ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾.

- **و الـــسؤال الأول :** للإثبات فمرض القلب جدير بأن ينشيء مثل هذا الأثر ، و ما ينحـــرف الإنـــسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة إنما هو المرض الذي تحتل به فطرته عن استقامتها فلا تتذوق حقيقة الإيمان و لا تسير على نهجه القويم .

- **السؤال الثاني :** للتعجب فهل هم يشكون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون في مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكون في صلاحيته لإقامة العدل؟ على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين !

- **السؤال الثالث :** للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب فهل هم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ وانه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان فالله خالق الجميع، فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه وهو العادل!؟[1]، والحق تبارك وتعالى، حينما يعاقب الظالم فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى في ظلمه ويجر على نفسه جزاء شر بعد أن كان يمنيه بجزاء خير[2]. واتبع بعض الاستفهامات بعضها بحرف أم المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات لان المتعاطفات بها حينئذ ليست مما يطلبه تعيين بعضه دون بعض وأما معنى الاستفهام فملازم لها لأنه يقدر بعد ﴿ أَمْ ﴾.[3] في هذه الآية والتي قبلها حديث عن المنافقين وصفاتهم . هؤلاء المنافقون الذين ينتسبون إلى الإيمان قولا . ويرفضون تنفيذ مقتضاه عملا . وبذلك يسيئون إلى المؤمنين الصادقين بعد إساءتهم إلى أنفسهم.[4] وجاء في المصحف الميسر : ﴿بَلْ﴾ حرف يفيد إبطال ما قبله واثبات ما بعده . أي أن الحال لهم على الإعراض عن حكمه -ﷺ- ليس شيئا مما تقدم .

---

1 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ،المصدر السابق ، م4 ،ص 2526

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ، ج16 ،ص 10307

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ،ص 271

4 – ينظر حسن أيوب : مع الله في صفاته و أسمائه الحسنى ، دار الشهاب باتنة الجزائر د.ت ، د.ط ، ص 25

بل هو شدة ظلمهم لأنفسهم وللحق بإصرارهم عن العناد و المكابرة.[1] و يرى القاسمي رحمه الله ، أن ﴿ بَلْ ﴾ تفيد الإضراب الانتقالي ، لا لنفي ما قبلها واثبات ما بعدها حيث يقــول :

(الاســتفهام ليس نفس ما وليته الهمزة و﴿ أَمْ ﴾من الأمور الثلاثة. بل هو منشئيتها لــه، كأنه قيل : أذلك أي إعراضهم المذكور ، لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم أم لأنهــم ارتابــوا فــي أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيقتها؟ أم لأنهم يخافون الحــيف ممن يستحيل عليه ذلك؟ إشارةَ إلى استجماعهم تلك الأوصاف الذميمة التي كــل وأحــد منها كفر و نفاق ، ثم بين اتصافهم مع ذلك بالوصف الأسوأ وهو الظلم لأنفسهم و لغيرهم ، فالإضراب انتقالي و المعنى : دع هذا كله . فإنهم هم الكاملون فــي الظلــم الجامعون لتلك الأوصاف)[2]، و يؤيد هذا الرأي ابن عاشور رحمه الله حــيث يقــول : ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر .. و ليست ﴿ بَلْ ﴾ هنا للإبطال لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة.[3] "و معنى هــذا أن الانتقال في الآية تدرج في عد أخلاقهم[4] فهم من النفاق إلى الشك في صدق النبوة إلى الخوف من الظلم من الحكم إلى الظلم لأنفسهم و لغيرهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَــا كَــانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الآية51 سورة النور.

و في الانقياد المطلق لأوامر الله دون تردد ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، أي سمعنا قولك و أطعنا أمرك.[5] و هذا هو أدبهم مع الله دائما لا غير كما هو مقتضى لفظ :﴿ إِنَّمَا﴾ التي تفيد التوكيد و الحصر، فهم إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسولــه ليحكم بينهم

---

1 – ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، دار الشروق ، بيروت ، ط 5 ، 1391 هـ ، ص 466

2 – محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي، م7 ، ج11 ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م ، ص 226

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج 9 ،ص 272

4 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدرنفسه ، ج 9 ،ص 271

5 – ينظر الشيخ طنطاوي جوهري : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ج 12 ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1350 هـ 1930 م ، ص 98

و بين خصومهم أن يقولـــوا سمعنا ما قيـــل و أطعنا من دعانا إلى ذلك.[1] و هذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[2]، و يستفاد من هذا أنه يجب رد موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله و رسوله لا أحد غير الله و رسوله فمن أحال الرد على غيرهما فقد ضاد أمر الله و من دعا عند النزاع إلى حكم غير الله و رسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يرد كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله[3]، وقال السيوطي في الإكليل فيها وجوب الحضور على من دعي لحكم الشرع و تحريم الامتناع واستحباب أن يقال سمعنا و أطعنا[4] ، و قـــال سيد قطب فهو السمع و الطاعة بلا تردد و لا جدال و لا انحراف، السمع و الطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله و رسوله هو الحكم وما عداه الهوى[5]، فإذا أراد المسلمون اليوم أن يحقـــــق لهم مرادهم فليقولوا سمعنا واطعنا بالقول و الفعل و لا يكونوا كالذين نافقوا،فأخزاهم الله . قوله الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.[6] ، في الآية التي وردت قبل هذه الآية . كان الحديث عن صفات المؤمنين الصادقين ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾.[7] ، وفي هذه الآية حديث مقارب لذلك ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾، ففي الكلام إطناب وذلك (ليحصل تعميم الحكم).[8] و قد جيء في الآية بصيغة الحصر للتعريض بالذين

---

1 – ينظر أبو جعفر محمد بن جرير : مختصر تفسير الطبري ، اختصار و تحقيق ، محمد علي الصابوني و صالح احمد رضا ، م8 ، مكتبة رحاب الجزائر، ط2 ، 1987 ، ص 120

2 – النساء الآية 59

3 – ينظر محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي ، م7 ، دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م ، ص 226

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2527

5 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر نفسه ،م4،ص 2527

6 – النور الاية 52

7 – النور الآية 49

8 – الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 275

أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله وهي على أوزان صيغة القصر التي تقدمتها .[1]، إن الإيمان الذي يصدقه عمل ، هو الإيمان الذي يأخذ بأصحابه إلى الفوز ، و طاعة المؤمن لربه شيء يعبر عن مدى إشراق القلب بنور الله واتصاله به ، وشعوره بهيبته ، كما ينبيء بعزة قلب المؤمن واستعلائه فكل طاعة لا ترتكن إلى طاعة الله ورسوله ، ولا تستمد منها ، هي ذلة يأباها الكريم وينفر منها طبع المؤمن[2]، وإذا كان المنافقون الذين يقولون سمعنا و أطعنا بأفواههم ويعرضون بأفعالهم عن حكم الله و حكم رسوله، لا قيمة و لا وزن لما قالوا، و أولئك هم الخاسرون ، فان المؤمنين الذين قالوا ، سمعنا واطعنا بأفواههم ، ثم اتقوا الله فأطاعوه بأفعالهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾واستعمل اسم الإشارة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم و بعد منزلتهم في الفضل.[3] ، إن الإيمان ليس مجرد ادعاء بالقـــول ، بل الإيمان تصديق و تطبيق استسلام لأمر الله واحتكام لشرعه ، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ النور(53) ، القسم : هو اليميـــن و الحلف و الإنسان يقسم ليؤكد المقسم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسم عليه حـــق و هؤلاء لم يقسموا بالله سرا في أنفسهم إنما ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ... ﴾ ، يعني بالغوا و أتوا بمنتهى الجهد في القسم فلم يقل أحدهم : و حياة أمي أو أبي إنما أقسموا بالله، و ليس هناك قسم أبلغ من هذا القسم لذلك يقول النبي ﷺ : (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت).*[4]، جهد يمينه: مستعار من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها و ذلك إذا بالغ في اليمين و بلغ غاية شدتها و وكادتها [5]، جهد : الجهد المبالغة و الغاية ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي بالغوا في اليمين و اجتهدوا فيها[6]، و في

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر نفسه ، ج 9 ، ص 276

2 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ، ص 2527

3 – ينظر أبو الفضل محمود الألوسي: تفسير روح المعاني، م6، دار الفكر، بيروت، لبنان د.ت، د.ط، ص 198

4 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10310.* رواه البخاري في صحيحه كتاب الشهادات، رقم الحديث 3104.

5 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 250

6 – ينظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة(جهد)، المصدر السابق، ج1، ص 521.

(صفوة التفاسير) : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ نهاية الأيمان المغلظة .[1] و في التفسير الميسر: بالغين غاية جهدهم في توكيد أيمانهم.[2]، ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾: طاعة معلومة لا يشك فيها و لا يرتاب أو طاعة معروفة أمثل و أولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة.[3] و في المصحف الميسر: المراد طاعتكم طاعة معروفة أي أنها قولية لا فعلية[4] و في تفسير سورة النور: 5 ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾: - هناك معنيان الأول طاعتكم طاعة معروفة أي إن الله يعلم حقيقة طاعتكم إنما هي قول لا معنى له ، و الثاني إن الطاعة المعروفة المطلوبة من أهل الإيمان إنما هي طاعة معروفة و هي الطاعة التي تكون فوق كل شبهة و لا تكون معها حاجة إلى حلف و لا قسَم.[5]، وقال الطبري رحمه الله :" لا تحلفوا فان هذه طاعة معروف منكم فيها التكذيب".[6]، فالمنافقون بلغوا الغاية في قسمهم بالله تعالى زاعمين بأنهم من الطائعين لله ، وليردوا تهمة إعراضهم عن حكم الله وحكم رسوله و لكن قسمهم كقسم إبليس لآدم وحواء عليهما السلام ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾.[7]، أما كون الآية تحوي صورة بيانية (الاستعارة المكنية) فان : جهد : منصوبا على المفعول المطلق الواقع بدلا من فعل ، و التقدير : جهدوا أيمانهم جهدا . و الفعل المقـــــدر في موضع الحال من ضمير﴿وَأَقْسَمُوا ﴾ و التقدير : اقسموا يجهدون إيمانهم جهدا ، و إضافة "جهد" إلى إيمانهم على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله جعلت الأيمان كالشخص الذي له جهد .ففيه استعارة مكنية ، و رمز إلى المشبه به بما هو من روافده و هو أن أحدا يجهده ، أي يستخرج منه طاقته فان كل إعادة لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرر كالجهد له فهذا أيضا استعارة.[8]، و في صفوة التفاسير

---

1 – ينظر محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، ج2 ، شركة الشهاب الجزائر ، ط5 ، 1990 م ، ص 347

2 – ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، المرجع السابق ، ص 466

3 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 250

4 – ينظر عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، المرجع السابق ، ص 466

5 – ينظر أبو الأعلي المودودي : تفسير سورة النور ، دار الشهاب باتنة الجزائر ، د.ت ، د.ط ، ص 212.

6 – ينظر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري ،المصدر السابق ، م2 ، ص 102.

7 – الأعراف– .الآية:21.

8 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9، ص277.

﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ، شبه الأيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة و التوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه ، و يبذل أقصى و سعه و طاقته بطريقة الاستعارة.[1]،هكذا المنافقون يجهدون أنفسهم و يبذلون أقصى ما يملكون من طاقة 'حالفين بالله أنهم من الطائعين لأمر الرسول ﷺ و ما هم كذلك إنهم لكاذبون .فالصادق في إيمانه، لا يحتاج في طاعته لربـــــــه و إتباع أمر نبيه إلى قسم ، بله تأكيد القسم ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إن في قسمهم هذا و تأكيده ، دليل على نفاقهم المخبوء في قلوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَـــلَاغُ الْمُبِينُ ﴾[2]، إن القرآن ليس كتاب أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ،

و الأصل فيه أنه معجز ، و مع ذلك أدخلت فيه بعض الأصول والأحكام ، و ترك البعض الأخر لبيان الرسول و توضيحه في الحديث الشريف و جعل له ﷺ حقا في التشريع بنص القران الكريم: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾.[3]، و القران حين يورد الأحكام يوردها أجمالا ثم يفصلها رسول الله ، فالصلاة مثلا أمر بها الحق تبارك و تعالى و فرضها لكن تفصيلها جاء في السنة النبوية المطهرة [4]، و يختلف في الآية الكريمة معنى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، بين معنى الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم ، و أعيد الأمر بالقول للاهتمام بهذا القول فيقع كلاما مستقلا غير معطوف.[5]، و نلاحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا،وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة ﴿ومن يطع الله ورسوله... ﴾ ، و في : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ الأنفال (20) . و في ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ

---

1 – ينظر محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، المرجع السابق ، ج2 ، ص352.

2 – النور : الآية 54.

3 – الحشر : الآية 07.

4 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص10313.

5 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9 ،ص208.

أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ النساء (80) ، أي أن طاعتهما واحدة .[1] ، و قوله ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ يجوز أن يكون تفريعا على فعل ﴿ أَطِيعُوا ﴾ فيكون فعل ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ من جملة ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم و يكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب ، و أصله تتولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف.[2] ، فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسوله كالصلاة مثلا ... ففي مثل هذه المسالة نقول : أطيعوا الله و الرسول ، لأنهما متواردان على أمر وأحد ،فجاء الأمر بالطاعة واحدة .[3] ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.[4]، في هذه الآية الكريمة بيان لشروط النصر والتمكين في الأرض ، و بيان لحال المؤمنين بعد التمكين . كما ذكرت أن الله يعد ، و أن وعده حق ، لقد و عد الله جيل الصحابة و تحقق و عده حيث أظهر الله نبيه على جزيرة العرب ثم أن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر و عثمان حتى و قعوا فيما و قعـــوا فيـــه .[5] ، شرطان أساسيان لتحقيق النصر و بلوغ المجد ، و التنعم بالأمن و الطمأنينة بالإيمان و العمل الصالح ﴿ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ... ﴾ ، و قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ فيه (تفسير للوعد ومبين له)[6] ففي الآيـــــة و عد و بيان للموعود ، جاء في الكشاف (و عدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر و يورثهم الأرض و يجعل فيها خلفاء ، و أن يمكن الدين المرتضى و هو دين الإسلام) .[7]

---

1 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10312.

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ،ج9، ص281.

3 – ينظر تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ،ج17،ص 10313.

4 – النور الآية 55

5 – ينظر اسماعيل بن كثير: تفسير ابن كثير ، المصدرالسابق ، ج5 ، ص 120

6 – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المصدرالسابق،ج3، ص 173.

7 – الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ، ص 273

إذا جـاءت الأرض هكذا مفردة غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض، [1] كمـا في قولـه تعالى : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ الإسراء (10).[2] و الآية تشمل جميع الناس . في كل زمن فوعد الله عام شامل محيط فمن امن وعمل صالحا استخلف و مكن له في الأرض ، و قوله تعالى : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ أي هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياه و في هذه الحال إيذان بان ذلك الوعد جزاء لهم ، أي و عدتهم بهذا الوعد الشامل لهم و الباقي في خلفهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الشرك ، و عبر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضا بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.[3] ، و إذا كانت الآية فيها تعريض بالمنافقين الذين لا يثبتون على إيمان وصلاح ، فإنها تشمل جميع المسلمين إن هم انتصروا ثم انقلبوا ، فان الله خاذلهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ النور (56) ، في الآية الكريمة بيان للاتصال بالله ، و تقويم القلب بإقامة الصلاة و الاستعلاء على الشح و تطهير النفس و الجماعة بإيتاء الزكاة و طاعة الرسـول والرضى بحكمه ، و تنفيذ شريعة الله في الصغيرة و الكبيرة ، و تحقيق النهج الذي أراده للحياة،[4] و إن كانت أركان الإسلام خمسة ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، و لأهمية الصلاة و مكانتها في الإسلام ، اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففي الصلاة تتكرر الشهادة لا اله إلا الله محمد رسول الله ، و في الصلاة و الزكاة فرع العمل ، و العمل فرع الوقت ، و الصلاة تأخذ الوقت نفسه[5] ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ معطوف على ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، و ليس ببعيد إن يقع بين العطوف و المعطوف عليه فاصل ، وإن طال : لأن حق المعطوف أن

---

1 – ينظر الشعراوي : الشعراوي ، ج17، المصدر السابق، ج17،ص 10323

2 – الإسراء الآية 104

3 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق ، ج9 ، ص 288

4 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق ، م4 ،ص 2530

5 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10325

يكون غير المعطوف عليه و كررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها ، [1] و هنا في الصلاة و الزكاة خص الرسول بالإطاعة ، لأنه صاحب البيان و التفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية الصلاة و الزكاة ، حيث تفصيل كل منهما في السنة المطهرة.[2]، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، في الآية الكريمة يبين الله أنه إذا استقمتم على النهج ، فلا عليكم من قوة الكافرين فماهم بمعجزين في الأرض وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق ، و أنتم أقوياء بإيمانكم أقوياء بنظامكم ، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون و قد لا تكونوا في مثل عدتهم من الناحية المادية ، و لكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق و الأعاجيب ،[3] يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني : لا تظنن ، و الشيء المعجز هو الذي يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئا معجزا لفلان يعني: لا يستطيع الإتيان بمثله ،[4] و في الكشاف يعني لا يحسبن الذين كفروا أحد يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك.[5]، و في التحرير و التنوير : استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله : ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوة وكثرة ،.و كان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم ، فربما كان الوعـــد بالأمن من بأسهم متلقى بالتعجب و الاستبطاء الشبيه بالتردد فجـــاء قوله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾، تطمينا و تسلية،[6] فإياك أن تظن أن الكافرين مهما علت مرتبتهم ومهما استشرى طغيانهم يفلتون من عقاب الله فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبدا ، و لن يعجزوه... إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات و لا بد أن يبحث

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج3، ص 252

2 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج17 ،ص 10327

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدرالسابق ، م4 ،ص 2530

4 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ، ج 17 ، ص 10327

5 – ينظر الكشاف : الكشاف ، المصدر السابق ،ج 3 ، ص 252

6 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير المصدر السابق ، ج9 ،ص 290

عن مصداقها في تاريخ البشرية و هو يدرك شروطها على حقيقتها قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات، انه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله و حكمت هذا النهج في الحياة و ارتضته في كل أمورها ... إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف و التمكين و الأمن، و ما من مرة خالفـــــت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة ، و ذلت و طرد دينها من الهيمنة على البشرية و استبـــد بها الخـــوف و تخطفها الأعداء ، إننا لنجد نور الله هناك ، فالله نور السموات و الأرض نجـــده في الأفـــــاق و في أنفسنا و في ذات اللحظة التي نشهد فيها هذا الوجود بالحس البصير و القلب المتفتح ، و إن هذا الوجود لجميل و باهر و إن فطرتنا لمتوافقة مع فطرته ، مستمدة من النبع الذي يستمد منه ، فالاتصال بضمير هذا الوجود يهبنا أنسا وطمأنينة و صلة و معرفة ، و فرحة كفرحة اللقاء بالقريب الغائب و ما علينا إلا التأمل الواصل إلى حقيقة التدبير، و لهذا يوقظنا القرآن المرة بعد المرة ، و يوجه حسنا و روحنا إلى شتى مشاهد الوجود الباهرة ، كي لا نمر عليها غافلين مغمضي الأعين ، فنخرج من رحلة الحياة على ظهر هذه الأرض بغير رصيد أو برصيد قليل هزيل، قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد (24) ، فالكون سر الله مفتاحه القرآن الكريم الجامع المانع .

- المحـــــــــــــــــــــــــــــــــور الخامس

- أدب الاستئذان ومخالطة الأهل (من: الآية 58 إلى: الآية 61)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

إن الإسلام منهاج متكامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبير، وينسق بينها جميعاً ويتجه بها إلى الله في النهاية.

و في هذه السورة نموذج من ذلك التنسيق ، لقد تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاســـتئذان علـــى البيوت ، و إلى جانبها جولة عظيمة في مجالي الوجود ، ثم عاد

الـــسياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله و رسوله ، وسوء أدب المنافقـــين ، إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين ، بالاستخلاف و الأمن و التمكين ، و هـــا هو ذا في هذا المحور يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت ، إلى جانب الاســـتئذان مـــن مجلس رسول الله ﷺ و ينظم علاقة الزيارة و الطعام بين الأقارب و الأصـــدقاء ، إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول و دعائه ، فكلها آداب تأخـــذ بها الجماعة المسلمة وتنظم بها علاقاتها ، و القرآن يربيها في مجالات الحياة الكبيرة و الصغيرة على السواء .

قـــال تعالـــى: ﴿ يَـــا أَيُّهَـــا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ.... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.﴾

تعلمـــنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة ، المكونة من الأبوين و الأبناء ثم الأتـــباع ، مثل الخدم و غيرهم ، و الحق تبارك و تعالى يريد أن ينشئ هذه الأسرة على أفضـــــل ما يكـــون ، و يخص بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعني يا من آمنتم بي ربـــاً حكيماً مشرعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الآداب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّـــذِينَ آَمَـــنُوا لِيَـــسْتَأْذِنْكُمُ الَّـــذِينَ مَلَكَـــتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾ .

معلـــوم أن طلـــب المتكلم من المخاطب يأتي على صورتين : فعل الأمر و فعل المضارع المقترن بلام الأمر فقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمُ... ﴾ يعني علّموا هؤلاء أن يـــستأذنوا علـــيكـــم مثل : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا... ﴾ يعني : استعفوا لأن اللام هنا لام الأمر[1] .

و قد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة، و من هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت ، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ ، و هو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عمـــوم و قـــوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات فكان قوله:﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ إلى قوله تعالى:

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ،ص 10328

﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ تشريعاً لاستئذانهم في هذه الأوقات و هو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة فصار المفهوم مخصصاً لعموم النهي في قوله: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ ، و أيضاً هذا الأمر مخصص بعموم ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾، و عموم ﴿ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ من قوله تعالى:﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ... ﴾ الخ المتقدم أنفاً[1]. قوله تعالى: ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ مرة في الأصل مصدر و قد استعملت ظرفاً فعلى هذا ينتصب ﴿ ثَلَاثَ ﴾ على الظرف ، و العامل ليستأذن ، و على هذا في موضع ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ ثلاثة أوجه : أحدهما : نصب بدلاً من ثلاث و الثاني : جر بدلاً من مرات و الثالث : يرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي من قبل و تمام الثلاث معطوف على هذا [2].

فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان، إلا في ثلاث أوقات تتكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، هذه الأوقات هي : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أوانهم يغيرونها و يلبسون ثياب الخروج ، ووقت الظهيرة عند القيلولة حيث يخلعون ملابسهم في العادة و يرتدون ثياب النوم للراحة ، وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك و يرتدون ثياب الليل[3] .

وسمي كل واحدة من هذه الأحوال عورة لأن الناس يختل تسترهم و تحفظهم فيها [4].

و العورة في الأصل : الخلل و النقص و فيه قيل لمن فقدت عينه اعور وعورت عينه ، و منه عورة الحي و هي الجهة غير الحصينة ، منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر [1] .

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدرالسابق ، ج9 ،ص291

2 – ينظر أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت ،د.ط ،2001 م، ص 255

3 – ينظر سيد قطب :في ظلال القرآن، المصدر السابق،م4، ص 2532

4 – ينظر الزمخشري :الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ،ص 253 .

و سماها ﴿ عَوْرَاتٍ ﴾ لانكشاف العورات فيها ، و في هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم و أن يستأذن الصغر المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم و هو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية و العصبية و الخلقية.

ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ، و أن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر[2].

ثم يقول سبحانه و تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ... ﴾ ، يعني : بعد هذه الأوقات لا إثم و لا حرج عليكم ، و لا علي المماليك أو الصغار أن يدخلوا عليكم ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مستعداً لممارسة حياته العادية ، و لا مانع لديه من استقبال الخدم أو الأطفال الصغار دون استئذان لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء و خروجهم باستمرار[3]. و هنا في القول تصريح بمفهوم الظروف ، في قوله تعالى:﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ ، و ما عطف عليه أي بعد تلك الأوقات المحددة ، و ما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم .

و لك أن تجعل ﴿ بَعْدَ ﴾ بمعنى (دون) أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾، الجاثية (23) و ضمير ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ عائد إلى ثلاث عورات أي بعد تلك الأوقات[4].

ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات و بين وجه العذر في قوله : ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، يعني أن بكم و بهم حاجة إلى المخالطة و المداخلة : يطوفون عليكم للخدمة و تطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان في كل وقت لأدى إلى الحرج [5]

---

1 – ينظر الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ،ص 294 .

2 – ينظر سيد قطب :في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4، ص2532

3– ينظر الشعراوي :تفسير الشعراوي، المصدر السابق، ج17 ،ص 10332

4– ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ،ص 294

5– ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق،ج3 ، ص 253

و هـنا خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم طوافون يعود على ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ .

و الكـلام استئناف بياني ، أي أنما رفع الجناح عليهم و عليكم في الدخول بدون استئذان بعـد ، تلك الأوقات الثلاثة ، لأنهن طوافون عليكم فلو وجب أن يستأذنون كان ذلك حرجاً عليهم وعليكم .

و في كلام اكتفاء تقديره و انتم طوافون عليهم دل عليه قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ ، و قوله عقبه ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾،[1] أي بعضكم يطوف على بعض فيجوز أن تكون الجملة بدلا من التي قبلها ، و أن تكون مبينة مؤكـدة[2].

فما محل ليس عليكم ؟ ، إذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصـف ، و المعنـى : هـن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئـذان و إذا نـصبت : لـم يكـن له محل و كان كلاماً مقرراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة : فان قلت بم ارتفع ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾، ؟ قلت بالابتداء و خبره ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، علـى معنـى طائف على بعض و حذف لأن طوافون يدل عليه و يجوز أن يرتفع بيطوف مضمرا لتلك الدلالة[3] .

و يعقـب علـى الآية بقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ ، أي بياناً واضحا حتـى لا يحـدث تناقـضا فيما بعـد ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ، بكل ما يصلح الخلافة في الأرض ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ، في تشريعاته و أوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمه[4].

و التعـريف في ﴿ الْآيَاتِ ﴾ تعريف الجنس و المراد بالآيات القرآن فان ما يقع فيه إجمال منها يبين بآيات أخرى فالآيات التي أولها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، جاءت بيانا لآيات ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُـيُوتِكُمْ ﴾ ، و جملـة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ معترضة و المعنى يبين الله لكم الآيات

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق،ج9 ، ص235

2- ينظر العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، المصدر السابق، ص 255

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3،ص 253

4- ينظر الشعراوي : الكشاف ، المصدر السابق، ج17 ، ص 10333

بـــيانا كـــاملا ، وهـــو عليم حكيم ، فبيانه بالغ غايـــــة الكمال لا محالة[1]، ثم يقول ســـبحانه و تعالـــي : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَـــبْلِهِمْ كَـــذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، فالطفل حين كان طفلا لم يبلغ الحلم كان يدخل دون استئذان في غير هذه الأوقات فان بلغ الحلم فعليه أن يستأذن ، لا نقـــول : أنه تعود الاستئذان في هذه الأوقات فقط ، لا ، إنمـــــا عليه أن يستأذن في جميع الأوقات فقد شب و كبر، و انتهت بالنسبة له هذه الحالة ، و بلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نضجا يجعله صالحا لإنجاب مثله فهذه علامة اكتمال تكوينه ، و هذا لا يتأتى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التي هي سبب النســـــل و الإنجاب ، و مثلنا ذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها فان تركتها بعد النضج سقطت من نفسها ، و هـــذه آيـــة مـــن آيات الله لبقاء النوع فلو أكلنا الثمرة قبل نضجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها فمن حكمة الله في الخلق ألا تحلو الثمرة إلا بعد النضج .

و جـــاء بالطفـــل بـــصيغة المفـــرد ، لان الأطفال في هذا السن لم تتكون لديهم الغريزة، و ليست لديهم هذه الميول أو المأرب ، فكأنهم وأحد ، أما بعد البلـــــــوغ و تكـــون المـــيول الغريزيـــــة قال : ﴿ الْأَطْفَالُ ﴾ لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله و شخـــصيته و شـــطحاته[2]، و ﴿ الْأَطْفَـــالُ مِـــنْكُمُ ﴾ أي من الأحرار دون المماليك ﴿ الَّـــذِينَ مِـــنْ قَـــبْلِهِمْ ﴾ يريد : الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال ، أو الذين ذكـــروا مـــن قبلهم في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِـــسُوا ﴾ ، الآية : و المعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغيـــر إذن ، إلا فـــي العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن يحتلموا أو يـــبلغوا السن التي يحكم فيها بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة و يحملوا علـــى أن يستأذنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول إلا بـــإذن[3]. فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب الذين

1- ينظر الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 295

2- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج17، ص 10333

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ،ص 254

يجـــب أن يستأذنوا في كل وقت ، حسب النص العام الذي مضت به آية الاستئذان[1].
و وقع قوله ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ﴾ ، في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قـــوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ ، ليعلم أن الأطفال إذا بلغوا الحلم تغير حكمهم فـــي الاســـتئذان إلـــى حكم استئذان الرجال الذي في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُـــوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، الآيات ، فالمراد بقوله : ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، فيما ذكـــر من الآية السابقـــــــة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالا قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال .
و قـــوله : ﴿ كَـــذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام و الامتنان ، و إنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تفننا و لتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله: ﴿ كَذَلِكَ ﴾ ، و تأكيد الوصفين ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي هي آيات من لدن من هذه صفاته و من تلك صفات بيانه[2].

لقد سبق الآمر كذلك بإخفاء زينة النساء ، منعاً لإثارة الفتن و الشهوات ، فعاد هنا يستثني من النساء القواعد اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال، و فرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات قال تعالي : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية ، على ألا تتكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة و خير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة ، و سمي هذا استعفافا أي طلبا للعفة و إيثارا لها لما بين التبرج و الفتنة من صلة و بين التحجب و العفة من صلة .... و ذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبيل للعفة تقليل فرص الغواية ، و الحيلولة بين المثيرات و بين النفوس [3] ، و القواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أما القاعد ذكرا أو أنثى فهو الذي قعد عن دورة الحياة ، و لم

1- ينظر السيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ،ص2532

2- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق،ج9 ،ص 296

3- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ،ص 2532

يعد له مهمة الإنجاب ، و مثل هؤلاء لم يعد فيهن إربة ، ولا مطمع ، لذلك لا ما نع أن يتخففن بعض الشيء من اللباس الذي فرض عليهن حال وجود الفتنة ، و لها أن تضع طرحتها مثلا ، لكن هذه مسالة مقولة بالتشكيك – نسبياً – يعني فمن النساء من ينقطع حيضها ويدركها الكبر ، لكن مازال فيها جمال وفتنـــــــة ، لذلك ربنا تبارك و تعالى، وضع لنا الحكم الاحتياطي ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ.. ﴾[1] ﴿ وَالْقَوَاعِدُ ﴾ ، واحدتهن قاعد ، و هذا إذا كانت كبيرة ، أي قاعدة عن النكاح و من القعود قاعدة للفرق بين المذكر و المؤنث وهو مبتدأ، و القاعد التي قعدت عن الحيض والولـــد لكبرها﴿لا يرجون نكاحا ﴾، لا يطمعن فيه ، و المراد بالثياب : الثياب الظاهرة كالملحفة و الجلباب الذي فوق الخمار ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، غير مظهرات زينة ، [2] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أخذا بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة و تتبرج [3]. فهذه الآية مخصصة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ، و مناسبة هذا التخصيص هنا ، أنه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال و النساء فيها ثيابهم على أجسادهم ، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها ، وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن ، فاستثنى من عموم النساء المتقدمات في السن ، بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخصن لهن أن لا يضربن بخمورهن على جيوبهن ، و أن لا بدنين عليهن من جلابيبهن ، و القواعد : جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل حامل وحائض لأنه وصف نقل لمعنى خاص بالنساء وهو القعـود عن الولادة عن المحيض [4]،﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ، حال و ﴿ اللَّاتِي ﴾ صفة ، و الخبر : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ ﴾ و دخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط لأن الألـــف

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج17 ،ص 10335

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ،ص 255.

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج17 ، ص 10335

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص297

و اللام بمعنى الذي [1]، وقولـــه : ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ ، و صف كاشف لـــ ﴿ الْقَوَاعِدُ ﴾ ، و ليس قيدا ، و اقتران الخبر بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ لان الكلام بمعنى التسبب والشرطية ، لأن هذا المبتدأ يشعر بترقب ما يرد بعده ، فشابه الشرط كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، ولا حاجة إلى ادعاء أن (الـــ) فيه موصولة إذا لا يظهر معنى الموصول لحرف التعريف و إن كثـــر ذلك في كـــلام النحويين و ﴿ أَنْ يَضَعْنَ ﴾ متعلق بـــ ﴿ جُنَاحٌ ﴾ بتقدير (في)[2] و معنى ﴿ يَسْتَعْفِفْنَ.... ﴾ ، أي يحتفظن بملابسهن لا يضعن منها أشياء فهذا أدعى للعفة [3]. و الاستعفاف من الوضع خير لهن لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال و أحسنها. كقوله : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ البقرة (237) ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ البقرة (280) فما حقيقة التبرج ؟ إذن هو ، تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم = سفينة بارج ، لا غطاء عليها و البرج سعة العين .يرى بياضها محيطا بسوادها كله ، لا يغيب منه شيء ، إلا أنه اختص بان تتكشف ، المرأة للرجل بإبداء زينتها و إظهار محا سنها [4] ، و الاستعفاف: التعفف ، فالسين و التاء فيه للمبالغة مثل استجاب ، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ، و لذلك قيد هذا الإذن بالحال و هو ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، أي وضعا لا يقارنه تبرج بزينة و التبرج التكشف، و الباء في ﴿ بِزِينَةٍ ﴾ للملابسة فيؤول إلى أن لا يكون وضع الثياب إظهارا لزينة كانت مستورة ، فالتبرج بالزينة التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر ، من تحمير و تبيض و كذلك الألوان النادرة قال بشـــار* :

و إذا خرجـــت تقنعي *** بالحمر إن ا لحسن ْاحمر

1- ينظر العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، المصدر السابق، ص256.

2- ينظر الطاهر بن عاشور :التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 297

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10336

4- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق،ج3 ، ص 255.* هو بشار بن برد العقيلي أبو معاذ فارسي الأصل، توفي سنة 167هـــ، ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة، مصدر سابق، ص 513.

و قيل : إن المعنى بقوله : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، غير متكشفات من منازلهن بالخروج في الطريق ، أي أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، فإذا خرجت فلا يحل لها ترك جلبابها ، فيؤول المعنى إلى أن يضعن ثيابهن في بيوتهن ، و يكون تأكيدا لما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾، أي كونهن من القواعد ، لا يقتضي الترخيص لهن إلا في وضع ثيابهن وضعا مجردا عن قصد ترغيب فيهن[1]، و جملة ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع و يعلم ، و يطلع على ما يقوله اللسان ، و ما يوسوس في الجنان ، و الأمر هنا أمر نية و حساسة في الضمير[2]. و هذه الجملة مسوقة مساق التذييل ، للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا ، فوصف (السمع) تذكيرا بأنه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصـــد ، ووصف (العليم) تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب ، و تبرجهن و نحوها [3]، ثم يمضي عز و جل في تنظيم العلاقات و الارتباطات بين الأقارب و الأصدقاء ، ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ... ﴾ ، و الحرج : هو الضيق كما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ الأنعام (125) ، و الحرج بمعنى الإثم فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضيق ، أو الإثم الذي يتعلق بالحكم الأتي في مسالة الأكل ، بدليل أنه يقول: ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ... ﴾ ، و الأعمى يتحرج أن يأكل مع الناس ، لأنه لا يرى طعامه ، و ربما امتدت يداه إلى أطيب الطعام فيأكله و يترك أدناه ، و الأعرج يحتاج إلى راحة خاصة في جلسته و ربما ضايق بذلك الآخرين ، و المريض قد يتأفف منه الناس ، فرفع الله تعالى عن عباده هذا الحـــرج و قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا.. ﴾،[4] و لأن الآية آية تشريع فإننا نلاحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي و الصياغة

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق،ج9، ص 298

2- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ،ص 2533

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق،ج9، ص 299

4 – ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17، ص 10336

التي لا تدع مجالا للشك و الغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القرابات فهي تبدأ ببيوت الأبنـــاء و الأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول الآية : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، فيد خل فيها بيت الابن ، و بيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، و بيت الزوج بيت لزوجته، و تليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات ، إلى غير ذلك، و يضاف إلى هذه القرابة الخازن على مال الرجل ، فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف و لا يزيد على حاجة طعامه و يلحق بها بيوت الأصدقاء ، ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذي و الضرر ، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أُصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان[1]، كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء و ذوي العاهات إلى بيوت أزواجهم ، و أولادهم ، و إلي بيوت قراباتهم، و أصدقائهم فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين و الطعمين ربية في ذلك ، و خافوا أن يلحقهم فيه حرج ، و كرهوا أن يكون أكلاً بغير حق لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾، فقيل لهم ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ ، ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ يعني : عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين حرج في ذلك [2]، اختلف في أن قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ... ﴾، منفصل عن قوله: ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، و أنه في غرض غير غرض الأكل في البيوت ، فيكون من تمام آية الاستئذان ، أو هو متصل بما بعده في غرض وأحد ، فقال بالأول الحسن و جابر بن زيد وهو مختار الجبائي و ابن عطية و ابن العربي و أبي حيان ، و قال ابن عطية : أنه ظاهر الآية و هو الذي نختاره تفاديا من التكلف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة و لان في قوله : ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، إلى أخر المعدودات لا يظهر اتصاله بالأعمى و الأعرج و المريض فتكون هذه الآية نفيا للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما تجره ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال فالحرج مرفوع عنهم في كل ما تضطرهم إليه أعذارهم ، فتقضي نيتهم الإتيان فيه بالإكمال و يقتضي العذر أن يقع منهم .فالحرج منفي عن

1- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق، م4 ، ص 2533

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق، ج3 ، ص 256

الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصـــر و عن الأعرج فيما يشترط فيـــه المشي و الركوب ، و عن المريض في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة و الغزو ، و لكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أن المقصد الترخيص للأعمى انه لا يتعين عليه استئذان لانتقاء السبب الموجبة ، ثم ذكر الأعرج و المريض إدماجا و إتماما لحكم الرخصة لهما للمناسبة بينها وبين الأعمى [1]، إذن لأعرج عليك إن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أختك أو أخيك أو أختك أو عمك و عمتك أو خالك و خالتك﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحهُ. ﴾ يعني يعطيك صاحب البيت مفاتيح بيته و في هذا إذن لك بالتصرف و الأكل من طعامه إن أردت [2]، و معناها كذلك أموال الرجل إذا كان له عليها قيم و وكيل يحفظها له أن يأكل من ثمر بستانه ويشرب من لبن ماشيته ، وملك المفاتح كونها في يده وقيل : بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه وقرئ مفاتيحه [3]. و ملك المفاتيح أريد حفظها بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط والمفاتيح : جمع مفتح وهو اسم آلة الفتح و يقال فيها مفتاح و يجمع على مفاتيح . و هذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام أن يأكل كل منهم مما تحت يده بدون إذن و لا يتجاوز شيع بطنه وذلك للعرف بأنه ذالك كالإجازة فلذلك قال الفقهاء إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجزله الأكل مما تحت يده[4].﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ.... ﴾ ، نلحظ في هذه أنها الوحيدة التي وردت بصيغة المفرد في هذه الآية فقبلها: بيوتكم، آبائكم، أمهاتكم...الخ إلا في الصديق فقال ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ... ﴾ ، و لم يقل أحد أصدقائكم. ذلك لان كلمة صديق مثل كلمة عدو وتستعمل للجميع بصيغة المفرد كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي.... ﴾ الشعراء (77) ، لأنهم حتى إن كانوا جماعة لا بد أن يكونوا على قلب رجل وأحد و إلا ما كانوا أصدقاء و كذلك في حالة العداوة

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق،ج9 ، ص 299

2- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ، ج17 ، ص 10339

3- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق،ج3 ، ص 257

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، المصدر السابق، ج9 ، ص 302

نقول عدو وهم جمع لان الأعداء تجمعهم الكراهية فكأنهم وأحد[1]،﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ معناه : أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون وأحدا و جمعا و كذلك الخليط والقطين و العدو يحكى عن الحسن بن علي رضي عنهما أنه دخل داره و إذا حلقة من أصدقائه و قد استلوا سلالات من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة و هم مكبون عليها يأكلون فتهللت أساير وجهه سروراً و ضحك و قال : هكذا وجدناهم هكذا وجدناهم[2] يريد الصحابة رضي الله عنهم1 ، و﴿ صديق ﴾ ، هنا مراد به الجنس الصادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين و هو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليها إن كان وصفا أو خبراً في الأفراد و التثنية و الجمع و التذكير والتأنيث و هو الأصل والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الشعراء (100 و101) و مثله الخليط و القطين ، و الصديق: فعيل بمعنى فاعل و هو الصادق في المودة و قد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء و سئل بعض الحكماء أي الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال إنما أحب أخي إذا كان صديقي [3]. فإذا انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها بين الحالة التي يجوز عليها الأكل ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ ، فقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام فرفع الله هذا الحرج المتكلف ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد و أباح أن يأكلوا أفرادا أو جماعات[4]، فيصبح أن تأكلوا معاً لان الحق سبحانه و تعالى يريد أن يجعل التكامل في الذوات لا في الأعراض و أيضاً إنك إن رأيت شاباً مؤوفا يعني به آفة ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحت شعوره حتى إن كان ما به أمراً خلقياً من الله لا يتأباه و البعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها، ثم يقول سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا.... ﴾ ﴿ جَمِيعًا ... ﴾ سوياً بعضكم

1- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدرالسابق ،ج17 ، ص 10339.

2- ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق،ج3، ص 257

3- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 302

4 - ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق ،ج17، ص 10337

مع بعض ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا.. ﴾ متفرقين نزلت في بني بليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة[1]، وأعيدت جملة ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ تأكيدا للأولى في قوله ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ إذا الجناح والحرج كالمترادفين وحسن هذا التأكيد بعد ما بين الحال وصاحبها وهو واو الجماعة في قوله تعالى ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ولأجل كونها تأكيداً فصلت بلا عطف.و الجميع: المجتمعون على أمر.والأشتات: الموزعون فيما الشأن اجتماعهم فيه قال تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ الحشر(14) والأشتات : جمع شت وهو مصدر شتت إذا تفرق وأما شتى فجمع شتيت، و المعنى: لا جناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاءوا للأكل مثله أو أن يأكل وحده متفرقاً عن مشارك لئلا يحسب أحدهم إنه إن وجد من سبقه للأكل أن يترك الأكل حتى يخرج الذي سبقه أو أن يأكل الواحد منكم مع أهل البيت أو أن يأكل وحده[2]. فإذا انتهى من بيان الحالة التي يكون عليها الأكل د كر آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾.. وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين و التحية التي يلقيها عليه هي تحية من عند الله تحمل ذلك الروح و تفوح بذلك العطر و تربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها[3]، لأنك حين تسلم على غيرك كأنك تسلم على نفسك، لأن غيرك هو أيضا سيسلم عليك، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيماني وحدة متماسكة فحين تقول لغيرك السلام عليكم سيرد ، عليكم السلام ، فكأنك تسلم على نفسك ، أو أن المعنى إن دخلتم بيوتا ليس فيها أحد فسلموا على أنفسكم ، و إذا دخلوا المسجد قالوا السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قالوا: تسمع الملائكة وهي ترد ، والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً... ﴾ والشيء المبارك: الذي يعطي فوق ما ينتظر منه[4]، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ

---

1 – ينظر الزمخشري : الكشاف، المصدر السابق،ج3 ، ص257

2 – ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 303

3 – ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن ، المصدر السابق،م4 ، ص 2534

4– ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج17 ، ص 10340

بُيُوتًا ﴾، من هذه البيوت لتأكلوا فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، أي ثابتة بأمره ، مشروعة من لدنه أو لان التسليم و التحية طلب سلامة و حياة للمسلم عليه و المحيا من عند الله و وصفها بالبركة والطيب لأنها دعوة مؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق [1]، فالتحية مصدر فعل مشتق من الجملة المشتملة على فعل (حيا) مثل قولهم جزاه إذا قال له : جزاك الله خيرا كما تقدم في فعل ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ أنفا ،وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية العامة قال النابغة*:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا *** لهو النساء وإن الدين قد عزما

وكانت تحية الملوك (عم صباحا) فجعل الإسلام التحية كلمة (السلام عليكم) و هي من جوامع الكلم لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه و باللطف له إن كان معروفا [2]، و قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ ، مصدر من معنى سلموا لأن سلم وحيا بمعنى واحد، و انتصب ﴿ تَحِيَّةً ﴾ على الحال من التسليم الذي يتضمنه ﴿فسلموا﴾ نظير عود الضمير على المصدر في قوله : ﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [3]،المائدة (08) ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ، أي يكن سلامكم تحية ثابتة مشروعة شرعها الله تعالى ، مباركة الثواب طيبيه الأثر ففي الحديث الشريف عن انس رضي الله عنه قال – قال رسول الله ﷺ (يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك و على أهل بيتك) [4]*، و المباركة : المجعولة فيها البركة ، و البركة وفرة الخير وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة و حسن اللقاء و المخالطة و ذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية والطيبة : ذات الطيب ، و هو طيب مجازي بمعنى النزاهة و القبول في نفوس

1– ينظر العكبري التبيان : المصدر السابق، ص 256.* هو زياد بن عمرو بن معاوية يكنى أبا أمامة توفي سنة 18 قبل الهجرة، ينظر شرح المعلقات العشر لأحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق محمد الفاضل، المكتبة العصرية، بيروت، دت، دط، ص219.

2– ينظر الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ،ج3 ، ص257

3– ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ،ج9 ، ص 304

4– ينظر عبد الحميد طهماز : من موضوعات سورا لقرآن الكريم ،دار القلم، دمشق، 1996، ط1، ص 95

*رواه الترمذي في كتاب كيفية السلام، رقم الحديث 2622.

الناس، و وجه طيب التحية ، إنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة و المصافاة ووزن ﴿ طَيِّبَةً ﴾ فلعله مبالغة في الوصف، و تقدم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1]، آل عمران (38) و هكذا ترتبط قلوب المؤمنين بربهم في الصغيرة الكبيرة: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ، و تدركون ما في المنهج الإلهي من حكمة و من تقدير[2]، وكذلك أي كما بين الأحكام السابقة يبين لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أي إن الذي كلفكم بهذا الأحكام رب يحب الخير لكم ، و هو غني عن هذه إنما يأمركم بأشياء ليعود عليكم نفعها عليكم فان أطعتموه فبما أمركم به انتفعتم بأوامره في الدنيا ثم ينتظركم جزاؤه و ثوابه في الآخرة [3]، كما أن جملة ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان لأن في كل ما وقع قبل هذه الجملة بيانا لآيات القرآن اتضحت به الأحكام التي تضمنتها و هو بيان يرجى معه إن يحصل لكم الفهم و العلم بما فيه كمال شأنكم[4]، و هكذا تختم الآيات بتعليق القلوب و الأبصار بالله و تذكيرها بخشيته و تقواه ، فهذا هو الضمان الأخير ، و هذا هو الحارس لتلك الأوامر و النواهي ، وهذه الأخلاق و الآداب التي فرضها الله في هذه السورة جعلها كلها سواء ، و بعد ما عادت الآيات في أخر سورة النور إلى بيان أحكام التشريع أنارت سبلا جديدة وشرعت أحكاما أخرى ، لضبط بناء العلاقات الفردية و الجماعية ، كما أن هذه الآيات وحدة متكاملة بينها و بين ما سبق من تشريع الأحكام في صدر السورة و هي نسج فني بديع من صنعة حكيم خبير .

المحـــور السادس

- أدب المؤمنين مع رسول الله :(من : الآية 62 إلى : الآية 64)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

1- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص 305

2- ينظر سيد قطب : في ظلال القرآن، المصدر السابق ، م4، ص 2534

3- ينظر الشعراوي : تفسير الشعراوي ، المصدر السابق،ج17، ص 10340

4- ينظر الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المصدر السابق ، ج9 ، ص305

إن البـــناء العـــام للسورة جاء متماسكا يخدم الجوهر العام، و هو الأدب مع الله و رســـوله ، و قد تسلسلت المواضيع مشكّلَة وحدة عضوية متميزة في نسق منطقي، يـــؤدي إلى بناء قناعات راسخة حول الحياة الجنسية السليمة في المجتمع الإسلامي؛ فقد أسس المحور الأول من السورة الأحكام ، و جسَّد المحور الثاني صورة مقززة لقذف الأعراض و ما يخلفه من اضطراب و بلبلة في المجتمع المحافظ، ليؤكد على ضـــرورة الأخـــذ بالأحكام التي أسس لها المحور الأول ، و قد شكل المحوران ما نـــسبته 40 % من منظومة السورة ، و جاءت النسبة المتبقية 60 % لبناء مجموعة من الآداب تسند الأحكام السابقة ، ليتضح لنا أن حل المشكلة الجنسية له طرفان حل قانوني و حل اجتماعي تحت مظلة الإيمان بالله و طاعة رسول الله ﷺ .

المحور السادس و الأخير موضوعه الأدب مع رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ذلك ترتيب منطقي للأسباب التالية :

ـــ النبـــي ﷺ هو المُبَلِّغ لتلك الأحكام و الآداب، فمن المنطقي أن يأتي الأدب مع المُبَلِّغ ﷺ بعد عرض المُبَلَّغ به ، كالشكر و الامتنان بعد المعروف .

ـ أن أواخر الكلام في الغالب هو الأكثر علوقا بالنفس ، و إذا تعلقت النفس بالأدب مع رسول الله ﷺ قادها ذلك إلى كل خير، و جنبها كل شر .

ـــ لا يخفى على عاقل أن مراد ﴿ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ ، النَّيلُ من رسول الله ﷺ لاســـيما ﴿ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ ، رأس النفاق في المدينة أبي بن سلول ، فجاء المحـــور الأخيـــر لِيُعلِي مقام النبي ﷺ فوق هامات النجوم ، و ليوضح للمنافقين أن شمس الضحى لا يضيرها عبور الغيوم .

المحـــور الـــسادس هـــو أصـــغر المحاور من حيث عدد الآيات، كبير من حيث الـــدلالات إذ لا يستقيم إيمان و لا تنفذ أحكام إلا بمقتضى ما في النفس البشرية من أدب و حب لرسول الله ﷺ ، و قد ختم هذا المحور بكمال التوحيد و إحاطة علم الله عز و جل بالدقيق والجليل ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾،

﴿ إِنَّمَـــا الْمُؤْمِـــنُونَ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، بعد أن بين الله أدب الدخول إلى البيوت و المجالس بقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أوضح في هذه الآية و بين

أدب الخـروج و الانصـــراف من البيوت و المجالس ــ فالآيات تأخذ بعضها بـرقاب بعض ــ و استعمال صيغة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ لتوضيح أن كمال الإيمان بعد اعـتقاد الله ربا و محمدا رسولا هو مراعاة الأدب مع الحضرة النبوية ، و أن يأتي الاسـتئذان ثالـثا بعد الإيمان بالله و رسوله فيه تشريف و تعظيم لرسول الله ﷺ ، و موضع المجاز العقلي ــ " المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم مـن الحكم فيه لضرب من التأول إفادة للخلاف ، لا بوساطة وضع ، قولك : أنبت الـربيع الـبقل وشـفى الطبيب المريض وكسا الخليفة الكعبة."[1]ــ في وصف الأمر بالجمـع حتـى لكـأنَّ الأمر إنسان عاقل يجمع ، للمبالغة و تتضح الحكمة من هذه المـبالغة إذا علمنا ماذا يعني الأمر الجامع عند أرباب اللغة ، ذكر صاحب اللسان " أَمرٌ جامِعٌ يَجمع الناسَ وفي التنزيل ﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ ، قال الزجاج : قال بعضهم : كان ذلك في الجُمعة ، قال : هو و الله أَعلـم أَن الله عز وجل أَمر المؤمنين إِذا كانوا مع نبيه ﷺ فيما يحتاج إِلى الجماعة فـيه نحـو الحـرب وشبهها مما يحتاج إِلى الجَمْعِ فيه لم يذهبوا حتى يستأْذنوه "[2] ، و عـند مرتضى الزبيدي " أَمْرٌ جَامِعٌ : يَجْمَعُ النّاسَ ، قالَ الرّاغِبُ : أَمْرٌ جامِعٌ أَي أَمْرٌ لَهُ خَطَرٌ اجْتَمَعَ لأَجْلِهِ النَّاسُ فكَأَنَّ الأَمْرَ نَفْسَهُ جَمَعَهُمْ ." فالمبالغة هنا ضرورية جـدا إذ لا يعقـل فـي الاجتماعات المهمة و الخطيرة أن ينصرف كلٌّ على هواه ، مؤثـرا حاجاتـه الشخصية على ضرورات الأمة ، لذلك كان الإذن بمثابة أمان في مجـالس ذاك شأنها "﴿ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ ﴾ فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله، وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبراً عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانـين ..." [3] ثم أكَّد على الاستئذان بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِـنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، و يحسن التكرار هنا للتأكيد و المبالغة و التخصيص فليس قولنا المحسن زيد مثلا كقولنا زيد المحسن ، الأول تخصيص لزيد بالإحسان،

---

1 ــ الخطيب القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة، المصدر السابق ، ج1 ، ص8 .

2 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة (جمع)، المصدر السابق ، ج1، ص498.

3 – الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج4 ، ص429 .

و الثانية صفة قد تستبدل بغيرها ." و جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، إلى آخرها تأكيد لجملة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، الآية ، و قد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسنداً إليه في الثانية و المسند إليه في الأولى مسنداً في الثانية ومآل الأسلوبين وأحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعري شعري، تنويهاً بشأن الاستئذان ... و وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، تشريفاً للرسول ﷺ بهذا الخطاب."[1] و قد كرِّرَت صيغ الاستئذان أربع مرات ثلاث على وجه المضارعة و وأحد على وجه الأمر ، فالمُضَارَعَة تنقلك من مقام السامع إلى مقام المُشَاهِد المُعَايِن إذ ليس الخبر كالمعاينة ، و تفيد التأكيد باستمرار ليأتي الأمر ﴿ فَأْذَنْ ﴾ قاطعا بالتنفيذ . " ﴿ فَإِذَا استأذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾، ما يعرض لهم من المهام ، و فيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر"[2] التبعيض هنا لتضييق الأمر ، و اقترانه بـ ﴿ شَأْنِهِمْ ﴾ حصر للأسباب الموجبة للانصراف من اجتماع له أهميته و خطره ، إذ الشأن لغة " (شأن) الشَّأْنُ الخَطْبُ و الأَمْرُ و الحال و جمعه شُؤونٌ و شِئانٌ "[3] ، و في هذا الاقتران تضمين ، أي إذا لم يكن الشأن ضرورة قصوى فليس من الأدب الاستئذان به ، و قطع المجلس لسبب تافه يُنِمُّ عن أنانية تكدر صفاء الإيمان ، و الضرورات تقدر بقدرها ، و قد استعمل حرف العطف (ف) ﴿ فَأْذَنْ ﴾ ، لترتيب الأول على الثاني بسرعة و دون تراخي ، أي إذا كان العذر المُوجِبُ للاستئذان ضرورة قصوى فلك يا محمد ﷺ أن تأذن له إن شئت، أي بحسب تقديرك للأمور، و رغم ذلك العذر القوي إلا أنه ﷺ أمر بالاستغفار للمستأذن" فإن الاستئذان و إن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة"[4] ، و إذا كان التمكين كما ذكر السيوطي في الإتقان في

---

1 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير ،المصدر السابق ، ج10 ، ص38 .

2 ــ البيضاوي : أنوار التنزيل ، المصدرالسابق ، ج4 ، ص391 .

3 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة (شأن)، المصدر السابق ، ج3 ، ص258 .

4 ــ الألوسي : روح المعاني ، المصدر السابق ، ج14 ، ص20 .

و الثانية صفة قد تستبدل بغيرها ." و جملة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، إلى آخرها تأكيد لجملة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، الآية ، و قد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسنداً إليه في الثانية و المسند إليه في الأولى مسنداً في الثانية ومآل الأسلوبين وأحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعري شعري، تنويهاً بشأن الاستئذان ... و وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله :

﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ ، تشريفاً للرسول ﷺ بهذا الخطاب."[1] و قد كرِّرَت صيغ الاستئذان أربع مرات ثلاث على وجه المضارعة و وأحد على وجه الأمر ، فالمُضَارَعَة تنقلك من مقام السامع إلى مقام المُشَاهِد المُعَاين إذ ليس الخبر كالمعاينة ، و تفيد التأكيد باستمرار ليأتي الأمر ﴿ فَأْذَنْ ﴾ قاطعا بالتنفيذ . " ﴿ فَإِذَا استأذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾، ما يعرض لهم من المهام ، و فيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر"[2] التبعيض هنا لتضييق الأمر ، و اقترانه بـ ﴿ شَأْنِهِمْ ﴾ حصر للأسباب الموجبة للانصراف من اجتماع له أهميته و خطره ، إذ الشأن لغـــــة " (شأن) الشَّأْنُ الخَطْبُ و الأَمْرُ و الحال و جمعه شُؤونٌ و شِئانٌ "[3] ، و في هذا الاقتران تضمين ، أي إذا لم يكن الشأن ضرورة قصوى فليس من الأدب الاستئذان به ، و قطع المجلس لسبب تافه يُنِمُّ عن أنانية تكدر صفاء الإيمان ، و الضرورات تقدر بقدرها ، و قد استعمل حرف العطف (ف) ﴿ فَأْذَنْ ﴾ ، لترتيب الأول على الثاني بسرعة و دون تراخي ، أي إذا كان العذر المُوجِبُ للاستئذان ضرورة قصوى فلك يا محمد ﷺ أن تأذن له إن شئت، أي بحسب تقديرك للأمور، و رغم ذلك العذر القوي إلا أنه ﷺ أمر بالاستغفار للمستأذن" فإن الاستئذان و إن كان لعذر قوي لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة"[4] ، و إذا كان التمكين كما ذكر السيوطي في الإتقان في

---

1 ــ ابن عاشور : التحرير والتنوير ،المصدر السابق ، ج10 ، ص38 .

2 ــ البيضاوي : أنوار التنزيل ، المصدرالسابق ، ج4 ، ص391 .

3 ــ ابن منظور : لسان العرب، مادة (شأن)، المصدر السابق ، ج3 ، ص258 .

4 ــ الألوسي : روح المعاني ، المصدر السابق ، ج14 ، ص20 .

علوم القرآن في معرض حديثه عن الفواصل القرآنية هو ــ أي التمكين ــ " ائتلاف القافية و هي أن يمهد للقرينة أو القافية تمهيدات تأتي به القرينة أو القافية متمكنة في مكانها ... متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما "[1] ، فإن الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ممكنة في مكانها بشكل مستوفٍ لمضامين الآية (62) ، فتأكيد مغفرة الله لهفوات عباده المؤمنين ، رحيم إذ قدَّرَ ضروراتهم التي أملَت عليهم الاستئذان، ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ... عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، و بين يدي هذه الآية الكريمة كلام نفيس الجوهر جميل المظهر ذكره البقاعي في تفسيره : " و لما أظهرت هذه السورة بعمومها ، و هذه الآيات بخصوصها ، من شرف الرسول ﷺ ما بهر العقول ، لأجل ما و قع للمنافق من التجرؤ على ذلك الجناب الأشم ، و المنصب لأتم ، و علم منه أن له ﷺ في كل أمره و جميع شأنه خصوصية ليست لغيره ، صرح بذلك تفخيماً للشأن ، و تعظيماً للمقام ، ليتأدب من ناضل عن المنافق، أو توانى في أمره فقصر عن مدى أهل السوابق ، فقال منبهاً على أن المصائب سبب لإظهار المناقب أو إشهار المعايب ﴿ لا تجعلوا ﴾ ، أي أيها الذيـــــن آمنوا ﴿ دُعَاءَ الرَّسُولِ ﴾ ، أي لكم الذي يوقعه ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ ، ولو على سبيل العموم ، في وجوب الامتثـــــال ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فإن أمره عظيم ، ومن خالفه استحلالاً كفر، ولا تجعلوا أيضاً دعاءكم إياه كدعاء بعضكم لبعض بمجرد الاسم ، بل تأدبوا معه بالتفخيم و التبجيل و التعظيم كما سن الله بنحو : يا أيها النبي ، ويا أيها الرسول ، مع إظهار الأدب في هيئة القول الفعل بخفض الصوت و التواضع."[2] ، و تأمل روعة الإيجاز في أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة في صدر الآية ، فقد تضمنت معنى غزيرا على إيجازها ، فاستعمال عبارة ﴿ دُعَاءِ ﴾ بصيغة النكرة جعل منها خزانةً لمعانٍ ثلاث : الدعاء و هو طلب الحاجة من الله و أصل الدعاء الصلاة ، الدعوة و هي استدعاء لأمر ذي بال كالدعوة للصلاة أو الشهادة و نحوه ، و قولنا دعا الرجل دعاءً أي ناداه ، فجمعت هذه الآية آدابا ثلاثة ، أدب في انقاء دعوة الرسول ، و أدب في إجابة دعوته ،

---

1 ــ السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، المصدر السابق ، ص14 .

2 – البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المصدر السابق ، ج5 ، ص495 .

و أدب في مناداة الرسول يقول ابن عربي في أحكامه: "إنَّ الْمُرَادَ بِالْإِضَافَةِ هَاهُنَا إضَافَةُ الْمَصْدَرِ إلَى الْفَاعِلِ ، وَ يَكُونُ لِذَلِكَ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ: أحدهَا: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ بَيْنَكُمْ ، فَإِنَّ إجَابَتَهُ وَاجِبَةٌ ، و لَيْسَتْ إجَابَتُكُمْ وَاجِبَةً ، يَعْنِي عَلَى الْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا تَجِبُ إجَابَةُ الْخَلْقِ بِقَرَائِنَ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ، أَوْ مِنْ حُقُوقِ الدَّاعِي ... وَ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ احْذَرُوا أَنْ تَتَفَرَّقُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَدْعُوَ عَلَيْكُمْ ، وَلَيْسَ دُعَاؤُهُ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ على بعض ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُ مُجَابَةٌ ... الْمَعْنَى الثَّالِثُ: أَنَّ مَعْنَاهُ لَا تُسَوُّوا بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَكُمْ فِي الدَّعْوَةِ، كُلُّ أحد يُدْعَى بِاسْمِهِ إلَّا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُدْعَى بِخُطَّتِهِ وَهِيَ الرِّسَالَةُ . .. "[1].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، من معاني ﴿ قَدْ ﴾ مع المضارع التحقيق ، و هو تعريض بالمنافقين ، فهم لا يخفون عن الله و إن استخفوا عن الناس، و في الآية على قلة ألفاظها تصوير بليغ لمشهد المنافقين و هم ينسحبون في مكر و استخفاء من مجلس رسول الله ، فالتسلل لغة : " (سلل) السَّلُّ انتزاعُ الشيء و إخراجُه في رِفْق سَلَّه يَسُلُّه سَلاًّ و اسْتَلَّه فانْسَلَّ و سَلَلْتُه أَسُلُّه سَلاًّ ... و تَسَلَّل انْطَلَق في استخفاء ... و في حديث عائشة فانْسَلَلْتُ من بين يديه أَي مَضَيْتُ وخرجت بتَأَنٍّ وتدريج ."[2] و معنى ﴿ لِوَاذًا ﴾ ، لغة : " (لوذ): لاذَ به يَلوذ لَـــــوْذاً و لو اذاً و لُواذاً و لِياذاً : لَجَأَ إليه و عاذَ به ، و لاوَذَ مُلاوَذَةً و لِواذاً و لِياذاً: استتر. و قال ثعلب: لُذْت به لِواذاً احتَضَنْتُ ، و لاوَذَ القومُ مُلاوَذَةً و لِواذاً أَي لاذَ بَعْضُهُم ببعض ... معنى يتسللون منكم لواذاً يلوذ هذا بذا و يستتر ذا بذا... و في خطبة الحجاج : و أَنا أَرميكم بطَرْفي و أَنتم تَتَسَلَّلُون لواذاً أَي مستخْفين و مستترين بعضكم ببعض وهو مصدر لاوَذَ يُلاوِذُ مُلاوَذَةً و لِواذاً... و قال الطرماح :

---

1 - أبو بكر محمد بن عبد الله بن عربي : أحكام القرآن ، مراجعة وتعليق محمد عبد القادر عطا ، ج6 ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ،دت ، ط1، ص142 .

2 - ابن منظور : لسان العرب، مادة (سلل)، المصدر السابق ، ج3 ، ص 188

يُلاوِذُ من حَرَ كَأَنَّ أُوَارَهُ *** يُذيبُ دِماغَ الضَّبِّ وهو خدوعُ."*[1]

و ﴿ مِنْكُمْ ﴾ ظرف للذين يتسللون، فهؤلاء التعساء ينتزعون أنفسهم من بين أصحاب رسول الله في دهاء، و هكذا تتضح الصورة فالمنافقين ينسحبون من مجلس رسول الله ﷺ دون إذنه برفق و تدريج بحيث ينسحبون شيئا فشيئا يستخفي و يستتر بعضهم ببعض ليصلوا إلى الباب حتى إذا آنسوا من رسول الله غفلة عنهم فرُّوا و أعطوا سيقانهم للريح ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تهديد و وعيد للزجر، و الحذر أصله تجنب ما يولد الخوف و الفزع ، ﴿ الَّذِينَ ﴾ فاعل و فعله﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ و مجيئه بصيغة المضارعة يفيد الاستمرار ، فالدعوة للحذر لكل المخالفين إلى أن يرث الله الأرض و من عليها ، و إعادة فعل ﴿ يُصِيبَهُمْ ﴾ مرتين لتأكيد التهديد و التحذير، "و حذف المفعول [فعل المخالفة] لأن المقصود بيان المُخَالِف و المُخَالَف عنه "[2]، و تأمل إلى روعة انتقاء الكلمات، فكلمة ﴿ تُصِيبَهُمْ ﴾ لغة : " (صوب) الصَّوْبُ نُزولُ المَطَر صَابَ المَطَرُ صَوْباً و أنصاب كلاهما انْصَبَّ و مَطَرٌ صَوْبٌ وصَيِّبٌ وصَيُّوبٌ... وكُلُّ نازِلٍ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ فقد صابَ يَصُوبُ "[3] ، و الفتنة لغة : " (فتن) الأزهري وغيره جماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ و الاختبار و أصلها مأْخوذ من قولك فَتَنْتُ الفضة و الذهب إذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّد... و الفِتْنةُ الفَضيحة و قوله عز وجل:﴿ وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾، المائدة (41) ، قيل معناه فضيحته... و الفِتْنة العذاب ... و الفتنة القتل ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، النساء (101) "[4] ثم انظر إلى موقع ﴿ أَوْ أو ﴾ بين فتنة و عذاب أليم ، فمن معاني ﴿ أَوْ ﴾ التخيير و الشك و الإبهام ، فكأنهم مخيّرون بين خيارين أحلاهما مر إما الفتنة أو العذاب الأليم ، و إما أن المعنى فتنة في الدنيا

---

1 - ابن منظور : لسان العرب، مادة (لوذ)، المرجع السابق ، ج5 ، ص410 .*الطرماح بن حكيم من طيئ شاعر إسلامي ولد ونشأ في الشام توفي سنة 125هـ، (الشعر والشعراء لابن قتيبة)، مصدر سابق،ص 393.

2 - البيضاوي: أنوار التنزيل ، المصدر السابق، ج4 ، ص391 .

3 - ابن منظور: لسان العرب ، مادة(صوب)،المصدر السابق ، ج3 ، ص488

4 - ابن منظور: لسان العرب ، مادة(فتن)، المصدر السابق، ج4 ، ص1049 .

و عـذاب فـي الآخـرة ، و إما أن تكون ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى " بل " للإضراب كما هو معلـوم عند النحويين أي أتصيبهم فتنة بل يصيبهم عذاب أليم في نقلة من الشديد إلى الأشـد مـنه ، كل هذه المعاني يفرزها حرف العطف ﴿ أَوْ ﴾ و في ذلك مبالغة في الـتهديد و الوعـيد لا سيما و أن فتنة جاءت نكرة فأفادت الاستغراق أي كل أنواع الفتن و البلايا من فضيحة و عذاب و قتل و " العَذاب الأَلِيمُ الذي يَبْلغ إيجاعه غاية الـبلوغ "[1] ، و تأمل أخيرا قوله تعالى: ﴿ يخالفون عن أمره ﴾ بدل يخالفون أمره إذ الفعـل يـتعدى بنفسه دون ﴿ عَنْ ﴾ ، لكن إذا علمنا أنه من معاني ﴿ عَنْ ﴾ البعد و الـتجاوز ، و اسـتعمال كلمة ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ التي توحي بالخلفية و الخلف أوشكنا علـى رؤية المنافقين و هم يعطون ظهورهم لرسول الله فارين مبتعدين عن مجلسه ﴿ فَلْـيَحْذَرِ الـذين يخالفـون عَنْ أَمْرِهِ ﴾..." يقال : خالفه إلى الأمر، إذا ذهب إليه دونه...خالفه عن الأمر : إذا صد عنه دونه "[2] .

﴿ أَلَـا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، " تذييل لما تقدم فـي هـذه السورة كلها ، و افتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام و تنبيه للناس لـيعُوا ما يرد بعد حرف التنبيه ، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض ، فهو يجـازي عـباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون ، و معنى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الأحوال الملابسين لها من خير و شـر ، فحرف الاستعلاء [على] مستعار للتمكن ... ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ ، كناية عن الجزاء "[3] و استخدام حرف العطف ﴿ ف ﴾ مـع الإنباء الذي هو خبر ذو فائدة عظيمة ، يدل على سرعة الحساب و على أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ ، مريم (64) و الفاصلة الممكنة ﴿ وَاللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بل الآية كلها كالخاتمة المتماسكة للسورة كلها، فعلم الله تعالـى أحـاط بكـل شـيء ، فـلا يخفى عليه زنى الزناة و إن استتروا بالكهوف و الأنفاق، و لا يعزب عن علمه قذف القاذفين و لا رمي الرماة و لا المتسللين لواذا من مجلسه ﷺ ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

---

1 – ابن منظور : لسان العرب ، مادة(عذب)، المصدر السابق، ج4 ، ص 716.

2 – الزمخشري : الكشاف ، المصدر السابق ، ج4 ، ص429 .

3 – ابن عاشور : التحرير والتنوير ، المصدر السابق، ج10 ، ص41 .

خلاصـــة المحور السادس هي أن ظاهرة الالتفات انصراف المتكلم عن المخاطبة إلـــى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنـــى يكون فيه إلى معنى آخر– هي جوهر بنائه الجمالي فقد تكرَّر الالتفات ستة مرات بمعدل مرتين لكل آية ، و ذلك مناسب جدا لموضوع المحور إذ يكثر الالتفات في المجالس كل على حسب نيته و حاجته ، فالبعض يلتفت ليرى من يجلس بالقرب منه ، و البعض يلتفت لِيُعلَمَ مكانه ، و البعض يلتفت للترويح ، و الآخر يلتفت ليتفقَّد أحدهم ، و البعض يلتفت عند تنبيه أحدهم له إن كان غافـــــلا، و البعض يلتفت بنية خبيـــثة ليتسلل لواذا مثلا ، و قد بلغ الالتفات ذروته عند تجسيده في مشهد المتسللين من المنافقين في وسط الآية (63) .

الخاتمة

الخاتمة

القرآن الكريم كتاب الله تعالى معجزة كلامية، أيد الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتولّى حفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر آية: (09)، فهو معجز من وجوه شتّى، سحر ألباب البلغاء و الفصحاء، أرباب اللغة والبيان ممن كانوا يدّعون قوة التكلّم والإفصاح من العرب، وتحدّاهم، وبقيت الحجة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والخطاب القرآني بهذا الإعجاز والتحدي إثارة للإنس والجن، والدّارِس له تهزه نفحاته الإيمانية، وتبهره مستوياته الجمالية، وأساليبه المتفنّنة، التي جمعت محاسن الخطاب والبلاغ والتي لا يستطيعها البشر ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، لكن كلام الله دوحة غنّاء، كلما قطفتَ زهرة، تاقت نفسك لقطف زهرات، فحين تتذوق مستوى التفنن، وتتلمس هندسة الصنعة الكلامية، تجد نفسك محسورا عاجزا، لأنك حفظت شيئا وتجلت لك أشياء، وتبقى مأسورا مأخوذا بين جماله وجلاله، بين إشراقة اللفظ وقوة المعنى، منجذبا بين حسن النظم وبراعة التأليف، متذوقا جمال التصوير، طربا منتشيا بفواصله المتناغمة، فالقرآن نور ويهدي الله لنوره من يشاء، لذا يتوجب على المتلقي أن يتهيأ بآنية ذواقة طاهرة، ليرتشف مكامن الروعة والجمال، إنه كلام الله الذي أتقن كل شيء صنعه، ومما نستجليه بعد طوافنا بحِياض هذه الجمانة النفيسة وهي سورة النور، نجد أن جماليات الخطاب القرآني غايته تهيئة النفوس لحسن التلقي عن الله، وفي آيات الأحكام شدة ولِيناً تتناسق المشاهد

والمواقف حتى تكاد تصعد النفس وتنحبس عند الزجر والردع حسا ومعنى، وكأنك تعيش الحدث وتتابع التفاصيل، ناهيك عن المواءمة والدقة في اختيار الألفاظ التي تؤدي الغرض بدون زيادة أو نقصان.

أما الصورة في هذه السورة تظهر شاخصة حية، ترتسم بكل وضوح وجلاء، تجسد اللقطات وتبعث فيها حركة وحيوية في تجدد واستمرار، توقظ الذهن وتمتع الوجدان، فهو حقا خطاب العامة والخاصة وإقناع للعقل وإمتاع للعاطفة، فالبلاغ القرآني متعة ذوقية بفنياته وجمالياته التي تضافر في نسج خيوطها وهندسة أساليبها جميع مستويات الخطاب، بطريقة بديعة تجمع الوضوح والقوة والجمال، وتتآلف هذه الأخيرة مع بعضها، لتكون نغمة متناسقة منسجمة، ترضي نواحي النفس وتوخز الخيال، ليحس المتلقي بمتعة ذوقية وإفادة نوعية متفردة، ذلك هو أسلوب القرآن الذي يربي الذوق و الحس، وسورة النور قبس من أنواره، إضافة إلى التربية الروحية وتزكية النفوس وتطهير المجتمع من الرذيلة، مثلما ورد في السورة التي نوّرت بأحكامها وتشريعاتها السبيل للمؤمنين الذين يتوقون إلى تذوق الجمال الروحي والمعنوي، لأن الإسلام منهاج متكامل ينظم حياة الإنسان بكل مراحلها، ومن ثم لا يغفل الآداب الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها، ويتجه بها إلى الله، وهكذا تبصر القلوب، ويناط اللثام عن كبريات العقبات و المشاكل الاجتماعية و الجنسية والتربوية فَتُحلّ، لأنها أخذت مصداقية تشريعاتها من نور الله وهدايته،وبالتالي يحافظ الإنسان على أمانة الخلافة على وجه الأرض، ويسعد دنيا و آخرة، وهكذا نجد القرآن الكريم يلبي الحاجة التعبدية والإحساس بربوبية الخالق المتفرد الذي لا إله سواه، ويدفعنا إلى الإحساس بجمالية الخطاب الذي يمتع ويؤثر ويفيد ويوجه

المخلوق لأنه عاجز عن بلوغ الكمال ولا يعلم إلا القليل، ويبقى هذا الخطاب الرباني من المصادر التشريعية التي لا غنى عنها لأنها نابعة من كينونة إلهية تعلم السر وأخفى، تلكم هي إشراقات و تجليات جماليات الخطاب في سورة النور قال تعالى :﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .** ﴾ **سورة النور آية (35)**، ومهما بلغ الدارس للقرآن الكريم من علم، فإنه يقف عاجزاً أمام عظمة وشموخ كلام الله عز وجل، فسبحان الجليل الجميل، وتبقى البشرية بحاجة إلى التعامل مع لغة القرآن وخطابه لأنه الأنسب لمعالجة الجوانب الوجدانية والقضايا الحضارية التي لها علاقة بخليفة الله في الأرض.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم : برواية حفص.

كتب التفاسير:

1- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، د. ط ، 1995 .

2- أبو الأعلي المودودي : تفسير سورة النور ، دار الشهاب باتنة الجزائر ، د.ت ، د.ط ،.

3- أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر, بيروت ,د.ط ,2001 م

4- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القران,تح:محمد سيد كيلاني,دار المعرفة,بيروت, د.ط,دت.

5- أبو بكر محمد بن عبد الله بن عربي : أحكام القرآن ، مراجعة وتعليق محمد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية , بيروت لبنان ,دت , ط1. .

6- أبو جعفر محمد بن جرير : مختصر تفسير الطبري ، اختصار و تحقيق ، محمد علي الصابوني و صالح احمد رضا ، مكتبة رحاب الجزائر، ط2 ، 1987 .

7-أبو الفضل محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، دار الفكر ، بيروت ، د. ط ، 1983.

8- إسماعيل بن كثير: تفسير الحافظ ابن كثير ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، د.ت ، د.ط

9- ابو السعود محمد بن محمد : تفسير أبي السعود ، دار المصحف ، القاهرة ، د.ت ، د.ط .

10- ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ، دار المكتب الإسلامي، بيروت،ط3، 1984

11- ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، د.ت ، د.ط .

12- البغوي : معالم التنزيل ، تح محمد عبد الله النمر و آخرون ، دار طيبة للنشر و التوزيع ، السعودية ، ط4 ، 1997 .
13- الشوكاني : فتح القدير ، مراجعة يوسف الغوش دار المعرفة ، بيروت ،ط3 ، 1997 .
14- الشيخ طنطاوي جوهري : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ، لبنان ، 1350 هـ 1930 م .
15- الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، دار سحنون للنشر ، تونس ، د. ط ، 1997 .
16- سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، ط 12، 1986.
17- فخر الدين محمد بن عمر الرازي : مفاتيح الغيب,دار الكتب العلمية، بيروت, ط1, 2000.
18- محمد جمال الدين القاسمي : تفسير القاسمي دار الفكر بيروت ، لبنان ، 1978 م .
19- محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، د.ت ، د.ط .
20- محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير ، شركة الشهاب الجزائر ، ط5 ، 1990 م .
21- محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي دار التقوى ، القاهرة ،د.ط, د.ت .
22- ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد البيضاوي : أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، تح عبد القادر عرفات ، دار الفكر ، بيروت ، 1996 ، د. ط .

المصادر والمراجع:

1- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: مجمل اللغة، تح:زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986.
2- أبو عباس محمد بن يزيد المبرد : المقتضب ، تح حسن حمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1999
3- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البيان و التبين نشر وزارة الثقافة السورية سنة 2002.
4- أبو فيض محب الدين مرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس، تح علي شيري، دار الفكر، بيروت،
5- أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط 7، سنة 1991.
6- إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط4 ، 1983.
7- أحمد أمين : النقد الأدبي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ,القاهرة, د.ط, د.ت..

8- أحمد الشايب : الأسلوب ، مكتبة النهضة العصرية ، بيروت ، د.ت ، د.ط .
9- أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ,مكتبة نهضة مصر،القاهرة, ط3،1950.
10- أحمد درويش:دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث,دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع, القاهرة,د.ط,د.ت..
11- أحمد سعد مصلوح : الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط3 ، 2002 .
12- أحمد كمال زكي : النقد الأدبي الحديث أحواله واتجاهاته ، دار النهضة العربية ، بيروت، د ط، 1981
13- أحمد ياسوف : جماليات المفردة القرآنية ، دار المكتبي ، سورية ، ط1 ، 1994 .
14- أدو نيس: مقدمة الشعر العربي ، دار القلم ، بيروت ، ط5 ، 1986.
15- أرسطو طاليس : الخطابة ، تر : عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط1، 1983،
16- أمين الخولي: فن القول،دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، 1996..
17- ابن خلدون عبد الرحمان : المقدمة,تح: علي عبد الواحد وافي,دار نهضة مصر, ط3,د.ت, .
18- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، بيروت ،د.ط, د.ت
19- ابن كثير : السيرة النبوية ، تح : مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، د.ط ، 1971
20- ابن منظور: لسان العرب، مادة (جمل)، إعداد ,يوسف خياط،دار الجيل , بيروت، د,ط، 1988.
21- الأمدي الموازنة ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب ، القاهرة ،ط4, 1944 .
22- الباقلاني : إعجاز القرآن ، تح : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1954.
23- الباقلانى : إعجاز القرآن ، تح: أحمد صقر دار المعارف ، مصر ، ط3، 1970.
24- التوحيدي: الهوا مل و الشوامل ، تح: أحمد أمين و أحمد صقر، لجنة التأليف و النشر و الترجمة، القاهرة ، ط1952،1.

25- الجاحظ : الحيوان ، تح :عبد السلام هارون ، مكتبة الخاتجي ، القاهرة ، ط1 ، 1952 .
26- الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر, بيروت ، د. ط ، 1981 .
27- الزمخشري: أساس البلاغة، دار الكتب، القاهرة, ط5، 1973.
28- الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات ، دار الندى ، الاسكندرية ، مصر،(د ط) 2002 .
29- الصاحب بن عباد : المحيط في اللغة ، تح آل ياسين محمد حسن ، عالم الكتب ، بيروت، د. ط ، 1994 .
30- الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، (د،ت) ط1979.
31- الغزالي : إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1، 1986 .
32- الفرابي : كتاب السياسة ، تح : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، د.ط ، 1964 .
33- الفيروزأبادي : القاموس المحيط, الهيئة المصرية العامة للكتاب,مصر ,د.ط,1979.
34- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957.
35- بكري شيخ أمين: التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1976.
36- ةعلي شلق : الفن والجمال ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د.ت، د. ط، 1974.
37- جلال الدين السيوطي : أسرار ترتيب القرآن،تح محمد عبد القادر دار أبو سلامة، تونس، د.ط، 1986 .
38- جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، لبنان ، د.ط ، د . ت .
39- جلال الدين القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، تعليق محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجيل ، بيروت ، ط3 ، 1985
40- حازم القرطاجني: منهاج البلغاءوسراج الادباء,تح,محمد بن الخوجة,دار الكتب الشرقية,تونس , د.ط,1966.
41- حسن أيوب : مع الله في صفاته و أسمائه الحسنى ، دار الشهاب باتنة الجزائر د.ت، د.ط
42- حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ، دار الرسالة ، مصر ، د.ط ، 1945.

43- حسين الصديق : فلسفة الجمال رسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي ، دار القلم العربي ، سوريا ، ط1 ، 2003

44- زين الدين الرازي : مختار الصحاح ، تح مصطفى ديب البغا ، دار الهدي ، الجزائر ، د. ط، 1990.

45- ستانلي هايمن : النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ,تر:إحسان عباس دار الثقافة ,بيروت ط1 1958..

46- سعيد الورقي : لغة الشعر العربي الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، ط 1. سنة 1984.

47- سليمان عشراتي : الخطاب القرآني ، مقاربة توصيفيه لجمالية السرد الإعجازي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط1 ، 1998 .

48- سيد قطب : التصوير الفني في القرآن الكريم ، دار الشروق ، بيروت ، ط7 ، 1983 .

49- صالح بلعيد : نظرية النظم ، دارهومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، د.ط ، 2002.

50- صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن،دار العلم للملايين,بيروت,ط16, 1985 ..

51- صلاح عبد الفتاح الخالدي : نظرية التصوير الفني عند سيد قطب،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ،1988.

52- عبد الجليل عيسى : المصحف الميسر ، دار الشروق ، بيروت ، ط 5 ، 1391 هـ .

53- عبد الحميد طهماز : من موضوعات سورا لقرآن الكريم ،دار القلم, دمشق, 1996,ط1.

54- عبد الرحمان جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة، ضبط و تصحيح محمد جاد المولى و علي البجاوي ، دار - الجيل ، بيروت ، لبنان ، (د ت) (د ط) .

55- عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط 2 ، 1984.

56- عبد العاطي غريب علي علام : البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجر جاني و ابن سينان الخفاجي, دار الجيل ,بيروت , ط1, 1993.

57- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة,تح,محمد الفاضلي,المكتبة العصرية صيدا,بيروت ,ط1 , 1989.

58- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، د. ط ، 1991 .

59- عبد القاهر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1982.

60- عبد الله ابن المعتز : البديع ،دار إحياء التراث العربي,بيروت,د.ط,د.ت .

61- عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، دار الفكر ، بيروت د.ت ، د.ط ،

62- عبد الله الغذامي : الخطيئة و التكفير ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة السعودية ، ط1، 1985 ،

63- عدنان بن دريل :اللغة والأسلوب ,منشورات إتحاد الكتاب العرب, دمشق , د.ط ,1980 .

64- عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر، ط 3 ، 1974 .

65- علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن : أسباب النزول ، تح الجميلي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، (د ط).

66- علي بن عيسى الرماني: النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاثة رسائل في إعجاز القران تح: محمد خلف الله ،محمد - 67- زغلول،دار المعارف ط3 1976، .

68- عمار الساسي : الإعجاز البياني في القرآن ,دار المعارف , د.ط ,2004,.

69- عمار حلاسه : الحديث في المقالة الأدبية وتحليل النصوص ، دار الحديث للكتاب ، الجزائر

70- فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث ,دراسة في تحليل الخطاب ,المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ,ط1,2003 .

71- كريب رمضان : النقد الجمالي عند مصطفى ناصف ، مخطوط رسالة ماجستير ، جامعة تلمسان ، السنة الجامعية : 1993 - 1994 .

72- مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط4 ، 1984.

73- مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط1 ، 1974.

74- محمد إسماعيل إبراهيم : القرآن و إعجازه العلمي ، مصر ، دار الثقافة العربية مصر ، د.ط ، د . ت .

75- محمد إقبال عروي : اطرادات أسلوبية في الخطاب القرآني، دار الأمان، الرباط،ط1 ، 1996، .

76- محمد الحسناوي : الفاصلة القرآنية,دار الأصيل للطباعة والنشر,حلب,د.ط,د.ت.

77- محمد الغزالي : فقه السيرة ، تح ناصر الدين الألباني ، دمشق ، دار القلم ، ط7 ، 1998.

78- محمد بكر إسماعيل : دراسات في علوم القرآن ، دار المنار ، القاهرة ، ط2 ، 1999 .

79- محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، د ط، 1975 .

80- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله، مكتبة الفرابي، دمشق، ط4، 1975.

81- محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 2004 .

82- محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ،دار القلم,الكويت,ط4,1977.

83- محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية,الشركه المصرية العالمية للنشر لونجمان , القاهرة،ط1، 1991.

84- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة , بيروت ,د.ط, 1973, .

.

85- محمد كامل أحمد جمعه : الأسلوب ، مكتبة القاهرة الحديثه ، ط2 ، 1963 .

86- محمد مفتاح :تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص ، دار التنوير ، بيروت ، ط1 ، 1985.

87- محمد ناصر الألباني : السلسلة الصحيحة ، تح أبو عبيدة مشهور بن الحسين ، مكتبة المعارف ، الرياض ط1 .

88- مصطفى صادق الرافعي :إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

89- نور الدين السد :الأسلوبية و تحليل الخطاب ، دار هومه ، الجزائر ،د.ط, د ,ت .

90- نونكس : النظريات الجمالية - تح: محمد شفيق ، بيروت ، ط1 ، 1985.

91- نيكون أوفسيا : موجز تاريخ النظريات الجمالية ، ترجمة: باسم السقا ، دار الفرابي ، بيروت ، ط 2 ، 1979.

92- هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، تر: محمد عروي ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1999 .

93- عبد الملك ابن هشام : السيرة النبوية,تح:مصطفى السقا,إبراهيم الأبياري,دار إحياء التراث العربي,بيروت, ط3, 1971.

المجلات:

1- مجلة الوحدة : العدد 49 ، الرباط ، المغرب ، أكتوبر 1988 .

2- مجلة عالم الفكر : العدد 1 ، وزارة الإعلام ، الكويت ، سبتمبر ، 1998 .

3- مجلة فصول : المجلد 5 ، ع1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر،أكتوبر 1984 .

المراجع باللغة الأجنبية:

1- Grimas (AJ) et courtés (j) ; sémiotique , dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed , Hachette , Paris , 1979.voir discours.

2- Mohammed Arkoun ; lectures du coran, édition maison neuve , 1982, PARIS

3- Todorov Tzeventan , les catégories du récit littéraire inco-uniqtion 8, coll. Ed du seuil , Paris 1981

ملخص باللغة العربية

القرآن الكريم كتاب الله تعالى المعجزة الخالدة، جعله الله نورا وهداية للبشرية، و حين نتناول آياته تهتز نفوسنا ونحس بذوق متميز، وذلك وجه من وجوه الإعجاز، فهو ينمي فينا الإحساس الفطري بالجمال وحسن الخطاب، ناهيك عن روعة أساليبه، انه سحر البيان الرباني الذي تعجز العقول للوصول إلى منتهى غايات بلاغته وقوة خطابه، فهو بحر متجدد صالح لكل زمان ومكان، و هذه الدراسة التطبيقية لسورة النور محاولة لتلمس سر جماليات الخطاب القرآني إضافة إلى بيان سبيل القرآن في تشريعاته من خلال هذه السورة، وذلك ليعيش الإنسان – خليفة الله في الأرض– حياة متوازنة ويسعد دنيا وآخره.

كلمات مفتاحية:

مفهوم الجمال– خصائص الأسلوب – سورة النور خطابا جماليا.

Résumé en Français

Le coran est un message divin éternel destiné à l'humanité entier quels que soient l'époque ou le lieu. A la lecture des saintes écritures, on est pénétré au plus profond de l'âme et transporté par la magie du contenu. C'est un miracle divin qu'un esprit humain aurait été incapable d'imaginer. Cette étude appliqué de sourate En-Nur n'est essai de pénétrer le secret esthétique du discours coranique et de mettre en exergue la Magnificence du saint Coran pour que le genre humain vive heureux sur terre et mérite le Paradis Eternel.

Mots clés : le concept de la beauté-les caractéristiques du style- Sourat el Nur discours ascétique

Summary

The holy Quran, the book of Allah, the eternal miracle. God created it to guide and to lighten humanity. Our spirits shake and we feel a special taske when we deal with it. That is one aspects of its strength. It develops in us the instinctive feeling of beauty and the magic of its divine style and eloquences. That minds are inable to reach. This applied study is too show all that through the surah of DU-Nur which enables the human to act as Allah wants on earth in life and in the here after.

Key words : the concept of beauty –characteristics style- Sourat el Nur speech ascetical.

الفهرس

فهرس المواضيع

المقدمة

المدخل: مفهوم الجمال 1

ا-ماهية الجمال بين الغرب و الشرق 2

2-فكرة الجمال في الفلسفة الإسلامية 8

3-التجربة الجمالية في الأدب 11

4-بين الجمال و الخطاب 15

5-الجمال و القرآن 24

الفصل الأول: الخصائص الفنية للأسلوب

مفهوم الأسلوب 29

لغة 29

اصطلاحا 31

مفهوم الأسلوب في التراث العربي 31

الأسلوب عند علماء الغرب 36

مفهوم الأسلوب في النقد العربي الحديث 44

خصائص الأسلوب القرآني 52

الفصل الثاني:سورة النور خطابا جماليا

1-**المحور الأول: الترهيب بالعقاب** 75

2-**المحور الثاني: حادثة الإفك** 86

3-**المحور الثالث: أساليب الوقاية من الزنا** 103

4-**أثر الإيمان في النفس البشرية** 123

5-**أدب الاستئذان و مخالطة الأهل** 151

6-**أدب المؤمنين مع رسول الله ﷺ** 166

الخاتمة 175

قائمة المصادر و المراجع.